ليف تولستوي

في الدين والعقل والفلسفة

ترجمة: يوسف نبيل



- المؤلف: ليف تولستوي
- العنوان: في الدين والعقل والفلسفة
- ترجمة: يوسف نبيل
- طبعة آفاق الأولى 2018
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:
٢٠٣٤٧ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 131 - 8

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

ليڤ تولستوي

في

الدين والعقل والفلسفة

-مختارات من مقالات ورسائل ليف تولستوي-

اختارها وترجمها

يوسف نبيل

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

تولستوي، ليف.

في الدين والعقل والفلسفة - ترجمة: يوسف نبيل

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2018

192 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 20347 / 2017

الترقيم الدولي 8 - 131 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء

2 - تولستوي، ليف.

المحتويات

مقدمة المُترجِم

«كل شيء فيه منصهرٌ انصهارًا وجميلٌ جمالًا رائعًا. لم أستطعْ أن أُصدِّق أنه ملحد، رغم أني أحسست بذلك. أما الآن، بعد أن سمعته وهو يتحدث عن المسيح، وشاهدت عينيه -اللتين تشيان بذكاء أكبر من أن يكون في مؤمنٍ-، فإني أعلم بأنه ملحد إلحادًا عميقًا. أليس كذلك؟».

مكسيم چوركي -متحدِّثًا عن تولستوي- في رسالة إلى تشيخوف كانون الثاني ١٩٠٠.

صرَّح كثير من معاصريه -وإلى الآن- بهذه الفكرة، فلم يكن چوركي وحده مَن رأى فيه ملحدًا، بل وكثير من المفكرين والفلاسفة. ووصف جورج ستاينر أدبه بالوثني الذي يُعبِّر عن روح الملحمة قبل كل شيء. وكرَّر هذا التوصيف ستيفان زفايج، معتبرًا دقة التفاصيل المادية ووصف المشهد البصري بتوغُّلٍ في الناحية المادية دليلًا على الروح الوثنية اليونانية المتغلغلة في تولستوي. الغريب أن كتابات تولستوي -بعد تبلور أزمته الروحية العنيفة- أخذت تتجه نحو البساطة والوضوح أكثر فأكثر، بشكل يصعب معه إساءة فهمها أو تفسيرها؛ فهي ليست بحاجة إلى تفسير، بل إن تولستوي صمَّم في كثير من كتاباته الأدبية الأخيرة على أن تكون بسيطة بشكل متناهٍ؛ ليتسنَّى للفلاحين البسطاء قراءتها، بعد أن شعر أن غالبية الشعب الروسي لا يمكنه قراءة الأعمال الأدبية.

رأت الكنيسة إلحاد تولستوي الواضح لرفضه الاعتراف بمجمل عقائدها حول ألوهية المسيح وتجسُّده والثالوث والفداء، فقد أفرغ الدِّين من كل شيءٍ سوى تعاليمه الأخلاقية التي تحوي (الموعظة على الجبل) مجملها، وقام المعسكر الآخر من الكتَّاب والفلاسفة بتأكيد التهمة حيث وصفوا روح تولستوي بالوثنية التي تتسربل بقناع مسيحي زائف. لم يرض الثوريون عنه؛ لنبذه العنف كمبدأ أصيل ورئيس، واعتبروا هذا الرفض مجرد قناع ديني بائس لا يعبر عن الحقيقة، ولم يسلم الليبراليون من اتهاماته لهم بالتَّواطؤ مع النظام. عارض الجميع وعارضوه، وبدأت سلاسل عظيمة من إساءة الفهم في تناول كتاباته الدِّينية والفلسفية... فما السبب الحقيقي في سوء الفهم؟ وهل هو متعمد حقًّا؟

تكشف كتابات تولستوي في الدِّين عن عدة أمور خطيرة تحتاج إلى التوقُّف والإمعان والملاحظة، وأول ما تكشفه الموقف المركَّب من الدِّين الذي أدَّى في النهاية إلى كل الخلافات الحقيقية التي نحياها الآن. انتقد تولستوي تفسيرات ورؤى الفلاسفة الغربيين للدِّين، وفنَّد الكثير منها، أو على الأقل قدَّم انتقادات جدية حول هذه التعريفات والتفسيرات الشهيرة التي اعتمدها الاتجاه المادي الذي سيطر على الفلسفة والفكر الغربيين تمامًا، سواء كانت مادية ميكانيكية فجة، أو مادية إنسانية. إن آراء فرويد وماركس وراسل وفويرباخ وأوجست كونت وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين تتشابه إلى حد كبير، أو على الأقل تتفق في كثير من النقاط؛ فكثير منهم فسَّر ظهور الدِّين على أنه نتاج الخوف من ظواهر الطبيعة غير المفهومة، ومن ثَم تجسيدها وتأليه الإنسان لهذه القوى الطبيعية والخضوع لها، وقال البعض إن الدِّين قد نشأ عن روحنة كافة ظواهر الطبيعة، أو إنه إعادة إنتاج لمشاعر العجز والضعف والعداء صوب الأب، والبعض يؤكد أن عصر الدِّين قد مضى، وأنه قد حان الآن الوقت لاستبداله بالعِلم.

حين يفند تولستوي هذه الآراء فكريًّا، لا يكتفي بهذا، بل يُعمل مشرطه

النفْسي في تحليل الأسباب الحقيقية خلف الموقف المركَّب من الدِّين لدى كثير من المثقفين، فالعداء الحقيقي للدِّين يكمن في عدم الرغبة في اتباع النواميس الأخلاقية التي تحضُّ على ضبط النفْس. يستشهد تولستوي بأدلة كاشفة حول المواقف الأخلاقية لكثير من المثقفين والليبراليين فيما يخص شهوات الطعام والجنس وغيرها.

يؤكد تولستوي على أن العداء مع الدِّين له جذوره الأخلاقية في الأساس، لا الفكرية. ومن هذه الرؤية يمضي باحثًا عن معنى الدِّين الحقيقي، فلا يجده في المسيحية الكنسية أو البوذية الرسمية أو الكونفوشيوسية أو الإسلام، وبقية الأديان الرسمية... إنها كلها أديان، لكنها ليست «الدِّين»، فكلها محاولات ظهرت في أوقات وعصور مختلفة؛ استجابة لحاجة إنسانية حقيقية، وتدهورت في عصور أخرى لتتحول إلى عقائد منافية للعقل تعتمد على المعجزة والأسطورة ومبادئ عدم المساواة. يتلخص الدِّين بمعناه الحق -لدى تولستوي- في مبادئ بسيطة للغاية عن مساواة البشر جميعًا وأُخُوَّتهم وأُبُوَّة الإله الواحد لهم، ونبذ الشر والعنف وضبط الذات.

عندما تُطرح هذه الأفكار، يقول الملحدون إنها رؤية أخلاقية لا دينية، وهم هنا يتحدثون عن الدِّين بوصفه دوجما عقائدية مثلما في المسيحية الكنسية أو غيرها من الأديان، ويؤكد تولستوي أنهم يتعاملون مع شيء ما بوصفه الدِّين، وهو ليس كذلك. بالرغم من بساطة أفكار تولستوي التي يطرحها عن الدِّين، إلا إنها لا تتطابق مع الدِّين الإنساني الذي دعا إليه المفكرون الإنسانيون في عصور عديدة، ففكْر تولستوي الدِّيني يعتمد على ثنائية الإله- الإنسان، وبالرغم من اعترافه بمحاولات الإنسان الممكنة للسلوك في طريق الكمال، إلا إنه لن يبلغ الكمال؛ لأنه طريق لا ينتهي، والإنسان عنده ليس بديلًا عن الإله، أي أنه ملزم بتنفيذ ناموس الله، وكل منهما له مكانه في العلاقة، ولا يمكن تجاوزه عبر

محاولات تأليه الإنسان التي سعى إليها الدِّين الإنساني. الدِّين الإنساني -بعيدًا عن تولستوي- ديانة بلا إله، أمَّا عند تولستوي فالأمر ليس كذلك، وينعكس هذا بشدة في تعاليمه الأخلاقية التي تحافظ على تواضع الإنسان، ولا تؤلِّهُهُ على الإطلاق.

حاول تولستوي أن يُبسِّط أفكاره أكثر فأكثر، ويكرر ما يظنه قد استعصى على الفهم، أما المشكلة الحقيقية لم تكن في صعوبة أفكاره؛ بل في بساطتها الصادمة للجميع، حتى أنه لم يعد بالإمكان قبولها ببساطة. لقد هاجم الجميع... المفكرين والفلاسفة والعلماء والكنيسة والليبراليين والحضارة بأكملها، وهذا الهجوم قابله هجوم مضاد، وبالرغم من ذلك لم تَكُفَّ شهرته عن الازدياد يومًا فيومًا، وتحول تأثيره إلى أشكال منظمة اجتماعيًّا وسياسيًّا، حتى أن غاندي قد أنشأ مزرعة تولستوي، وطبَّق مبادئ عدم مقاومة الشر بالشر، ونبْذ العنف بشكل سياسي. ونشأتْ تيارات العصيان المدني، وتلاقت أحيانًا الأفكار واختلفت في أحيان أخرى.

تظهر إساءة الفهم المتعمد جلية في عدم الرد حول دعاوي تولستوي الدِّينية بشكل جاد، وبالرغم من تفنيده لكثير من الأفكار المتعلقة بنشأة الدِّين وجوهره، فما زالت حتى يومنا هذا تتكرر في الندوات والكتب بشكل يثير الرثاء دون جدية حقيقية في فهم الظاهرة الدِّينية. بينما انتحت الحضارة الغربية صوب العلمانية والفصل الكامل للدِّين لا عن الحكم فقط، بل عن المجتمع بأسره، فقد ربط تولستوي كل شيء بالدِّين، وأكد أنه الرؤية التي يمكن للإنسان من خلالها فَهْم موقعه من الكون ووظيفته ودوره فيه، ومن ثَم يحدد ناموسه الأخلاقي، لذلك فبينما ينتحي العالم الغربي أكثر فأكثر صوب المادية، كان عليه أن يُزوِّر الدِّين، والمهمة سهلة طالما أن الدِّين الذي يدعو إليه المتدينون مزيف مثير للرثاء، يتمحور حول بعض العقائد الدوجمائية التي تحتاج لمعجزات وعجائب

وخوارق كي تثبت صحته، ويعارض العقل ويؤسس للكهنوت. سواء في الاتجاهات السلفية الدِّينية أو الصوفية، جميعها يرفض مرجعية العقل، ويؤكد بوضوح وصراحة على مرجعيات أخرى، سواء كانت النص الدِّيني أو الكشف الصوفي والتجربة الروحية، حتى وإن عارضت بديهيات العقل.

أدت جذرية أفكار تولستوي لصعوبة قبولها؛ فهي لا تتعامل مع الحلول الوسطية، وفي دعاويها للعصيان لا تستند على المصالح الطبقية أو المادية، بل الدِّينية والأخلاقية قبل كل شيء... إنه يدعو لعصيان شامل لكل نظام يستخدم كل قواه المادية من أجل ترسيخ العنف والظلم... إنه عصيان جذري لا يمكنه أن يقبل بأية مساومات.

تُخالف مقالات تولستوي الدعاوي المستمرة حول إمكانية العلم أو الفلسفة من إنقاذ الإنسان وحل مشكلات العالم الجوهرية، كما ادَّعى كثيرون مثل كارل بوبر مثلًا.

بقدر جذرية وأصالة أفكار تولستوي، بقدر تبسيطها لبعض المسائل المعقدة، ففي دعاويه للعصيان اعتمد بالكامل على الموقف الدِّيني، ولم يتطرق مثلًا لإجابات أسئلة معقدة مثل سبب تأييد الناس لأنظمةٍ لا تسعى صوب مصالحهم بل لظلمهم والإضرار بهم... لقد فسر هذا بالدِّين الفاسد الذي أثَّرت به الكنيسة على الناس من ناحية، وإنكار هذا الدِّين الفاسد من قبل العلماء على أنه الدِّين الحقيقي، مما نحا بالناس إلى البعد الكامل عن ضبط الذات وقبول أي ناموس أخلاقي، ومن ثَم قبول الفساد، لكن مع الوقت أثبتت هذه الرؤية بعض القصور.

حاول إريش فروم -مثلًا- التعبير عن هذه المشكلة وتفسيرها عبر مفهومه عن مصفوفة الشخصية الاجتماعية، وهي مصفوفة الشخصية الشائعة عند مجموعة (أُمَّة أو طبقة على سبيل المثال)، والتي تحدد بشكل مؤثر أفعال وأفكار

أعضائها، وتُعزَّز بكافة وسائل التأثير المتاحة في المجتمع كالنظام التعليمي، والدِّين والأدب والأغاني والنكات والعادات، وأكثر من كل ذلك الطريقة التي يُنشِّئ بها الآباء والأمهات أطفالهم. بمجرد ما ينجح المجتمع في تشكيل القالب لبناء الشخصية للإنسان العادي باستبدال ما يحب الإنسان أن يفعله بما يجب أن يفعله، فهو يرضى بكل الظروف والأحوال التي يفرضها المجتمع عليه.

ربما احتاجت فلسفة تولستوي إلى تأصيل نفْسي، يُمكِّنه من تفسير بعض الظواهر الاجتماعية، ويساعده أكثر في وضع نظريته الدِّينية والاجتماعية، ورغم ذلك نجح في الولوج إلى أعماق سحيقة ببساطة مخيفة، حتى أنها كانت صادمة بشكل لا يقبله كثيرون، فعندما يدعو تولستوي فلسفة نيتشه بالتافهة والمبتذلة، يُعبِّر هنا عن روح جريئة مناقضة للتيار الفكري العام.

حاولت عبر هذه المقدمة الإجابة عن سبب سوء الفهم المتعمد عبر أطروحة معارضته للجميع بلا استثناء، وإيضاح أن هذا الخلاف يعود إلى الناموس الأخلاقي الشخصي الذي يحاول كل اتجاه أن يبرره؛ كي يستمد سلوكُهُ شرعيةً اجتماعيةً وفكريةً.

نحن أمام مُفكِّر عظيم عرفه الشرق كأديب أكثر منه كمُفكِّر... تولستوي هذا العبقري الذي يمكنه تناول أعقد المسائل الفكرية والفلسفية ببداهة الأطفال، بل والكتابة بروحهم كما قدَّم نموذجًا في محاورة أب وابنه في هذا الكتاب. كل هذه الأسباب دعتني للاهتمام بنقل أفكاره الفلسفية والدِّينية إلى العربية عن الروسية مباشرة في ترجمة أعتبرُها أمينة، وأرجو أن أكون قد وُفِّقتْ فيها، وقد اخترتُ مجموعة من أشهر مقالاته في الدِّين والأخلاق، وامتد بعضها إلى السياسة بالطبع، وأنوي أن أكملها في القريب.

يوسف نبيل

العقل والدِّين

الكريمة آنا جيرمانوڤنا[1]،

أسئلتك شديدة الأهمية، ويجب أن تكون كذلك لكل إنسان، كما أنها مصاغة بشكل جيد، لذا فإني أرغب بشدة في الإجابة عليها. سأحاول فعل ذلك الآن.

تسألينني يا آنا جيرمانوڤنا عن الآتي:

١- هل يجب على البشر -الذين لا يحوزون قدرات عقلية رفيعة- أن يسعوا إلى التعبير عن الحقائق التي توصلوا إليها عن حياتهم الروحية عبر كلمات واضحة؟

٢- هل يجب أن نسعى إلى الوصول إلى فهم واضح وكامل للحياة الروحية؟

---

(١) آنا جيرمانوڤنا روزين: سيدة كانت تقطن بإحدى مقاطعات أستونيا الشمالية. فكَّرتْ في إصدار مجموعة من الأعمال الأدبية يذهب ربحها لصالح المجذومين، توجهت إلى تولستوي في ٨ مايو ١٨٩٤ كي يمنحها مجموعة من أعماله ليشارك بها في المجموعة الأدبية التي تود إصدارها، لكنه انشغل بأعمال كثيرة، فأرسلت روزين إليه في ١٧ سبتمبر تطلب منه -إن لم يتمكن من إنهاء عمل أدبي يشارك به في مجموعتها- أن يجيب فقط عن ثلاثة أسئلة أرسلتها إليه؛ ليشارك بها في المجموعة.

في خطاب آخر أرسلته روزين إلى تولستوي في ١٨ ديسمبر، أخبرته أن الرقابة منعتها من نشر خطابه لها ضمن المجموعة الأدبية.

٣- كيف يمكننا أن نعرف في لحظات الصراع والشك إن كان الضمير يتحدث إلينا، أم إنه العقل الذي طغى عليه الضعف؟ (السؤال الثالث قد صغتُهُ بمفرداتي بداعي الاختصار، آمِلًا ألَّا أكون قد غيَّرتُ المعنى الذي قصدتيه).

في رأيي: هذه الأسئلة الثلاثة يمكن أن نختصرها في سؤال واحد؛ لأنه إن لم يكن علينا أن نصل إلى فهم كامل لحياتنا الروحية، فلن نستطيع وقتها -ولن يكون بإمكاننا- أن نُعبِّر بالكلمات عن الحقائق التي لدينا، وفي لحظات الشك لن نتمكن من معرفة ما إن كان ضميرنا هو الذي يتحدث أو إنه تفكير فاسد. أمَّا إن كان يتوجب علينا أن نصل إلى أقصى قدرات عقلنا -بغض النظر عن قدرات هذا العقل- فهذا يعني أنه يتوجب علينا أن نعبِّر بالكلمات عن الحقائق، وسيقودنا هذا إلى الوصول إلى تفهُّم كامل وتعبير واضح عنها، وهذا بدوره سيرشدنا في لحظات الصراع والشك. لذلك فإني أجيب عن سؤالك الأساسي بالإيجاب، وأعني أنه كي يتمكن كل إنسان من القيام بدوره على الأرض، وكي يصل إلى الخير الحقيقي (والأمران سيان) عليه أن يبذل كل قواه من أجل أن يتفهَّم كاملًا تلك القواعد الدِّينية التي يعيش على أساسها، وهذا بدوره يعني أن يفهم هدف حياته.

كثيرًا ما وجدت بين الحفَّارين بالأرض -غير المتعلمين الذين يحسبون عمق الأراضي- قناعةً عامةً بأن الحسابات الرياضية خادعة، وأنه لا يجب الثقة فيها. هذا لأنهم لا يعرفون الرياضيات، أو لأن الذين يجيدون الرياضيات كثيرًا ما يخدعونهم، سواء عن عمد أو عن غير

عمد، ولكن رأيهم في لا جدوى الرياضيات في تحديد القياسات أصبح حقيقة لا تقبل الشك بين غالبية العمَّال غير المتعلمين، وهم لا يرون حتى أنه يتوجب عليهم إثباتها من فرط بداهتها.

حبا الله الإنسان وسيلةً واحدةً فقط، يمكنه بها أن يتعرف على نفْسه ويكتشف علاقته بالعالم، وما من وسيلة أخرى سواها، وهي: العقل، ثم يقولون له فجأة إنَّ هذه الوسيلة يمكنه أن يستخدمها في تفهُّم واستجلاء مشكلاته المنزلية والأُسرية والاقتصادية والسياسية والعلمية، لكنه لا يمكنه استخدامها في استجلاء الحقائق الأكثر الأهمية، التي تتوقف عليها حياته بأكملها، بل يتوجب عليه أن يستجلي هذه القضايا بعيدًا عن العقل، لكنه بعيدًا عنه لا يمكنه استجلاء شيء. يقولون: تعاملْ مع هذه المسائل عن طريق الإيمان بالوحي، لكن الإنسان لا يمكنه أن يؤمن بعيدًا عن العقل. إن كان الإنسان يؤمن بشيء، ولا يؤمن بآخر، فالسبب الوحيد لذلك هو أن عقله يُحدِّثه بأنه لا يجب أن يؤمن بهذا، لكنه يجب أن يؤمن بذاك[٢] . القول بأن العقل لا يجب أن يقود الإنسان، يماثل قولنا لإنسان يسير في الظلام تحت الأرض حاملًا مصباحًا: لكي تتمكن من الخروج من الظلام يجب أن تُطفئ المصباح، وإن الضوء لن يقودك، بل شيء آخر.

لكن من الممكن أن يُقال لكِ -كما كتبتِ في خطابك-: إن البشر

(٢) فارق كبير بين ما يجب أن يكون وما هو كائن بالفعل، ففي أغلب المجتمعات لا يرتبط الإيمان بأي اختيار على الإطلاق، خاصة في مجتمعاتنا العربية، بل يكون الأمر عبارة عن وراثة خالصة، لكننا لا يمكننا استبدال ما هو كائن بما يجب أن يكون. لذا فما نطلق عليه -مجازًا- إيمانًا قد يكون في رأي تولستوي لا يشبه الإيمان في شيء؛ لأنه لا يعبر عن أي اختيار. (المُترجِم).

لم يمنحهم الله جميعًا عقلًا ذكيًّا وقدرات خاصة يمكنهم بها أن يُعبِّروا عن أفكارهم، لذلك سينقادون إلى الضلال إن استخدموا العقل. يجيب الإنجيل عن ذلك: «لأَنَّكَ أَخْفَيْتَ هَذِهِ عَنِ الْـحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ»[٣] . ولا تحمل هذه العبارة أي نوع من المبالغة أو الرمزية كما يفهم الناس كثيرًا من عبارات الإنجيل التي لا تروق لهم، لكنها تأكيدٌ على أكثر الحقائق بساطة وثبوتًا، وهي أن كل مخلوق في هذا العالم قد حباه الله قانونًا يجب أن يعيش وفقًا له. ولكي يتعرف على هذا القانون؛ منح الله كل مخلوق الأدوات المناسبة التي يمكنه أن يستخدمها في التعرُّف عليه. حبا الله كل إنسان العقل، وفي داخله القانون الذي يجب على الإنسان أن يعيش وفقًا له. يُحجب هذا القانون فقط عن البشر الذين لا يودون أن يعيشوا وفقًا له، وكي يفعلوا هذا ينكرون دور العقل، وبدلًا من أن يستخدموه في التعرُّف على هذه الحقائق، يلجأون إلى التسليم بإيمان بشر آخرين رفضوا العقل مثلهم.

إن القانون الذي يجب على الإنسان أن يتبعه بسيطٌ للغاية، حتى أنه يناسب الطفل، أكثر من البالغ الذي لا يريد اكتشاف قانون حياته. لقد اكتشفه أسلافنا وعبَّروا عنه، وما على الإنسان سوى أن يتحقق منه بعقله، وأن يقبل أو يرفض هذه القوانين التي تضمنتها التقاليد، لكنه لا يجب أن يفعل ما ينصحه به أولئك الذين لا يرغبون في طاعة هذا القانون، ولا يجب عليه أن يحكم على عقله في ضوء التقاليد، بل على العكس، يجب على العقل أن يحكم على التقاليد. إن تقاليد الناس قد

(٣) متى ١١: ٢٥.

تكون كاذبةً، أمَّا العقل فهو من الله، ولا يمكن أن يكون كاذبًا. لذلك، كي نتعرف على الحقيقة ونُعبِّر عنها، لا تلزمنا على الإطلاق أية قدرات عقلية رفيعة، بل يجب علينا فقط أن نثق في العقل؛ ليس فقط لأنه أعظم هبات الله للإنسان، لكنه أيضًا الأداة الوحيدة لدى الإنسان كي يتعرَّف على الحقيقة. يبدو أن القدرات العقلية الرفيعة ليست ضرورية من أجل التعرُّف على الحقيقة وتفسيرها، بل للتعرُّف على الكذب وتفسيره! بعد أن فقدنا ثقتنا في العقل ووثقنا فيما راكمه الناس وقدموه لنا بدلًا من الحقيقة لنؤمن به، وعادة ما تكون هذه التقاليد في صورة قوانين، ووحي، وعقائد معقدة مزيفة متناقضة. يلزمنا الآن كي نتمكن من تفسيرها وربطها بالحياة عقل ذو قدرات رفيعة وذكاء شديد. يحتاج المرء فقط أن يتخيل إنسانًا من عالمنا، نشأ على قواعد دينية مسيحية، سواء كاثوليكية أو أرثوذكسية أو بروتستانتية، يود أن يوضح هذه القواعد التي تلقنها من الطفولة، ويربطها بالحياة، فيا له من عمل شديد التعقيد، حتى يقبل كل هذه المتناقضات الموجودة في إيمانه الذي تربى عليه، فالله الخالق الطيب قد خلق الشر، ويعاقب الناس بينما يطالبهم بالتكفير عن خطاياهم... إلخ، ولدينا قانون الحب والغفران، لكننا نقوم بعمليات الإعدام والقتال وننتزع الملكيات من الفقراء... إلخ.

لذلك، كي نسوِّي كل هذه المتناقضات، أو نخفيها تمامًا، تلزمنا عقول كثيرة، وقدرات عقلية فائقة! لكن كي نتعرَّف على قانون حياتنا، أو -كما قلتِ- كي نتوصل إلى فهم كامل وواضح لإيماننا، لا يتوجب على المرء أن تكون لديه قدرات عقلية خارقة، بل عليه فقط ألَّا يسمح

بأن يصدق شيئًا يُناقض العقل، ولا يجب عليه أن ينكر العقل، بل يحميه ويصدقه وحده.

إن كان معنى حياة الإنسان غائبًا عنه، فهذا لا يعني أن العقل غير مناسب لتفسيره، بل يعني أن الإنسان قد آمن بأمور كثيرة غير ملائمة، ويجب عليه أن يُلقِي إلى الخارج بكل ما يناقض عقله. ولنعد الآن لسؤالك الأساسي: هل يجب أن نسعى إلى الوصول إلى فهم واضح وكامل للحياة الروحية؟ إنه أهم عمل يمكن للإنسان أن يقوم به في حياته بأكملها. إنه أمر واجب وهام؛ لأن الفكرة العقلية الوحيدة عن حياتنا هي أن ننفذ مشيئة الذي أرسلنا في هذه الحياة. لا تظهر إرادة الله عبر أية معجزات أو عجائب، ولا بقوانين مكتوبة بإصبع الله، ولا بمساعدة الروح القدس أو عن طريق كتاب معصوم من الخطأ، ولا بواسطة شخصية مقدسة معصومة عن الخطأ أو جماعة من الناس، بل عن طريق استخدام البشر للعقل الذي يتحرك بين الناس بالفعل والكلمة أكثر فأكثر موضِّحًا لهم الحقيقة. معرفة الحقيقة لم ولن تكون كاملة أبدًا، لكنها تتزايد باستمرار عن طريق حركة الحياة البشرية. فكلما تطول حياتنا، كلما نفهم أكثر عن إرادة الله، ويتوجب علينا تباعًا فعل المزيد من أجل تنفيذها. لكل ما سبق؛ فإني أعتقد أن عملية الفهم التي يقوم بها الإنسان كي يفهم الحقيقة الدِّينية التي تناسبه ويُعبِّر عنها بالكلمات تُعَدُّ من أهم وأقدس الأعمال التي قد يقوم بها كل إنسان، بغض النظر عن الضآلة التي يرى الإنسان بها نفْسه أو يراه بها الآخرون، فالأدنى قد يكون الأعظم، والتعبير بالكلمات علامة على الفهم الكامل والواضح للفكرة.

سأكون سعيدًا للغاية إن وجدتِ بغيتك في إجابتي، على الرغم من أنها غير شاملة بالطبع. أرجو أن تسامحي عدم استفاضتي في الإجابة، فقد تراكمت عليَّ الأعباء كثيرًا في الفترة الأخيرة.

ليف تولستوي

٢٦ نوفمبر ١٨٩٤

الدِّين والأخلاق

تسألونني[٤] :

١ – ما الذي أفهمه من كلمة: «الدِّين»؟

٢– هل يمكن أن تكون لدينا أخلاق بمعزل عن الدِّين؟ وما ماهية هذه الأخلاق؟

سأحاول قدر طاقتي أن أجيب عن هذه الأسئلة شديدة الأهمية، والمطروحة بشكل رائع.

كلمة «الدِّين» عادة لها ثلاثة معانٍ:

الأول– وهو الأكثر شهرة، تعني فيه الوحي الحقيقي الذي منحه الله للناس، والذي يتمثل في كتاب مقدس. هذا المعنى يوصف به الدِّين من قبل المؤمنين بإحدى الديانات الموجودة، والذين يعتبرون ديانتهم الوحيدة الحقيقية.

المعنى الثاني للدِّين– مرتبط بإطار من الخرافات تُنتج عبادات خرافية. هذا هو تفسير غير المؤمنين بشكل عام للدِّين، أو غير المؤمنين بديانة معينة.

(٤) كتب تولستوي هذا المقال ردًّا على سؤال وجهته له الجمعية الأخلاقية الألمانية.

المعنى الثالث للدِّين- أنه عبارة عن قوانين وتشريعات شديدة الأهمية، سُنَّت من قبل بعض الحكماء للجموع الهمجية؛ كي تعمل على طمأنتهم وقمع شهواتهم البهيمية، وقيادتهم. هذا تفسير غير المبالين بالدِّين، والذين يعتبرونه أداة فعَّالة للدولة.

وفقًا للتفسير الأول، فالدِّين حقيقة لا تقبل الشك أو الجدال، ومن الجيد -بل من الضروري- نشره بكل الوسائل الممكنة من أجل خير الناس.

وفقًا للتفسير الثاني، فالدِّين مجموعة من الخرافات، ومن الجيد -بل من الضروري- تخليص الناس منه بكل الوسائل الممكنة.

وفقًا للتفسير الثالث، فالدِّين عبارة عن تشريعات من أجل تنظيم الناس، وبالرغم من أنه غير ضروري لفئة المثقفين، إلا أنه ضروري من أجل تعزية العامة وقيادتهم.

يشبه التفسير الأول ما قد يقوله الإنسان عن موسيقى أو أغنية ما بعينها يراها الأفضل، فيقول إنه يجب تعليمها لكل الناس.

يشبه التفسير الثاني إنسانًا لا يمكنه تذوُّق الموسيقى، وبالتالي لا يحبها، فيقول إنها عبارة عن أصوات تنتجها الحنجرة، أو ينتجها الفم، أو حتى توقع بها الأيدي على بعض الآلات، يجب أن نفطم الناس عنها بأقصى سرعة ممكنة، فهي غير مفيدة، بل وقد تكون ضارة.

يشبه التفسير الثالث ما قد يقوله إنسان عن الموسيقى، من حيث إنها مفيدة لتعلُّم الرقص، أو حتى للمسيرات العسكرية، لذا يجب أن نشجِّع تعلُّمها.

يعود الاختلاف والعيب في هذه التعريفات إلى أنها جميعًا لم تتطرق لجوهر الموسيقى، بل تتعامل فقط مع سماتها الخارجية، ويجري ذلك من وجهة نظر الـمُعرِّف. الأمر ذاته مع تعريفات الدِّين الثلاثة.

فطبقًا لتعريف الدِّين الأول، فهو ما يراه المؤمن به أنه الإيمان الصحيح.

طبقًا للثاني، فالدّين -من وجهة نظر الرائي- أمر مزيف، آمن الآخرون به عن خطأ.

طبقًا للثالث، من المفيد أن نجبر الناس على الإيمان به.

لم تتطرق التعريفات الثلاثة إلى جوهر الدِّين، بل إلى إيمان الناس بما يعتقدون أنه «الدِّين». استبدل التعريف الأول الدِّين بإيمان يعتقده المؤمن أنه «الدِّين»، والتعريف الثاني وجهة نظر بعض الناس فيما يعتبره البعض الآخر «الدِّين»، أما الثالث فهو عمَّا قُدِّم للناس على أنه الدِّين بدلًا من الحقيقي.

ولكن ما الإيمان؟ ولِمَ يؤمن الناس بما يؤمنون به؟ ما الإيمان؟ ومن أين جاء؟

من المتفق عليه في أوساط غالبية جموع المثقفين المعاصرين أنه الخوف من ظواهر الطبيعة غير المفهومة التي تُشكِّل جوهر كل دِين، ومن ثَم تجسيدها وتأليه الإنسان لهذه القوى الطبيعية والخضوع لها.

يقبل مثقفو زماننا هذا الرأي دون فحص أو نقد، ولم يقتصر الأمر على عدم رفض رجال العِلم لهذا الرأي، بل لقد وجد الدعم والمساندة

من قِبَل غالبيتهم، وإن ظهرت بينهم بين الحين والآخر أصوات مثل ماكس موللر(٥) وآخرين، يرون أن أصل الدِّين ومعناه ليسا كذلك، لا يُلتفت أبدًا إلى هذه الأصوات، ولا تُلاحظ حتى بين القبول الجمعي العام بأن الدِّين تعبير عن الخرافة والبربرية. منذ وقت ليس ببعيد، في بداية هذا القرن تقريبًا، لم ينكر بعض التقدميين -الذين رفضوا الكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذكسية، تمامًا كما فعل موسوعيو نهاية القرن الماضي- أن الدِّين بشكل عام كان وما زال شرط الحياة الضروري لكل إنسان. غني عن الذكر الربوبيون(٦) من أمثال برناردين دي سان پيير(٧)، ديدرو(٨)، روسو(٩)، ڤولتير(١٠) الذي نصب تمثالًا لله، وروبسبيير(١١) الذي أسس عيد الاحتفال بالموجود الأعلى. لكن

---

(٥) ماكس موللر ولد في ٦ ديسمبر ١٨٢٣، وتوفي في ٢٨ أكتوبر ١٩٠٠. كان مستشرقًا بريطانيًّا وعالمًا لغويًّا. ألماني المولد. صنّف الأساطير وفقًا للغرض الذي هدفت إليه، ودرس الأديان دراسة مقارنة. اهتم بصفة خاصة باللغة السنسكريتية الهندية القديمة.

(٦) الربوبية: مذهب فكري لا ديني، وفلسفة تؤمن بوجود خالق عظيم خلق الكون، وبأن هذه الحقيقة يمكن الوصول إليها باستخدام العقل ومراقبة العالم الطبيعي وحده.

(٧) روائي فرنسي ومتخصص في علم النبات. أشهر ما عرف به روايته بول وفرجيني **Paul et Virginie** التي نشرت للمرة الأولى عام ١٧٨٧.

(٨) ولد في ٥ أكتوبر ١٧١٣ بلانجر، وتوفي في ٣١ يوليو ١٧٨٤ بباريس. وهو فيلسوف، وكاتب، وموسوعي، وهو أيضًا كاتب مسرحي وكاتب مقال وفني. من أب حرفي، برز بإشرافه على إصدار «موسوعة الفنون والعلوم والحرف» وتحرير العديد من فصوله.

(٩) كاتب وأديب وفيلسوف وعالم نبات، يعد من أهم كتاب عصر التنوير.

(١٠) كاتب وفيلسوف فرنسي عاش في عصر التنوير. عُرف بنقده الساخر، وذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية الظريفة ودفاعه عن الحريات المدنية خاصة حرية العقيدة، والمساواة وكرامة الإنسان.

(١١) محامٍ وزعيم سياسي فرنسي، أصبح أحد أهم الشخصيات المؤثرة في الثورة الفرنسية، والنصير الرئيس لعهد الإرهاب، وهو أحد أشهر السفاحين على مر التاريخ، إذ أمر بإعدام ما يقارب ١٧ ألف مواطن فرنسي.

في زماننا هذا، وبفضل الأفكار التافهة والسطحية لأوجست كونت[١٢] التي تؤمن بكل إخلاص -مثل غالبية الفرنسيين- أن المسيحية هي الكاثوليكية، وأن الكاثوليكية وحدها هي التجسيد الكامل لها، اعتُمِد بين جموع المثقفين -الذين دائمًا ما يعتنقون أقل الآراء قيمة- أن الدِّين ما هو إلا مرحلة ماضية طويلة في تاريخ تطور البشرية، وهي تعوق التطور الآن. يرون أن الإنسانية قد عاشت بالفعل مرحلتين: الدينية والميتافيزيقية، والآن فهي في المرحلة الأعلى والأرفع؛ العلمية، ويرون أن كل الظواهر الدينية بين الناس ما هي إلا بقايا المرحلة الدينية التي فقدت بالفعل معناها ووظيفتها، مثل الإصبع الخامس للجواد. وهم يرون أن جوهر الدِّين يستدعي الخوف أمام قوى الطبيعة الغامضة، والإيمان بموجودات خيالية وعبادتها، كما اعتقد ديموقريطس[١٣] في الماضي، وكما يؤكد اليوم فلاسفة ومؤرخو الدِّين المعاصرون.

لكن بغض النظر عن ذلك، فالإيمان بكائنات خرافية خفية أو كائن واحد، لا ينشأ دائمًا عن الخوف الذي ينتاب الإنسان أمام قوى الطبيعة الغامضة، ويُدلِّل على ذلك مئات المفكرين التقدميين المرموقين في الماضي مثل سقراط وديكارت ونيوتن، وبعض من علماء يومنا هذا، الذين لم ينشأ إيمانهم هذا عن الخوف الناجم من قوى الطبيعة الغامضة.

---

(١٢) عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي فرنسي، أعطى لعلم الاجتماع الاسم الذي يعرف به الآن، أكد على ضرورة بناء النظريات العلمية المبنية على الملاحظة، ويعد هو نفسه الأب الشرعي والمؤسس للفلسفة الوضعية.

(١٣) فيلسوف يوناني ولد في أبديرة، تراقيا. كان أحد الفلاسفة المؤثرين في عصر ما قبل سقراط، وكان تلميذا للفيلسوف ليوكيبوس، الذي صاغ النظرية الذرية للكون.

لذلك فإن التأكيد على أن الدِّين ينشأ من الخوف الناجم من قوى الطبيعة الغامضة في حقيقة الأمر لا يجيب عن التساؤل الرئيس: من أين أتى الناس بفكرة الإيمان بمخلوقات خرافية؟

إن خاف الناس من البرق والرعد، فهما يخافان من البرق والرعد ذاتهما، ولكن لماذا كان عليهم أن يختلقوا أي مخلوق خرافي مثل جوبيتر(١٤)، يعيش في مكان ما ويطلق عليهم القذائف؟

إن شَعُرَ النَّاسُ بالهلع أمام منظر الموت، فهم يخافون من الموت ذاته، ولكن لماذا يختلقون فكرة أرواح الموتى التي غزت خيالهم؟

يمكن أن يحاول الناس الهروب من الرعد، وقد يجعلهم الهلع من الموت يحاولون الهروب منه، ولكن أن يختلق الناس موجودًا جبَّارًا أبديًّا يعتمدون عليه، وأرواح الموتى الحية، فهذا لم ينبع فقط من الخوف، ولكن من أسباب أخرى أيضًا. في قلب هذه الأسباب يكمن جوهر ما ندعوه بـــ«الدِّين». بالإضافة إلى ذلك، فكل إنسان -حتى وإن كان طفلًا- قد اختبر الشعور الديني، ويعرف بخبرته الخاصة أنه يعمل بداخله، لا بوحي من ظواهر مادية خارجية مرعبة، لكن بوحي من ظواهر داخلية، لا تشبه الخوف من قوى الطبيعة الغامضة في شيء، ولا حتى الشعور بالضآلة والوحدة والذنب. لذلك يمكن للإنسان أن يعرف -بالملاحظة الخارجية والخبرة الخاصة- أن الدِّين ليس عبادة الآلهة التي يحثها الخوف أمام قوى الطبيعة الغامضة، والذي يشكل مرحلة معينة في تاريخ التطور البشري، لكنه أمر مختلف تمامًا عن الخوف،

(١٤) ملك الآلهة الرومانية، وإله السماء والبرق لديهم.

وعن درجة تعلُّم الإنسان؛ أمر لا يمكن لأي درجة من الثقافة والتنوير أن تقضي عليه، فوعي الإنسان بمحدوديته وسط العالم اللامحدود، وفساده بسبب عدم إنجازه ما يستطيع وما يجب أن يفعله، كان وما زال موجودًا حتى يومنا هذا طالما ظل الإنسان إنسانًا.

في الحقيقة، حالما يخرج كل إنسان من الحالة الحيوانية التي يحياها إبان الطفولة، والتي يعيش فيها فقط طبقًا لمتطلباته التي تحتمها عليه طبيعته الحيوانية، لا يمكنه بعد أن تَعرَّف على معرفة العقل ألا يلاحظ أن كل ما يحيا حوله يتجدد ولا يتلاشى، متغيرًا طبقًا لقانون واحد أبدي، أما هو فإنه وحده مَن يدرك ذاته مستقلًا عن عالم المخلوقات بأكمله، ذاهبًا صوب الموت.. إلى التلاشي في الخواء غير المحدود إلى الأبد، وإلى المعرفة المؤلمة بمسئوليته عن أفعاله، وإلى الوعي بأنه بعد أن يفعل الشر يمكنه أن يعود ويصنع الخير. بفهم ذلك، فكل إنسان عاقل لا يمكنه ألا يتأمل ويسأل ذاته: ما الهدف من هذا الوجود العرضي الفاني وسط هذا العالم الصلب الأبدي؟ وبالولوج إلى حقيقة الحياة الإنسانية، لا يعود بمقدور الإنسان أن يبتعد عن هذا السؤال.

يجد كل إنسان نفْسه دائمًا أمام هذا السؤال، وآجلًا أو عاجلًا يجيب عنه. تُشكِّل الإجابة عن هذا السؤال جوهر كل ديانة، فالأديان تتأسس فقط على الإجابة عن هذا السؤال: لماذا أعيش، وما العلاقة التي تربطني بالعالم الأبدي من حولي؟

كل ميتافيزيقا الدِّين -وكل تعاليمه وعباداته وتعاليمه عن نشوء العالم، والكتب المقدسة التي تعتبر في أغلب الوقت أنها الدِّين-

لها جوهر واحد، تختلف فقط من النواحي الجغرافية والإثنولوجية والتاريخية التي تلحق بكل ديانة. ما من ديانة واحدة من أسماها إلى أدناها ليس لديها في أساسها تصور عن علاقة الإنسان بالعالم المحيط به ومصدره. وما من طقس ديني واحد في أية طائفة دينية سامية أو متدنية، ليس قائمًا على نفْس الأمر. كل تعليم ديني يُشكِّل الديانة ما هو إلا تعبير عن هذه العلاقة التي يتعرف فيها الإنسان على نفْسه كإنسان، وبالتالي يتعرف على بقية البشر، والعالم، ومصدره.

تتعدَّد هذه التعبيرات المختلفة عن هذه العلاقات بحسب الظروف التاريخية والإثنولوجية المختلفة التي يتعرَّض لها مؤسِّس الدِّين والشعب المحيط به، بالإضافة إلى ذلك دائمًا ما يُساء تفسيرها وتُشوَّه من أتباع المعلِّم الأول، الذين يشكلون فهم الجماهير لمئات، بل وأحيانًا لآلاف الأعوام، ومع أن علاقات الإنسان بالعالم والدِّين تبدو كثيرة، إلا أنها في جوهرها ثلاثة: شخصية فطرية، وثنية اجتماعية، أو أُسرية قومية- مسيحية أو إلهية.

كي نتكلم بصورة أدق، فإن جوهر علاقات الإنسان بالعالم نوعان فقط لا ثلاثة: شخصية، والتي ترى معنى الحياة في الخير الشخصي الذي من الممكن اكتسابه بمعزل عن الآخرين أو بالاتحاد معهم. والنوع الثاني هو المسيحية والتي ترى معنى الحياة في خدمة ذاك مَن أرسل الإنسان إلى العالم. النوع الثاني من الأنواع الثلاثة -الاجتماعي- ما هو في حقيقة الأمر إلا امتداد للنوع الأول بنظرة موسعة قليلًا.

أولى هذه العلاقات الثلاثة هي الأقدم، ويمكن أن نجدها الآن بين

الشعوب التي تحتل أدنى درجة من درجات التطوُّر، والإنسان فيها يرى نفْسه على أنه كائن مكتف بذاته، يعيش في العالم كي يحصل على أكبر منفعة شخصية، بغض النظر عن حجم الصراع الذي سيخوضه ضد الآخرين كي يُحقِّق هذا الهدف.

نشأت كل الأديان القديمة من قلب هذه العلاقة الأولى بالعالم التي يعيش فيها كل طفل عندما يأتي إلى الحياة، وعاشت فيها الإنسانية في الدرجة الأولى الوثنية، ويعيش فيها الآن كثيرون بشكل منفصل بين أكثر الأقوام والشعوب لا أخلاقية وبربرية، بالإضافة إلى الصيغ المتدنية من الأديان اللاحقة التي تم تحريفها وتشويهها، مثل: البوذية[١٥] - الطاوية- الإسلام، وأديان أخرى. ظهرت من قلب هذه النظرة أيضًا روحانية جديدة تحمل في جذورها الرغبة في حماية خير ومنفعة الفرد. كل العبادات الوثنية بكِهانتها وآلهتها الذين يُبهجون أنفسهم على طريقة البشر، والقديسين الذين يتوسطون من أجل البشر، والصلوات والأضحيات من أجل منح الأرض الخير والتخلُّص من الشرور تنبع من قلب هذه العلاقة الأولى بالعالم.

أما النوع الثاني من علاقات الإنسان بالعالم، وهي العلاقة الاجتماعية، والتي تعد في المرحلة الثانية من تطور البشرية، والسائدة

(١٥) على الرغم من أن البوذية تطلب من أتباعها التخلي عن خيرات العالم، إلا أنها تتأسس على العلاقة نفْسها التي تعود بالخير على الفرد، مع فارق واحد، وهو أن الأديان الوثنية تسعى لمنح الإنسان المتعة على الأرض، في حين تسعى البوذية لغياب البؤس. ترى الوثنية أن العالم عليه أن يخدم منفعة الفرد، بينما ترى البوذية أن العالم عليه أن يتلاشى؛ لأنه تأسس على بؤس الفرد. البوذية مجرد انعكاس سلبي للوثنية. (تولستوي).

عند البالغين، ترى أن معنى الحياة لا يكمن في خير الفرد، بل في خير مجموعة معينة من الأفراد: أُسرة، جنس، شعب، دولة، أو حتى الإنسانية كلها كما في محاولة الدِّين الإيجابية.

في هذه العلاقة لا يكون معنى الحياة في نفع الفرد الشخصي، بل ينتقل إلى الأُسرة، الجنس، الشعب، الدولة أو مجموعة من الأشخاص، ويصبح ذلك هدف الوجود. نبعت من هذه العلاقة كافة الأديان البطريركية والاجتماعية مثل الديانات الصينية واليابانية، ديانة الشعب المختار: اليهودية، والديانة القومية الرومانية، وديانتنا الكنسية القومية التي كانت تُدعى في الأصل المسيحية، لكنها تدنت إلى هذا المستوى على يد أوغسطين[١٦]، والديانة الإنسانية الوضعية. كل ديانات عبادة الأسلاف بالصين واليابان، وعبادة الإمبراطور بروما، وكل الشعائر والطقوس اليهودية المختلفة التي لديها هدف واحد وهو الحفاظ على عهد الشعب المختار مع الله، وكافة الصلوات الاجتماعية الكنسية المسيحية التي تُرفع من أجل خير الدولة وانتصاراتها العسكرية تنبع جميعًا من وحي هذه العلاقة.

أما عن العلاقة الثالثة التي تربط الإنسان بالعالم، وهي المسيحية والتي يشعر بها كل إنسان بالغ تلقائيًّا، والتي وصلت إليها الإنسانية الآن من وجهة نظري، فهي ترى معنى الحياة لا في تلبية هدف الفرد أو تلبية هدف مجموعة من الأفراد، بل في تنفيذ مشيئة الذي أرسل الإنسان إلى هذا العالم.

---

(١٦) ربما يقصد قسطنطين، لا أغسطينوس.

من وحي هذه العلاقة نبعت التعاليم الدينية الرفيعة الشهيرة التي كانت بدايتها موجودة لدى الفيثاغوريين والباطنيين والأثينيين والمصريين والفرس والبراهمة، والبوذيين والطاويين في صورتها الحقيقية السامية، لكنها وجدت التعبير الكامل عنها فقط في المسيحية، لكنني أقصد المسيحية الحقيقية لا تلك التي شُوِّهَت.

إن كافة شعائر الديانات القديمة النابعة من هذا الفهم للحياة، وكافة الجماعات الحديثة للموحدين[(١٧)]، والأُمميين[(١٨)] الخلاصيين، والكويكرز[(١٩)]، والناصريين الصرب[(٢٠)]، والدوخوبور[(٢١)] الروس، وكافة الطوائف التي يطلق عليها طوائف عقلانية، وكافة المواعظ والترانيم والأحاديث والكتب، جوهرها جميعًا عبارة عن تجليات دينية لهذه العلاقة التي تربط الإنسان بالعالم.

إن كافة الأديان الممكنة -أيًّا كان نوعها- لا يمكنها أن تخرج عن إطار هذه العلاقات التي تربط بين الناس والعالم.

---

(١٧) حركة دينية مسيحية، عارضت التثليث، وأقرت بالوحدانية فقط.

(١٨) Universalism : وهي حركة دينية لاهوتية فلسفية، ترى أن الدِّين قيمة إنسانية مشتركة بين كافة البشر.

(١٩) مجموعة من المسيحيين البروتستانت، نشأت في القرن السابع عشر في إنجلترا على يد جورج فوكس. تتركز على تأكيد تعاليم يسوع، يتلقى فيها المؤمنون العون من الداخل، دون مساعدة خارجية وسطاء أو الشعائر.

(٢٠) طائفة مسيحية.

(٢١) تعني حرفيًّا المجاهدين بالروح من أجل المسيح، وهي طائفة دينية مسيحية من أصل روسي، نشأت بدعم من الحكومة الكندية، وفي عام ١٩٠٠ نزح ما يقرب من ٧٥٠٠ عضو منها إلى كندا. كانوا يعيشون في مجتمعات خاصة بهم، ورفضوا الاتجاهات المادية، وقليل منهم كان يذهب إلى المدارس.

كل إنسان يحيا على هذا الكوكب لا بد أن يندرج تحت إطار واحدة من هذه العلاقات الثلاثة، وفي هذه القناة تتشكل حقيقة دِين كل إنسان، بغض النظر عن المعتقد الذي ينتمي إليه ظاهريًا.

يحتاج كل إنسان قطعًا إلى أن يحدد علاقته بالعالم؛ لأن الكائن العقلي لا يمكنه أن يعيش في العالم الذي يحيط به دون أن تربطه به علاقة ما. وهذه هي أنواع العلاقات التي صنعتها الإنسانية مع العالم من حولها حتى الآن، ونحن نعرف منها ثلاثًا فقط، لا بد لكل إنسان أن يندرج تحت واحدة منهم، وسواء أراد أو لم يرد لا بد أن ينتمي إلى أحد هذه الأديان الثلاث التي تتوزع عليهم الإنسانية بأكملها.

لذا؛ فإن التأكيد الشائع بين مثقفي العالم المسيحي الذين يرون أنهم وصلوا إلى مرحلة من التطور لم يعودوا فيها بحاجة إلى الدِّين، ولم يعودوا من تابعيه، في واقع الأمر لا يعني سوى أن هؤلاء الناس في عدم اعترافهم بالمسيحية، وهي الدِّين الوحيد الذي يناسب زماننا، فهم قد هبطوا إلى درجة أدنى، وهي درجة الديانة الاجتماعية القومية الأُسرية، أو درجة الديانات الوثنية البدائية دون أن يكونوا على وعي بذلك. القول بأن ثمة إنسان بلا دِين بلا علاقة تربطه بالعالم أمر مستحيل، تمامًا كالقول بإنسانٍ بلا قلبٍ. يمكن أن يكون غير واعٍ بديانته، تمامًا كما يمكن أن يكون الإنسان غير واعٍ بوجود القلب بداخله. ولكن بلا دِين، بلا قلب، لا يمكن لإنسان أن يوجد.

يكمن الدِّين في فهم العلاقة التي تربط الإنسان بالعالم غير المحدود من حوله، أو بأصله ومصدره، ولا يمكن لأي إنسان عاقل ألا تربطه

علاقة بالعالم.

ولكنكم قد تقولون إن علاقة الإنسان بالعالم ليست من شأن الدِّين، لكنها تخص الفلسفة أو العِلم بشكل عام إن اعتبرنا الفلسفة جزءًا من العِلم. أما أنا، فعلى النقيض من ذلك، فإن افترضنا أن العِلم بشكل عام -متضمنًا الفلسفة- من الممكن أن يحدد علاقة الإنسان بالعالم، فإن ذلك خاطئ تمامًا، وهو الذي يتسبب في الارتباك الذي لحق بمعنى الدِّين والأخلاق والعِلم الموجود بالشرائح المثقفة من مجتمعنا اليوم.

لا يمكن للعِلم -متضمنًا الفلسفة- أن يُحدِّد العلاقة التي تربط الإنسان بالعالم غير المحدود من حوله أو بخالقه، والسبب في ذلك أن قبل ظهور أي نوع من أنواع العلم والفلسفة لا بد وأنه كانت هناك مثل هذه العلاقة، التي من دونها يستحيل وجود أي نشاط فكري أو أي نوع من أنواع الروابط بين الإنسان والعالم من حوله وخالقه.

وكما أن الإنسان لا يمكنه بأية وسيلة أن يكتشف الاتجاه الذي لا بد أن يتحرك صوبه -كل حركة لا بد أن تتم في اتجاه ما-، فبنفْس المنطق لا يمكن لأي نشاط عقلي فلسفي أو علمي أن يكتشف الاتجاه الذي لا بد أن يتوجه صوبه الإنسان، ولكن كل نشاط فكري للإنسان ينطلق من قناعاته وأهدافه، ويتوقف هذا النشاط على الهدف المقصود. والدِّين دومًا هو ما يشير صوب هذا الاتجاه اللازم لكل نشاط عقلي. كل الفلاسفة المعروفين بدءًا من أفلاطون وحتى شوبنهاور تتبعوا دومًا الاتجاه الدِّيني الخاص بهم. كانت فلسفة أفلاطون وأتباعه وثنية، وكانت تبحث عن الخير الأعظم للفرد أو لمجموعة من الأفراد مُمثَّلين

في الدولة. أما فلسفة العصور الوسطى المسيحية الكنسية فقد نشأت عن هذا الفهم الوثني للعالم، باحثةً عن الخلاص الفردي، ساعيةً لأكبر قدر من المنفعة في الحياة الأخرى، وعبر نظامها الثيوقراطي وحده سعت نحو خير المجتمع.

تستند الفلسفة الحديثة متمثلة في هيجل[٢٢] وكونت على أساس فهم دِيني اجتماعي قومي للحياة. أما فلسفات شوبنهاور[٢٣] وهارتمان[٢٤] التشاؤمية التي أرادت التحرر من الفكر الدِّيني اليهودي، فقدت تبنت الأساس الدِّيني للبوذية. لقد ظلت الفلسفة دومًا -وستظل- بحثًا مستقصيًا لمحاولات التفكير في علاقة الإنسان بالعالم، ودون أن يتوصل الإنسان إلى معرفة كُنْه هذه العلاقة، فما من مجال لعمل الفلسفة.

الأمر ذاته مع العِلم، بالمعنى الإيجابي للكلمة الخاص بموضوعنا، فسيظل العِلم دومًا دراسة لكل هذه الظواهر الخاضعة للبحث، والتي حدد كل دِين علاقاتها المختلفة مع الإنسان.

لمْ ولن يكون العِلم أبدًا دراسة للكليات، كما يعتقد الآن رجال

(٢٢) فيلسوف ألماني، ولد في شتوتغارت، فورتيمبيرغ، في المنطقة الجنوبية الغربية من ألمانيا. يعتبر هيجل أحد أهم الفلاسفة الألمان حيث يعتبر أهم مؤسسي المثالية الألمانية في الفلسفة، في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي.

(٢٣) أرتور شوبنهاور ١٧٨٨ - ١٨٦٠ م فيلسوف ألماني، معروف بفلسفته التشاؤمية، فما يراه بالحياة ما هو إلا شر مطلق، فقد بجَّل العدم، وقد عرف بكتاب العالم إرادة وفكرة، أو العالم إرادة وتمثلًا في بعض الترجمات الأخرى؛ والذي سطر فيه فلسفته المثالية التي يربط فيها العلاقة بين الإرادة والعقل، فيرى أن العقل أداة بيد الإرادة وتابع لها.

(٢٤) فيلسوف ألماني،١٨٤٢ - ١٩٠٦، ألَّف كتاب «فلسفة الوعي»، وهو متشائم يرى الصراع قائمًا بين الحوافز العمياء والعقل، وأن لا سبيل إلى السعادة إلا بالتحرر من حياة تسودها الإرادة.

العِلم؛ فذلك مستحيل نظرًا لعدد الظواهر والمخلوقات غير المحدود، ولكنه سيدرس ما يدفعه الدِّين لدراسته من قلب هذا العدد غير المحدود من الظواهر، وحسب ترتيبه لها من حيث أهميتها. ولأن العِلم ليس واحدًا، بل ثمة علوم كثيرة، فبالتالي ثمة أديان كثيرة. كل ديانة تنتقي مجموعة معينة من الظواهر للدراسة، لذا فالعِلم الخاص بكل زمان ومكان يحمل سمات الدِّين الذي يرى من وجهة نظرة وجوب دراسة هذه الظواهر.

هكذا الأمر مع العِلم الوثني، الذي ظهر مرة ثانية إبان عصر النهضة، والذي يزدهر الآن في مجتمعنا تحت عنوان: المسيحية، فقد كان –وسيظل– باحثًا عن الظروف التي تتوفر فيها منفعة الفرد القصوى، دارسًا كافة الظواهر الطبيعية التي من الممكن أن تصل به إلى هذا الهدف. كان عِلم الفلسفة البرهمية والبوذية دومًا مجرد بحث عن هذه الظروف التي يحاول الإنسان أن يتخلص من ربقة الألم والمعاناة في ظلها. أما العِلم اليهودي (التلمود) فقد كان دومًا مجالًا لدراسة وتفسير هذه الظروف المختلفة التي يجب أن يفحصها الإنسان؛ كي يتمم عهده مع الله، وكي تحفظ الشعب المختار في إرساليته السامية في الحياة. أما العِلم المسيحي الكنسي فقد كان دومًا تقصيًا لهذه الظروف التي في ظلها يمكن أن يخلص الإنسان. أما عِلم المسيحية الحقيقية فهو الذي يتقصى هذه الظروف التي يستطيع فيها الإنسان أن يحقق إرادة مَن أرسله إلى العالم ويطبع بها العالم من حوله.

لا يمكن للفلسفة أو العِلم أن يحدد علاقة الإنسان بالعالم، والسبب

في ذلك هو أن هذه العلاقة لا بد وأن تكون قد تحددتْ مسبقًا قبل أن يبدأ أي عِلم أو فلسفة في بحث الأمر. لا يمكنهما ذلك أيضًا بسبب أن العِلم -متضمنًا الفلسفة- يفحص الظواهر بشكل عقلي بمعزل عمَّن يقوم بالبحث، وعن مشاعره وخبراته. لا تستند علاقة الإنسان بالعالم على العقل وحده، بل على المشاعر أيضًا، وكافة قوى الإنسان الروحية. إن شرحت لإنسان أن جوهر الوجود كله في الفكر، أو أن كل شيء يتكون من ذرات، أو أن المادة أو الإرادة هي جوهر الحياة، أو أن الحرارة والضوء والحركة والكهرباء تجليات مختلفة لطاقة واحدة، فكل هذا ليس بإمكانه أن يوضح للإنسان الذي يشعر ويفكر ويعاني ويشعر بالسرور والآمال، ماهية علاقته بالعالم. الدِّين وحده هو مَن يوضح له موضعه وعلاقته بالعالم، فهو يقول له مثلًا: خُلِق العالم من أجلك، لذلك يمكنك أن تستولي على كل ما يمكنك الاستيلاء عليه من هذا العالم. يمكن أيضًا أن يقول: أنت عضو من شعب الله المختار، لذا عليك أن تخدم هذا الشعب وتنفذ كل ما أمرك الله به، وستحصل مع شعبك على أكبر بركة ممكنة. من الممكن أيضًا أن يقول الدِّين: أنت أداة في يد الإرادة العليا، وقد أرسلك الله إلى العالم كي تنفذ الأعمال التي سبق وحددها لك، فتعرف على إرادته وقم بتنفيذها.

كي نفهم هذه الفلسفات والعلوم، لا بد لنا من الدراسة والتمعن، لكن كي نفهم الدِّين فلسنا في حاجة إلى ذلك، فأي إنسان يمكن أن يفهم الدِّين حتى أدنى الناس عقلًا وأكثرهم جهلًا.

كي يفهم الإنسان علاقته بالعالم من حوله، وعلاقته بخالقه، فهو

ليس في حاجة إلى المعارف العلمية والفلسفية، بل قد تعوقه كثرة العلوم عن فهم هذه العلاقة، لكنه في حاجة إلى الوقت؛ كي يتخلَّص من هموم العالم، وكي يعي وجوده المادي في هذا العالم، وكي يصل إلى حالة الصدق التي قال الإنجيل إنها موجودة بين الأطفال والبسطاء والجهلاء. بذلك فإننا نرى أن البسطاء وغير المتعلمين على وعي كامل بالفهم المسيحي للحياة، في الوقت الذي يواصل فيه المثقفون الحياة في نفس العكارة الوثنية. على سبيل المثال نشاهد أكثر الناس تعليمًا وأرفعهم ثقافة يعتنقون فكرة البحث عن المنفعة الفردية أو تخليص النفْس من المعاناة، كما يؤمن أحد كبار المثقفين مثل شوبنهاور، أو يؤمن بتخليص النفْس عن طريق الأسرار المقدسة والنعمة الإلهية كما يؤمن كبار الأساقفة المطلعين، في الوقت الذي يرى فيه الفلَّاح الروسي الجاهل البسيط، ودون بذل أي جهد أن معنى الحياة يكمن في أن يفهم الإنسان أنه أداة لتحقيق إرادة الله، وأنه ابن الله، وهو الرأي الذي رآه أبكتاتوس[٢٥]، وماركوس أوريليوس[٢٦]، وسينيكا[٢٧].

لكنكم ستسألونني: ما جوهر هذه المعرفة غير الفلسفية وغير العلمية؟ إن كانت هذه المعرفة غير عِلمية ولا فلسفية، فما طبيعتها إذنْ؟ على أي أساس بُنيت؟ يمكنني أن أجيب عن هذه الأسئلة بالآتي: بما أنَّ

(٢٥) أبكتاتوس: فيلسوف رواقي روماني، قال إن معين السعادة هو النفْس، لا الأشياء الخارجية. دعا إلى الإخاء، ولم يكتب شيئًا، فروى عنه تلميذه أريان. ينتمي إلى المدرسة الفلسفية التي أسسها زينون الرواقي.

(٢٦) الإمبراطور الروماني السادس عشر، وخامس الأباطرة الأنطونيين الرومان

(٢٧) فيلسوف وخطيب وكاتب مسرحي روماني، كتب أعماله باللغة اللاتينية.

على هذه المعرفة الدينية تتأسس كافة المعارف الأخرى، وهي تسبق كافة المعارف، فنحن لا يمكننا أن نحددها، وليس لدينا الأدوات التي تمكننا من تعريفها. تطلق اللغة اللاهوتية على هذه المعرفة: وحي أو كشف، وهو لفظ صحيح تمامًا إن لم نُحمِّله أي معنى صوفي أو باطني؛ لأن هذه المعرفة لا تُكتسب بالدراسة ولا بجهود فردية أو جماعية، لكن فقط بقبول الفرد أو المجموعة للحكمة اللانهائية التي تعلن عن نفْسها تدريجيًّا للبشر.

لكن لماذا لم يفهم الناس منذ عشرة آلاف عام مضت أن معنى الحياة لا ينحصر في المنفعة الفردية، ثم ارتفع مستوى فهمهم قليلًا إلى المستوى الأسرى الاجتماعي القومي في فهم الحياة؟ ولماذا تَكشَّف الفهم المسيحي للحياة أمام البشر عبر التاريخ؟ ولماذا تكشف لهذا الإنسان بالذات أو هؤلاء الناس تحديدًا في هذا الوقت والمكان والشكل دون غيرهم؟ كي نجيب عن هذه الأسئلة بتقصي الظروف التاريخية المختلفة وحياة وشخصية هؤلاء الناس الذين كانوا أول مَن اعتنقوا هذا الفهم للحياة وعبروا عنه، فالأمر يماثل أن نحاول الإجابة عن سؤال يقول: لماذا تضيء الشمس بعض الأجرام قبل غيرها؟ إن شمس الحقيقة بينما ترتفع أعلى فوق العالم تشرق أكثر فأكثر على كافة الموجودات، وينعكس ضوؤها أولًا على الأجسام التي تسقط أشعتها عليها في البداية، والأكثر قابلية لانعكاس الضوء. أما السمات التي تجعل بعضهم أكثر قابلية لاستيعاب هذه الحقيقة الساطعة عن غيرهم فلا علاقة لها بأي سمات عقلية خاصة رفيعة، بل على النقيض من ذلك؛

سمات شخصية سلبية، لكنه الانسحاب من هموم العالم، وإدراك تفاهة المادة، والإخلاص، كما نرى في مؤسسي الديانات الذين لم يكونوا متميزين في الدراسات الفلسفية أو العلمية، هو ما يؤهل أكثر لاستيعاب تلك الحقيقة.

المغالطة الأساسية -في رأيي- التي تعوق أكثر من غيرها تقدم عالمنا المسيحي، تكمن في أن رجال العِلم في عالمنا اليوم -الذين يشغلون اليوم مقعد موسى، والذين يتبعون الفكرة الوثنية للحياة التي أعادت تأسيسها في عصر النهضة، ويفهمون المسيحية بفكر مناقض لها تمامًا- قد قرَّروا أن المسيحية قد عفا عليها الزمن، وأن فهم الوثنية القديمة الاجتماعية القومية للحياة -والتي قد عفا عليها الزمن فعلا- هي أسمى وجهة نظر لتَفَهُّم الحياة، وعلى الإنسانية أن تتبعها. التمسك بهذا الرأي لا يعني أنهم لم يفهموا المسيحية على أنها تحمل أسمى تفهم للحياة الإنسانية، بل يعني أنهم لا يحاولون حتى الفهم. السبب الرئيس لسوء الفهم هذا يكمن في أن رجال العِلم -الذين تخلوا عن المسيحية، ورأوا أنها لا تتفق مع العِلم- يرون أن الخطأ في المسيحية لا في العِلم. هذا يعني أنهم لا يؤمنون بالحقيقة، وهي أن العِلم يتأخر عن المسيحية التي ألهمت غالبية المجتمع المعاصر بـ١٨٠٠ عام، بل يرون أن المسيحية تتأخر عن العِلم بـ١٨٠٠ عام.

وقد أدى قلب الأدوار إلى ظاهرة مدهشة، وهي أن أكثر الناس خَطأً في فهم جوهر حقيقة الدِّين والأخلاق والحياة هم رجال العِلم، وقد أدَّى إلى ظاهرة أخرى مدهشة، وهي أن العِلم في زماننا هذا، والذي

حقَّق بالفعل نجاحًا كبيرًا في مجال فحص وتقصِّي الظواهر المادية، يبدو أنه غير مفيد على الإطلاق في حياة الناس، بل وفي بعض الأحيان قد يكون ضارًّا. لذا فإني أعتقد أن العِلم والفلسفة غير قادرين على تحديد علاقة الإنسان بالعالم، بل الدِّين وحده.

لذا، فالإجابة عن سؤالكم الأول: ما الذي أفهمه من كلمة دِين؟ يمكنني أن أجيب أن الدِّين هو الذي يؤسس العلاقة بين الإنسان والعالم الأبدي غير المحدود من جهة، وبين الإنسان وخالق هذا العالم ومصدره من جهة أخرى.

هذه الإجابة تقودنا إلى إجابة السؤال الثاني:

إن كان الدِّين هو الذي يؤسس لعلاقة الإنسان بالعالم، ويمنح الإنسان معنى الحياة، فالأخلاق تفسير للنشاط الإنساني، تنشأ بدورها كنتيجة لهذه العلاقة بين الإنسان والعالم. بما أن العلاقات الرئيسة التي تربط الإنسان بالعالم وخالقه هما اثنتان -إن اعتبرنا أن النظرة الوثنية الاجتماعية امتدادًا للنظرة الشخصية، أو ثلاث علاقات إن اعتبرنا النظرة الوثنية الاجتماعية منفصلة عن الشخصية-، فإن الاتجاهات الأخلاقية يمكن اعتبارها ثلاثة؛ تعليم أخلاقي فطري همجي شخصي، وتعليم أخلاقي وثني أُسري قومي أو اجتماعي، وتعليم أخلاقي مسيحي.

من تحت عباءة النوع الأول من العلاقات التي تربط الإنسان بالعالم خرجت كافة تعاليم الديانات الوثنية الأخلاقية، والتي تستند في الأساس على السعي صوب الخير الشخصي، لذا فإنها تُحدِّد كافة الظروف التي تمنح أكبر منفعة ممكنة للفرد، وتُحدِّد الوسائل التي تُمكِّن الفرد من

الحصول على هذه المنفعة. تتجلى هذه المفاهيم في التعليم الأخلاقي للأبيقورية[٢٨] في صورتها المتدنية، والتعليم الأخلاقي للإسلام الذي يعد بالخير الشخصي في هذا العالم والعالم الآخر، والتعليم الأخلاقي للمسيحية الكنسية الذي يهدف إلى الخلاص، أي المنفعة الشخصية خاصة في العالم الآخر، والتعليم الأخلاقي العلماني لمذهب النفعية الذي يهدف إلى المنفعة الشخصية في هذا العالم فقط.

من وحي هذه العلاقة التي تضع نصب عينيها منفعة الفرد الشخصية، فتدعو إذنْ للتحرر من المعاناة الشخصية، يظهر التعليم الأخلاقي للبوذية في صورتها البدائية، والتعاليم العلمانية للمذهب التشاؤمي.

أما العلاقة الوثنية التي تربط الإنسان بالعالم، والتي تضع نصب أعينها منفعة مجموعة معينة من الأفراد، فقد أنتجت تعاليم أخلاقية تطالب الإنسان بخدمة مجموعة معينة من الأفراد، وترى في منفعتهم هدف الحياة الأسمى. من تحت عباءة هذه العلاقة خرجت التعاليم الأخلاقية الرومانية واليونانية القديمة الشهيرة، حيث يُضحِّي الإنسان دومًا بنفْسه من أجل المجتمع، وكذلك التعاليم الأخلاقية الصينية، وأيضًا التعاليم الأخلاقية العبرية التي تسعى لخير الشعب المختار،

(٢٨) يُنسب إلى الفيلسوف اليوناني أبيقور، الذي أنشأه وقد ساد لستة قرون، وهو مذهب فلسفي مؤداه أن اللذة هي وحدها الخير الأسمى، والألم هو وحده الشر الأقصى. والمراد باللذة في هذا المذهب -بخلاف ما هو شائع- هو التحرز من الألم والاهتياج العاطفي. وقد أكد أبيقور أن هذه المتعة لا تتمّ للمرء من طريق الانغماس في الملذات الحسيّة، بل بممارسة الفضيلة. ويقر اللذة الحسية لأن الإنسان كالحيوان يسعى إلى لذائذه بفطرته، ولكنه حوّل اللذة الحسية إلى مذهب في الزهد، فاللذة عنده تجمع بين الزهد والمنفعة، وقد دعا إلى الحياة السعيدة دون أن تستعبد الإنسان شهوته، وهو بذلك يؤثر اللذات العقلية والروحية في اللذات الجسمية والحسية.

والتعاليم الأخلاقية للمسيحية الكنسية في زماننا التي تطالب الفرد بأن يضحي بنفْسه من أجل الدولة، وتُفسِّر هذه العلاقة التي تربط الإنسان بالعالم أخلاقيات معظم النساء اللائي يضحين بأنفسهن من أجل الأُسرة، والأطفال بشكل خاص.

يعج كافة التاريخ -القديم والوسيط والحديث إلى حد ما- بوصف المآثر الأخلاقية للمذهب الأخلاقي الاجتماعي الأُسري أو القومي. واليوم؛ فإن معظم الناس الذين يدَّعون أنهم يتمسكون بالتعليم الأخلاقي للمسيحية، يتبعون في واقع الأمر النموذج الأخلاقي الاجتماعي الأُسرى أو القومي، وهو نموذج وثني، وعلى هذه المبادئ نُنشئ أجيالنا الصاعدة.

أما العلاقة المسيحية الثالثة التي تربط الإنسان بالعالم، والتي ترى الإنسان كأداة في يد الإرادة العليا من أجل تحقيق أهدافها، فهي تتفق مع الفهم الأخلاقي للحياة الذي يسعى من أجل اعتماد الإنسان على الإرادة العليا وتحقيق مطالبها. من تحت عباءة هذه العلاقة خرجت كافة التعاليم الأخلاقية الإنسانية السامية الشهيرة مثل الفيثاغورية والرواقية، والبوذية والبرهمية والطاوية في صورتها السامية، والمسيحية في صياغتها التي تطلب من الفرد هجران منفعته الشخصية، والأُسرية الاجتماعية أيضًا، بل والقومية، من أجل تنفيذ إرادة ذاك الذي أرسلنا إلى هذه الحياة.

من وحي كل علاقة من العلاقات الثلاثة التي تربط الإنسان بالعالم غير المحدود أو بخالقه، ينشأ النموذج الأخلاقي الحقيقي لكل إنسان، بغض النظر عن النموذج الأخلاقي الذي يَدَّعي أنه يتبعه ظاهريًا أو يعظ

به على أنه النموذج الحقيقي.

وهكذا، فإن الإنسان الذي يرى جوهر علاقته بالعالم يتمثل في الحصول على أكبر قدر ممكن من المنفعة الشخصية -بغض النظر عن حديثه وتظاهره بأنه يرى الحياة الأخلاقية الحقة تلك التي يعيشها المرء من أجل الأُسرة أو المجتمع أو الدولة- فهو يتظاهر بذلك أمام الناس ويخدعهم، أما الحافز الحقيقي لكافة أفعاله فسيظل منفعته الشخصية فقط، وهذا يعني أنه عندما يضطر إلى الاختيار، فلن يضحي بمنفعته الخاصة من أجل الأُسرة أو الدولة، ولا حتى من أجل تنفيذ إرادة الله؛ فهم جميعًا سواء أمامه، والسبب في ذلك أنه يرى معنى حياته في منفعته الشخصية فقط، وهو ليس بمقدوره أن يفعل شيئًا غير ذلك طالما مفهوم علاقته بالعالم كما هو.

الأمر ذاته مع الإنسان الذي تتمحور علاقته بالعالم في خدمة أُسرته (الأمر الذي يظهر بوضوح جدًّا في النساء) أو جنس أو شعب معين أو حتى الوطن (كما يظهر عند أُمَّة أو مجموعة سياسية مقموعة إبان الحرب) حتى وإن أعلن نفْسه مسيحيًّا، فستكون أخلاقه دومًا مرتبطة بمصالح الأُسرة أو الشعب أو الدولة، ولن تشبه الأخلاق المسيحية في شيء، وعندما يضطر إلى الاختيار بين المنفعة الاجتماعية للأُسرة أو الدولة، وبين تنفيذ إرادة الله، فسيكون مضطرًّا إلى اختيار منفعة مجموعة من الأشخاص الذين تشكل منفعتهم سبب وجوده. هكذا الأمر مع الإنسان الذي يرى علاقته بالعالم تتأسس على تنفيذ إرادة خالقه، فمهما يحاولون إقناعه بأن يقوم بأفعال تصب في صالح منفعته الشخصية أو

الأُسرة أو الجنس أو الدولة أو البشر أجمعين، تناقض الإرادة العليا المطبوعة بداخله في عقله ومشاعر الحب، فسيضحي دومًا بمصالحه الشخصية ومصالح الأُسرة أو الجنس أو الوطن أو البشر أجمعين حتى لا يتراجع عن تنفيذ إرادة مَن أرسله إلى العالم، فمعنى حياته بأكملها يتمثل في تحقيق هذه الإرادة.

لا يمكن أن تتأسس الأخلاق بمعزل عن الدِّين؛ ليس فقط لأنها تنتج عنه وعن مفهوم العلاقة التي تربط الإنسان بالعالم، بل أيضًا لأنها تتضمن بداخلها روح الدِّين ومقتضياته.

تُشكِّل كل ديانة محاولة للإجابة عن سؤال: ما معنى حياتي؟ وتتضمن الإجابة الدينية في داخلها مطالب أخلاقية معينة قد تسبق أو تلحق بتفسير معنى الحياة. قد تكون الإجابة عن معنى الحياة كالآتي: يتأسس معنى الحياة على المنفعة الشخصية، لذا استغلَّ كل ما يروق لك في الحياة. وقد تكون الإجابة: يتمثل معنى الحياة في منفعة مجموعة من الأشخاص، لذا اخدمْ هذه المجموعة بكل قوتك. وقد تكون الإجابة: معنى الحياة يتمثل في أن تحقق إرادة من أرسلك إلى العالم، لذا اسعَ بكل ما لديك من قوة إلى معرفة إرادته وتحقيقها. من الممكن أن نجيب عن السؤال بالآتي: معنى الحياة في المتعة الخاصة أو في خدمة مجموعة من الأشخاص تعتبر نفسك عضوًا في مجموعتهم، أو معنى الحياة في خدمة الله.

يحوي تفسير الدِّين لمعنى الحياة بداخله النموذج الأخلاقي، لذلك لا يمكن أن تتأسس الأخلاق بمعزل عن الدِّين. هذه الحقيقة جلية في

المحاولات الفلسفية التي قام بها بعض الفلاسفة غير المسيحيين كي يؤسسوا نظامًا أخلاقيًّا ساميًا من فلسفاتهم. يعتقد هؤلاء الفلاسفة أن الأخلاقيات المسيحية ضرورية، وأنه لا يمكن العيش دونها، ويحاولون أن يربطوا بينها وبين فلسفاتهم غير المسيحية، بل ويحاولون تقديم الأمر كما لو أن الأخلاقيات المسيحية تنبع من فلسفاتهم الوثنية أو الاجتماعية. يحاولون القيام بذلك، ولكن هذه المحاولة تبدو -بشكل أوضح للآخرين- غير موفقة، فلا يقتصر الأمر على أن تلك الأخلاقيات لا تبدو نابعة من هذه الفلسفات، بل تبدو أيضًا مناقضة لفلسفات المنفعة الشخصية أو التحرر من المعاناة الشخصية أو حتى الفلسفات الاجتماعية.

إن الأخلاقية المسيحية التي تنبع من وجهة نظر الدِّين المسيحي للحياة كما نعرفها لا تتطلب فقط التضحية بالمصالح الفردية من أجل صالح مجموعة من الأشخاص، بل تتطلب نكران الذات الفردية والجماعية من أجل خدمة الله. أما الفلسفة الوثنية فتسعى من أجل صالح الفرد أو الجماعة، لذا فالتناقض بين الأخلاقية المسيحية والوثنية أمر حتمي. ثمة طريقة واحدة يمكن بها إخفاء هذا التناقض، وهي حشد مفاهيم غامضة مجردة، والغوص في بحار الميتافيزيقا المهلكة. هذا ما فعله معظم فلاسفة ما قبل عصر النهضة، فبسبب استحالة التوفيق بين الأخلاقيات القائمة على أسس المسيحية -التي اعترفوا بصحتها مقدمًا- وتلك التي تتأسس على الفلسفات الوثنية، توجَّب عليهم أن ينسبوا إليها كل هذا التجريد وعدم الوضوح وسوء الفهم والاغتراب

عن الحياة الذي يتمثل في الفلسفة الحديثة. باستثناء سبينوزا[٢٩] الذي ينطلق في فلسفته من أساس ديني مسيحي حقيقي بالرغم من أنه لا يعد نفْسه مسيحيًّا، والنبيل كانط[٣٠] الذي أسس نظامه الأخلاقي بمعزل عن الميتافيزيقا، فكافة الفلاسفة -حتى الفيلسوف اللامع شوبنهاور- ينشئون بوضوح رابطًا وهميًّا بين النظام الأخلاقي والميتافيزيقا.

من الممكن جدًّا أن ندرك أن الأخلاق المسيحية يلزم قبولها سلفًا، بشكل حازم ومستقل عن الفلسفة، وهي ليست في حاجة لأن تتأسس على أسس فلسفية متوهمة، وأن الفلسفة تختلق فقط هذه الأوضاع التي يمكن عن طريقها ألا تتعارض الأخلاقيات المسيحية مع هذه الفلسفات، بل وتبدو وكأنها نابعة منها. ولكن كل هذا -مع أنه يبدو وكأنه يُبرِّر النظام الأخلاقي المسيحي- إلا إنها مجرد روابط افتراضية، وحين يصل الأمر إلى السؤال عن الحياة العملية، فلن يقتصر الأمر على ظهور اختلاف، ولكن سيبدو التناقض جليًّا بين الأسس الفلسفية وبين ما نعتبرها أخلاقًا حقيقية.

وقد كشف حديثًا عن هذا التناقض الفيلسوف البائس الذي يُدعى نيتشه[٣١]، والذي أصبح شهيرًا في الفترة الأخيرة. إنه على صواب

(٢٩) فيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن ١٧. ولد في ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢ في أمستردام، وتوفي في ٢١ فبراير ١٦٧٧ في لاهاي. امتاز سبينوزا باستقامة أخلاقه وخطّ لنفْسه نهجا فلسفيًّا يعتبر أنّ الخير الأسمى يكون في «فرح المعرفة» أي في «اتحاد الروح بالطبيعة الكاملة».

(٣٠) إيمانويل كانط: فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر. عاش كل حياته في مدينة كونيغسبرغ في مملكة بروسيا. أحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكية.

(٣١) فيلسوف ألماني، ناقد ثقافي، شاعر ولغوي وباحث في اللاتينية واليونانية، كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث. كان من أبرز الممهّدين لعلم النفْس وكان عالم لغويات متميزًا.

تمامًا في قوله أن كافة الأسس الأخلاقية -من وجهة نظر الفلسفة غير المسيحية المعاصرة- ما هي إلا كذب ورياء، وأنه من الأفضل والأعقل للإنسان أن يؤسس مجتمعًا ما فوق الإنسان (الإنسان الأعلى)[٣٢] ويصبح فردًا فيه، من أن يصبح واحدًا من هؤلاء الذين يتوجب عليهم أن يخدموا أفراد مجتمع الإنسان الأعلى. ما من نظام أخلاقي ناشئ عن رؤية الأديان الوثنية للحياة يمكنه أن يُبرِّر للإنسان أنه من الأصلح والأفضل له أن يعيش لا من أجل رغباته الواضحة والمفهومة سواء الخاصة بنفْسه أو أُسرته أو مجتمعه، بل يعيش من أجل فائدة أخرى غريبة غير مرغوبة وغير مفهومة وغير متصلة بمصالحه البشرية الآنية التافهة. إن الفلسفة -المؤسسة على فهم للحياة يسعى من أجل مصالح الإنسان- لن يمكنها أبدًا أن تُثبت للإنسان العاقل أنه قد يموت في أي لحظة، وأن من الأفضل له أن يتخلى عن مصالحه التي يريدها ويرغب فيها، من أجل خير الآخرين؛ لأنه لن يعرف أبدًا العواقب التي ستترتب على تضحياته، ولكن فكرة أن الخير والصواب أن يفعل كذا وكذا، فهذا يتفق فقط مع النظام الأخلاقي المطلق غير المشروط.

إثبات ذلك عن طريق وجهة نظر الفلسفة الوثنية أمر مستحيل، فكي نصل إلى قناعة بأن الناس جميعهم سواسية، وأنه من الأفضل للإنسان أن يمنح حياته كلها من أجل خدمة الآخرين بدلًا من أن يجبرهم على خدمته، فهذا يحتاج أولًا من الإنسان أن يحدد علاقته بالعالم، ويحتاج إلى أن يدرك أنه ليس بوسعه فعل شيء بالنسبة لهذا الأمر، فهذا وضعه

(٣٢) Uebermensch.

في العالم؛ لأن هدف حياته ينحصر فقط في تنفيذ مشيئة مَن أرسله، وقد منحه هذه الحياة كي يخدم الآخرين. الدِّين وحده هو الذي يمكنه أن يمنح الإنسان هذا المعنى.

هكذا الأمر مع المحاولات التي تحاول توفيق الأخلاق المسيحية مع أساسات العلم الوثني. لا يمكن لأي سفسطات أو التواءات فكرية أن تُغيِّر من هذه الحقيقة البسيطة والواضحة؛ وهي أن قانون التطور -الذي يقوم عليه علمنا المعاصر- يتأسس على قانون أبدي عام وثابت، وهو الصراع من أجل البقاء، وأن البقاء للأصلح، وأنه يتوجب على كل إنسان يود أن يحقق مصالحه الخاصة أو مصالح مجتمعه أن يكون هذا «الأصلح» ويجعل مجتمعه كذلك أيضًا؛ حتى لا ينمحي من الوجود هو أو مجتمعه، بل أشخاص أو مجتمعات أخرى أقل صلاحًا للوجود. وبالرغم من محاولات بعض من علماء الطبيعة الذين يخشون من عواقب هذا القانون عند تطبيقه على الحياة الإنسانية، من التخفيف من هذه الوقائع عند الحديث عن هذا القانون، إلا أن كافة هذه المحاولات ترينا بوضوح أكبر مناعة هذا القانون وعدم جدوى مقاومته، وهو الذي يقود عالمنا العضوي بأكمله، لذا فالإنسان بهذا المفهوم مثل الحيوان تمامًا.

في الوقت الذي بدأتُ فيه كتابة هذا الخطاب، صدر بالروسية مقال السيد هيكسلي[٣٣] عن التطور والأخلاق، الذي وجَّهَهُ لبعض رجال

(٣٣) عالم أحياء بريطاني. هو ابن لمُعلِّم رياضيات. جَد جوليان هكسلي الإخصائي في علم الحيوان والفيلسوف والمربي والكاتب. ولجوليان دور كبير في تأسيس اليونسكو. وهو أيضًا جد الروائي والشاعر الإنجليزي ألدوس هكسلي.

المجتمع الإنجليزي.

في هذا المقال يحاول البروفيسور المرموق دون أن يصيب أي نجاح -كما فعل من قبل عالمنا الشهير بيكتوف منذ عدة أعوام عندما كتب عن هذا الموضوع- أن يثبت أن الصراع من أجل البقاء لا يتعارض مع النزعة الأخلاقية، وأنه عند الاعتراف به كقانون عام للحياة لا يمكن فقط للأخلاق أن تكون موجودة، بل إنها تكتمل أيضًا. يكتظ مقال السيد هيكسلي بالفكاهة والشِّعر والآراء الشاملة عن الدِّين والفلسفة القديمين، لذا فالمقال بضرورة الحال شديد الصعوبة والتعقيد، حتى أنه ببذل الجهد يمكن فهم الفكرة الأساسية به، والتي تتلخص في الآتي: معارضة قانون التطور للقانون الأخلاقي أمر قد أقرَّ به المجتمع القديم مثل المجتمع اليوناني والهندي، وكل من فلسفة وديانة الشعبين قادتهما إلى نكران الذات. هذا التعليم -من وجهة نظر هيكسلي- غير صحيح، فالحقيقة أن ثمة قانونًا كونيًّا تتقاتل بموجبه كافة المخلوقات، ليحيا فقط القادر من بينهم «الأصلح». يخضع الإنسان لهذا القانون، وبفضل هذا القانون وحده وصل الإنسان لما هو عليه الآن. ولكن هذا القانون يعارض الأخلاق، فكيف يمكن أن نُوفِّق بينهما؟ ثمة تقدم اجتماعي يحاول أن يكبح مسار التقدم الكوني ليستبدله بتقدم آخر ذي طبيعة أخلاقية، يهدف إلى أن يكون البقاء لا للأصلح، بل للأفضل من وجهة النظر الأخلاقية. ولكن من أين أتى هذا التقدم الأخلاقي؟ لا يجيبنا السيد هيكسلي عن ذلك، ولكن في الحاشية رقم ١٩ يقول إن أساس هذ التقدم يتأسس على أن الناس -مثل الحيوانات أيضًا- يحبون العيش

داخل جماعات ويقمعون بداخلهم السمات الضارة بالمجتمع، ومن ناحية أخرى يقوم الأقوياء داخل المجتمع بالتصدي للأفعال التي تضر بالمجتمع. يبدو للسيد هيكسلي أن هذا التقدم يُجبِر البشر على كبح أهوائهم من أجل حماية مجموع الأفراد الذين يتشكل منهم المجتمع، لذا يُعاقَب كل مَن يخرق نظام المجتمع، وهذا جوهر القانون الأخلاقي الذي يحاول إثباته.

يبدو للسيد هيكسلي بكل براءة -في مجتمعه الإنجليزي الحالي مع مشكلة شعبه الأيرلندي البائس، والغنى الفاحش لأفراده، وتجارته في الأفيون والفودكا، وأحكام الإعدام التي يقوم بها، ومعاركه العظيمة، وإباداته لشعوب كاملة من أجل أهداف تجارية وسياسية، ونفاقه وفسقه- أنه عندما لا يخرق الرجل الإنجليزي قوانين الشرطة، فهو إذنْ رجل أخلاقي لا غبار عليه، متناسيًا أن الصفات التي من الممكن أن تكون ضرورية كي لا يخرق أحد قوانين مجتمع ما من الممكن أن تكون نافعة لهذا المجتمع، تمامًا كالصفات النافعة لتلك العصابة، وحتى كالمنفعة التي يحصل عليها مجتمعنا من القائم بأحكام الإعدام والسجَّان والقاضي والجندي، والكهنة المنافقين.. إلخ، لكنها جميعًا سمات غير أخلاقية البتة.

تتطور الأخلاق باستمرار، لذا فإن خرق قواعد أحد المجتمعات، والحفاظ على هذه القواعد بقوة المشانق والسلاح، التي يتحدث عنها السيد هيكسلي كأدوات نحفظ بها النظام الأخلاقي، لن تفشل فقط في حفظ الأخلاق، بل هي في حد ذاتها خرقٌ للأخلاق.

يحيا، وذلك لا يحدث بسبب اجتماع الأفراد داخل أُسر، بل لأنَّ الأُم يمكنها أن تحب وتضحي بذاتها. لا يمكن أن ينبع الحب والتضحية بالذات من التقدم الاجتماعي.

التأكيد على أن التقدم الاجتماعي يُنتج الأخلاق، يشبه تمامًا التأكيد على أن بناء موقد يُنتج الحرارة.

يأتينا الدفء من الشمس، أما الأفران فتأتينا بالدفء عندما نملؤها فقط بالخشب، الذي هو صنيع الشمس بشكل أو بآخر. الأمر ذاته مع الأخلاق، فالدِّين هو مَن ينتجها. هذا يعني أن هذه الأشكال الاجتماعية من الحياة تنتج الأخلاقيات فقط عندما تحمل نفوذًا واضحًا للأفكار الدينية بداخلها على الناس، وهذا النفوذ يتمثل في الأخلاق.

من الممكن أن تمنحنا المواقد الدفء، ومن الممكن أن تظل باردة ولا تمنحنا أي دفء، والأمر ذاته مع الأشكال الاجتماعية من الحياة، فمن الممكن أن تحمل بداخلها نموذجًا أخلاقيًّا، ووقتها سيكون للأخلاق تأثيرها على المجتمع، ومن الممكن ألا تحمل بداخلها أي نموذج أخلاقي، ووقتها ستظل هذه الأشكال الاجتماعية غير مؤثرة بالمرة على المجتمع.

لا يمكن أن تتأسس الأخلاق المسيحية على الفهم الوثني للحياة، ولا يمكن أن تنبع من الفلسفة أو من أي عِلم غير مسيحي، ولا يمكن حتى أن تتوافق معه.

هكذا فهمت الأمر كافة الفلسفات والعلوم الجادة والمتماسكة

والقوية. لقد قالوا، والحق كان في جانبهم تمامًا: «إن لم تتوافق أفكارنا مع الأخلاق، فهذا يعني أن أفكارنا سيئة»، وواصلوا بحوثهم.

لا تتأسس الدراسات الأخلاقية فقط على الدِّين، بل وحتى التعاليم الشفهية العلمانية، سواء كُتبت أو لُقنت، ويظن الناس أنها ترشدهم، ولكن هذا يبدو ظاهريًا فقط، فالبشر في الحقيقة لا ترشدهم هذه الدراسات والتعاليم الشفهية، ولكنه الدِّين الذي كان موجودًا لديهم طوال الوقت حتى الآن، أما هذه الدرسات والتعاليم فتحاكي فقط ما ينبع حقيقة من الدِّين.

التعاليم الأخلاقية العلمانية التي لا تتأسس على الدِّين تشبه تمامًا إنسانًا لا يعرف شيئًا عن الموسيقى، ثم أصبح قائدًا لأوركسترا، وأخذ يُلوِّح بيديه أمام العازفين بشكل منتظم. قد تستمر الموسيقى لبعض الوقت بقوة الزخم، وبفضل ما تعلَّمه العازفون من قائد الأوركسترا فيما قبل، وقد تستمر بعض الوقت، ولكن من الواضح جدًّا أن حركات العصا التي يُلوِّح بها جاهلٌ بالموسيقى ليست مجرد بلا فائدة، ولكنها مع الوقت ستُربك الأوركسترا وتثير غضبهم. هذه الفوضى وهذا الاضطراب يعتملان في عقول الناس كنتيجة لمحاولات المفكرين في العالم المسيحي منح الناس أخلاقًا لا تتأسس على الأفكار الدِّينية السامية، بل تشبهها وتتبناها.

من الجيد فعلًا أن يكون لدينا نظام أخلاقي غير ممتزج بالخرافة، ولكن الحقيقة أن التعليم الأخلاقي نتاج لتصور علاقة الإنسان بالعالم وربه، أما إن تم التعبير عن هذه العلاقة في صور خرافية واضحة، فعلينا

كي نُصحِّح الأمر أن نُعبِّر عن هذه العلاقة في صورة أكثر عقلانية ومنطقية ووضوح، أو حتى بتدمير نموذج العلاقة القديمة، واستبدالها بعلاقة أخرى أسمى وأكثر وضوحًا وعقلانية، ولكن علينا ألا نؤسسها بأي شكل على أي نوع من أنواع السفسطات، أو على أي أساس أخلاقي «علماني».

إن محاولات تأسيس الأخلاق بمعزل عن الدِّين تشبه ما يفعله الأطفال حينما يودون نقل نبتة يحبونها من مكانها فيقتلعونها من جذورها التي تبدو لهم أنها غير ضرورية، ويزرعونها دون جذور في الأرض. دون أساس دِيني لا يمكن أبدًا أن تتأسس أخلاق حقيقية غير مُلفَّقة، كما أنه دون جذر لا يمكن أن ينمو نبات فعلًا.

وهكذا، فإن إجابتي عن السؤالين المطروحين في البداية هي أن الدِّين يؤسس علاقة الإنسان بالعالم غير المحدود من حوله أو بخالقه، والأخلاق التي ترشد سلوكياتنا في الحياة تنبع من هذه العلاقة.

ليف تولستوي

٢٨ أكتوبر ١٨٩٣

ياسنايا باليانا.

خطابٌ إلى الليبراليين

العزيزة ألسكندرا ميخايلوڤنا[٣٤]،

سعدت جدًّا بلقائك أنتِ ورفيقيكِ ديڤيل وروباكين اللذين أسمع عن نشاطهما -وأقدِّره جدًّا- في الدفاع عن لجنة التعليم، والنضال ضد أعداء تنوير الشعب، لكنني أرى أن العمل في هذا المضمار بهذه الوسائل لن يثمر شيئًا.

أريد أن أُعلمك أني أيضًا غارق في هذا النضال ضد أعداء التنوير، لكن بشكل آخر.

بخصوص السؤال الذي يشغلك كثيرًا، فإني أعتقد أنه بدلًا من لجنة التعليم التي دمَّروها، يجب علينا تشكيل مجموعة أخرى من جمعيات التعليم بمعزل عن الحكومة، ودون أي طلب سماح بتشكيلها

---

(٣٤) كتب تولستوي هذا الخطاب إلى ألكسندرا ميخايلوڤنا التي أرسلت طلبًا لنصحه ومساعدته عندما قامت السلطة بغلق لجنة التعليم. كانت جمعية اقتصادية تطوعية تأسست في عهد كاترين العظمى، وكانت تعمل على حل بعض المشكلات الاقتصادية في حدود، وتحت إشراف وزير الشئون الداخلية، وتأسس فرع داخل هذه الجمعية سُمِّي باللجنة الأدبية. هدف إلى نشر الأدب الجيد بين الناس وفي المدارس. في ١٨٩٦ صدر مرسوم بنقل الإشراف على اللجنة الاقتصادية من وزارة الشئون الداخلية إلى وزارة التعليم، وكان ذلك يعني إلغاء عمل اللجنة بشكل أو بآخر.

من المنظمات الرقابية، ولندع الحكومة وقتها إن أرادت أن تلاحق هذه الجمعيات وتعاقب أصحابها وتنفيهم وما إلى ذلك. فإن فعلتْ هذا، سيؤدي ذلك إلى إعطاء الفرصة للناس للاطلاع على الكتب والمكتبات الجيدة، وسيخدم ذلك حركة التنوير.

يبدو لي أنه من المهم جدًّا الآن أن نفعل الصواب بهدوء ومثابرة وإصرار، فلا يجب علينا فقط ألا نطلب الإذْن من الحكومة، بل نتجنب مشاركتها عن وعي وقصد. تتأسس قوة النظام على همجية الشعب، وهم يعرفون ذلك جيدًا لذا يعادون دومًا تنويره. علينا أن نفهم ذلك تمامًا. إن أسوأ شيء يمكننا أن نقوم به أن نمنح النظام الفرصة أن يتظاهر أنه بينما ينشر الظلام، فإنه مهموم بقضية تنوير الشعب، وهم يقومون بذلك عن طريق كافة مؤسسات التعليم التي تتحكم في المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات والأكاديميات وجميع أنواع اللجان والهيئات. الصواب هو الصواب، والتنوير هو التنوير... لا بالمعنى الوارد في منشورات ديليانوف(٣٥) ودورنوف(٣٦). أشعر بالأسف دومًا على تبديد هذه القوى الثمينة النزيهة التي يُضحِّي أصحابها بأنفسهم فيما لا قيمة له. أحيانًا أجد أنه من المثير للسخرية أن يُبدِّد أناس أذكياء وطيبون قواهم في محاربة الحكومة من أجل قوانين أصدرتها هي نفْسها لا سواها!

يبدو لي الأمر على النحو التالي:

---

(٣٥) وزير التعليم وقتها.

(٣٦) وزير الشئون الداخلية وقتها.

ثمة أناس -ونحن من بينهم- يعرفون أن نظامنا سيئ جدًّا، ويناضلون ضده. ومنذ أيام راديشيف(٣٧) والديسمبريين(٣٨) اتخذ النضال شكلين: يتمثل الأول في طريقة ستينكا رازين(٣٩) وبوجاتشييف(٤٠) والديسمبريين وثوريي الستينات(٤١) وأعضاء الأول من مارس(٤٢) وآخرين، والثاني هو النمط الذي تمثلونه أنتم، الذي يأمل في التغيير التدريجي، ويتأسس على النضال في نطاق القوانين الرسمية، دون ممارسة أي عنف، ساعيًا لكسب الحقوق واحدًا تلو الآخر بالتدريج. أعتقد أن كلا الطريقتين استمر طوال نصف قرن، والوضع يزداد سوءًا

---

(٣٧) مؤلف كتاب (رحلة من بطرسبرج إلى موسكو). أحد كبار الليبراليين الروس الذين وجهوا جهودهم لإلغاء القنانة (عبودية الأرض)، مما أدى لنفيه إلى سيبيريا، ثم أعادوه بعد ٥ أعوام، فاستأنف نشاطه حتى هدده النظام الحاكم، فأصابه وسواس المرض وانتحر في عام ١٨٠٢.

(٣٨) انتفاضة الديسمبريين: حدثت في الإمبراطورية الروسية في ١٤ ديسمبر ١٨٢٥. قاد ضباط الجيش الإمبراطوري حوالي ٣٠٠٠ جندي في احتجاج ضد تولي القيصر نيقولا الأول العرش بعد تنحي أخيه الأكبر قسطنطين باڤلوڤتش عن قائمة ولاة العهد. بسبب حدوث هذه الأحداث في ديسمبر سُمِّي المنتفضون بالديسمبريين. حدثت الانتفاضة في ساحة مجلس الشيوخ في سانت بطرسبرغ، وفي ١٩٢٥ تم تغيير اسم الساحة للذكرى المائة للثورة ليصبح اسمها ساحة الديسمبريين. انتهت الانتفاضة بسحق نيقولا لها، وقُبض على الثوار، فأُعدم بعضهم، والآخرون نُفوا إلى سيبيريا. كان للثورة آثار على سياسة نيقولا في الحكم كتحرير الأقنان، وذكرها عدة أدباء ومفكرين كألكسندر هيرزن في بولار ستار وألكسندر بوشكين في شِعره وليف تولستوي في رائعته الحرب والسلم.

(٣٩) أحد القوزاق الذين قادوا عصيانًا في القرن السابع عشر. هُزم في نهاية الأمر وأسروه، ثم أعدم في موسكو في عام ١٦٧١.

(٤٠) تزعم أكبر حركات العصيان في القرن الثامن عشر. أعدم في موسكو في عام ١٧٧٥.

(٤١) المقصود مجموعة الإصلاحات التي تضمنت إلغاء القنانة بعد حرب القرم وموت نيقولا الأول، ولكن الأمر تغير بعد الانتفاضة البولندية فأصبحت مقاليد النظام في يد القوى الرجعية لا الليبرالية، فشكل مجموعة من الليبراليين جناحًا ثوريًّا في الستينات، ثم قاموا بأعمال عنف واغتيالات بعد أن فقدوا الأمل في عودة الإصلاح، فاستخدموا الاغتيالات كوسيلة للسعي صوب الحرية والمساواة.

(٤٢) في ١ مارس ١٨٨١ قُتل ألكسندر الثاني من جراء قنبلة ألقى بها أحد أفراد الجناح الثوري على عربته.

أكثر فأكثر، وحتى إن حدثت بعض التطورات الإيجابية فلم يكن سببها هذه الطريقة أو تلك، ولكن لأسباب أخرى سأتحدث عنها، وبغض النظر عن أضرار هذين النمطين من النضال، فقد أصبحت القوة التي نناضل ضدها أكثر وقاحة وصلفًا وقوةً وبطشًا، وقد اختفت الشرارات الأخيرة للحكم الذاتي المتمثلة في الزيسمتفا[٤٣] أو المحاكم المحلية، واللجان المختلفة التي أنشأتموها.. تلاشى كل ذلك كحلم أخرق!

أما الآن، وبعد أن أهدرنا وقتًا طويلًا عبثًا باستخدام هذين الطريقتين من النضال، من الممكن أن نرى بوضوح أن كليهما لا يجدي نفعًا، وسأعرض الأسباب. يبدو لي السبب واضحًا، أنا الذي شعرتُ دومًا بالتقزُّز من نظامنا الحاكم، لكني لم ألجأ إلى هذه الطريقة أو تلك في

---

(٤٣) تعني الحكم الذاتي. كان ألكسندر الثاني قبل اغتياله قد استحسن مشروع الدستور الذي وضعه الكونت لوريس ميليكوف والذي قضى بتحديد قيود على الحكم القيصري المطلق ومشاركة ممثلي الحكم الذاتي المحلي (زيمستفا) في إدارة الدولة. لكن الإمبراطور الجديد ألكسندر الثالث أُقيل، وبضغط من معلمه بوبيدونوستسيف، كل من له علاقة بمشروع الدستور واتخذ الاجراءات الرامية الى الحفاظ على النظام والهدوء الاجتماعي، بما فيها منح الشرطة في المحافظات العشر حق التصرف دون أن تخضع لأوامر السلطة المحلية والمحاكم والنيابة العامة. كما منحت السلطات في الأقاليم حق تهجير الأشخاص غير المرغوب بهم وإغلاق المؤسسات التعليمية ووسائل الإعلام والمؤسسات الصناعية والتجارية، الأمر الذي كان يعني في واقع الأمر فرض الأحكام العرفية التي ظلت سارية المفعول في روسيا حتى عام ١٩١٧ بالرغم من أن إعلان تلك الإجراءات كان مؤقتًا. في الوقت نفْسه تم اعتماد بعض القوانين التي من شأنها تحسين الوضع الصعب الذي كان الفلاحون الروس يواجهونه بعد إصلاح عام ١٨٦١ وإلغاء نظام القنانة في روسيا، بما فيها تأسيس مصرف الفلاحين لعموم روسيا ومنح الفلاحين سلف مالية وتمكينهم من شراء العقارات. فيما تم تشديد الرقابة على الفلاحين، وشهد إصلاح المحكمة تراجعًا. ضم قانون مؤسسات الزيمستفا (الحكم الذاتي) الجديد أحكاما تزيد من نسبة تمثيل النبلاء ومالكي العقارات في إدارتها. تم إلغاء استقلال الجامعات وتم إخضاع المدارس الابتدائية لإدارة الكنيسة الارثوذكسية الروسية. وفرضت الحكومة قيودًا على تمثيل اليهود في مؤسسات التعليم العالي (بنسبة لا تزيد عن ٣٪ في جامعات العاصمتين) واتخذت الإجراءات الرامية إلى تهجير بعضهم من المدن الكبرى إلى أقاليم البلاد الغربية.

النضال ضدها.

النمط الأول من النضال لا يجدي نفعًا لعدة أسباب؛ أولها- أنه حتى إن نجح البعض في تغيير النظام القائم بالعنف، فما من ضمانة أن يصمد هذا النظام الجديد، وأن أعداءه لن ينقضوا عليه عند سنوح أول فرصة ويقضون عليه بالعنف أيضًا، كما حدث في فرنسا وفي كل مكان نشبت فيه الثورات. لذا فإن النظام الجديد الذي أتى بالعنف، لن يتوقف عن استخدام العنف أبدًا كي يحمي نفْسه، وهذا يعني خرق القانون الدائم، وسيترتب على ذلك أنه لن يمكنه تجنب الفساد كما كان النظام القديم تمامًا. عندما تفشل الجهود الثورية في تغيير النظام بالعنف مثلما حدث مع بوجاتشيف وحتى حركة الأول من مارس، فهذا يؤدي حتمًا إلى دعم النظام القديم أكثر، وهو مَن كانوا يناضلون في الأساس ضده، ويؤدي ذلك بالجموع الغفيرة من المترددين الذي لم ينضموا إلى أحد المعسكرين من البداية إلى الانتقال إلى معسكر المحافظين. لذلك فإني أعتقد بالمنطق السليم والتجربة والخبرة أن هذا الأسلوب من النضال غير أخلاقي ولا منطقي، ولا حتى نافع.

في رأيي، فإن النمط الثاني من النضال أقل منطقية وفاعلية هو الآخر. وهو كذلك بسبب أن النظام بينما يقبض على زمام السلطة كاملًا (الجيش- الإدارة- الكنائس- المدارس- الشرطة) ويصدر ما يُطلق عليه مجازًا «القوانين» -التي يريد الليبراليون أن يناضلوا ضده على أساسها- يعرف جيدًا أنه من الخطير جدًّا أن يدع الناس -الذين تحت إمرته وقيادته- يقومون بأي عمل من شأنه أن يؤدي إلى تدمير سلطتهم.

على سبيل المثال حكومة مثل حكومتنا، أو أي حكومة أخرى في أي مكان تقوم سلطتها على جهل الشعب، لن تسمح أبدًا بتنويره بالحقائق. تسمح الحكومات فقط بتأسيس منظمات تنويرية ظاهريًا، يسيطرون عليها، وتسمح بمدارس ومعاهد وكليات وأكاديميات، وكافة أنواع اللجان والجمعيات، ويسمحون بإصدار الكتب الخاضعة للرقابة طالما أن كل تلك المؤسسات تخدم أهدافهم، أي أنها تُخدِّر الشعب، أو على الأقل لا تعوق تخديره، ولكن عند أي محاولة من أي من هذه المؤسسات لكسر سلطة النظام القائمة على جهل الشعب، سيقوم النظام فورًا ودون أي مساءلة من أحد، أو توضيح لهدف فعله، باستخدام حق حصري في التصرف وغلق هذه المؤسسة وحظر نشاطها. لذلك، فواضح من كل ذلك بالعقل والخبرة أن هذه الطريقة التدريجية الوهمية للدفاع عن الحقوق ما هي إلا خداع للنفْس، وهي مفيدة جدًّا للنظام، لذا فهو يشجعها.

الأمر لا يقتصر على أن هذه الطريقة للنضال غير فاعلة أو منطقية، بل إنها ضارة، وهي كذلك لأنه بدخول الشرفاء والأمناء والمتنورين من الناس إلى صفوف النظام سيمنحونه سلطة أخلاقية لم يكن ليحصل عليها دون مشاركتهم. لو كانت الحكومة كلها مكونة فقط من أولئك المجرمين الأفظاظ، الجشعين والمداهنين الذين يشكلون نواتها لم تكن ستصمد طويلًا، ولكن مشاركة المتنورين والشرفاء من الناس يمنح النظام المبرر الأخلاقي لوجوده، وفي هذا وحده مكمن الخطأ لدى الليبراليين الذين انخرطوا وشاركوا في التفاوض مع الحكومة. الضرر

الثاني لهذه الطريقة للنضال أنه كي يتمكن أصحابها من العمل، فعلى أولئك المتنورين والشرفاء من الشعب أن يقوموا ببعض التسويات للوصول إلى حلول وسط، وأن يتأقلموا تدريجيًّا مع فكرة أننا كي نصل إلى أهداف طيبة من الممكن أحيانًا أن نتخلى عن الحقيقة في كلماتنا وأفعالنا. على سبيل المثال؛ من الممكن المشاركة في شعائر الكنيسة على الرغم من عدم الاقتناع بها.. من الممكن أن نقسم.. من الممكن أن نقول كلمات كاذبة تحط من قدر الإنسان من أجل إنجاح بعض الأعمال.. من الممكن أن نلتحق بالخدمة العسكرية.. من الممكن أن نشارك في الزيميستفا دون أن تكون لدينا أي حقوق.. من الممكن أن نعمل كمعلمين دون أن نُعلِّم ما نحن بحاجة إليه، بل ما كتبته الحكومة، بل من الممكن حتى أن نصبح أعضاءً في الزيمستفا، خاضعين لأوامر النظام التي تخالف الضمير.. من الممكن أن نصدر الصحف والمجلات، دون أن نقول ما يجب قوله، وننشر فقط ما يأمرون به. بتقديم هذه التنازلات، والتقيد بعدم تجاوز الحدود التي لا يمكن عدم تجاوزها، فإن المتنورين والشرفاء من الناس، الذين كان يمكن اعتبارهم حاجزًا منيعًا ضد خرق النظام للحرية الإنسانية، سيتراجعون رويدًا رويدًا عن مطالب الضمير، حتى يصبحون أخيرًا في كنف النظام تمامًا، ووقتها يتقاضون رواتبهم منه، ويكتسبون شرفهم منه، وهم يتصورون أنهم يسعون خلف الأفكار الليبرالية، التي أصبحت في الحقيقية خاضعة ومؤيدة لتلك القوة التي كانت تناهض ضدها في الأساس.

الحق أنه ما زال ثمة بعض المخلصين من هذا المعسكر

-الليبراليين- لا يزالون غير خاضعين لإغراء النظام، ولا يمكن شراؤهم أو تعيينهم في أي مناصب حكومية، لكنهم علقوا في شَرَك النظام، محاولين الهروب من الشَّرَك دون جدوى، كما أنتِ الآن مع لجانك أيضًا غير قادرين على مفارقة الموضع المحدد لكم من قبل النظام، أو كآخرين قد استبد بهم الغضب حتى انتقلوا إلى معسكر الثوَّار، أو أطلقوا الرصاص على أنفسهم، أو لجأوا في النهاية إلى الخمر، أو ألقوا بكل شيء إلى الجحيم من اليأس، أو أكثر من ذلك مَن انسحبوا إلى النشاط الأدبي، حيث يكتبون ما تسمح فقط به الرقابة، ويقولون فقط ما يمكن قوله، وبهذا يسود الصمت التام عن الأمور الأكثر أهمية، وهو ما يريده النظام في الأساس... وفي كل ذلك يتصورون أنهم يخدمون المجتمع بكتاباتهم التي توفر لهم سبيل العيش.

هكذا يبدو لي الأمر عند فحصه في ضوء العقل والخبرة، فكلا وسيلتي الكفاح ضد النظام السالف ذكرهما -واللتان قد فشلتا حتى هذه اللحظة- غير فاعلتين، ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إنهما تعضدان من قوة وطغيان النظام.

ما العمل إذنْ؟ ليس الحل قطعًا في مواصلة ما قد فعلناه في السبعين عام الأخيرة من أعمال عقيمة لم تنتج سوى نتائج عكسية لما رغبنا فيه من الأساس. ما العمل؟ الحل يكمن فيما فعله أولئك مَن ندين لنشاطهم بكل تقدم صوب الخير والنور، الذين قاموا بتلك الأفعال -وما زالوا- منذ تأسيس العالم... هذا ما علينا فعله، ولكن ما هو؟

أن تقوم ببساطة وهدوء بما تراه خيرًا ونافعًا حقًّا، في استقلال كامل

عن النظام، سواء أعجبه الأمر أو لم يعجبه. بصيغة أخرى: النضال من أجل الحقوق، لا فقط كعضو في لجنة التعليم أو أشغال عامة، أو كتاجر أو مالك أرض، أو حتى كعضو في البرلمان، بل النضال من أجل حقوقك كإنسان عاقل وحر، لا كما يناضل المرء من أجل الحقوق في الزيمستفا واللجان المختلفة بالخضوع وإجراء التسويات، ولكن دون أي خضوع أو تسوية واحدة، بنفْس الطريقة التي لا يمكن فيها التنازل أو إجراء أي تسوية مع القيم الأخلاقية والإنسانية.

كي نتمكن من الدفاع عن حصن، يجب علينا حرق كافة المنازل التي تحيط به، تاركين فقط ما هو صلب، وما لا ننتوي أن نُفرِّط فيه. هكذا الأمر أيضًا في موضوعنا؛ يجب علينا أن نتخلى عن كل ما يمكننا أن نتخلى عنه، ونتمسك فقط بما لا يمكننا التفريق فيه. فقط بالتمسك بما هو قوي وصلب يمكننا أن نحصل على كل ما يلزمنا. صحيح أن حقوق عضو البرلمان أو حتى عضو الزيمستفا أو أي لجنة أخرى أكبر من حقوق الإنسان البسيط، ويبدو ظاهريًّا أن استغلال هذه الحقوق قد يفعل الكثير، ولكن يكمن البلاء في أنه كي نحصل على حقوق الاشتراك في الزيمستفا أو البرلمان أو اللجان يتوجَّب علينا أن نتخلى عن بعض حقوقنا كبشر. التخلي عن بعض الحقوق كبشرٍ لا يُدعِّم القضية بأي طريقة ممكنة، ولا يمكن الدفاع عنه، ولن يمكنه من الاحتفاظ بأي حق من الحقوق المحفوظة الآن. كي يمكننا انتشال أحدهم من قلب الوحل، علينا أن نقف على أرض صلبة، وإلا لن نتمكن من سحبه من الوحل، بل سنغوص نحن فيه. قد يكون جيدًا ومفيدًا للغاية أن نحصل

على تشريع البرلمان بتحديد ساعات العمل في اليوم بثماني ساعاتٍ فقط، أو بتطبيق البرنامج الليبرالي بمكتبات المدارس، ولكن إن كان ذلك يتطلب من عضو البرلمان أن يرفع يده علنًا، ويقسم، ويكذب حانثًا بالقسم، ويعرب عن احترامه لما لا يشعر صوبه بأي احترام، أو إن قام من أجلنا ومن أجل تطبيق أكثر البرامج ليبرالية بالمشاركة في الصلوات الكنسية العامة، والقسم، وارتداء الملابس الرسمية، وكتابة أوراق كاذبة مداهنة، والمشاركة في هذه المحادثات... إلخ؛ فبفعل كل ذلك فنحن نتخلى عن قيمنا الإنسانية الحقيقية، وبذلك نفقد أكثر مما نربحه، وبينما نحاول الوصول لهدف واحد محدد -ولن نصل إلى معظم أجزاء هذا الهدف بهذه الطريقة على أي حال- نحرم أنفسنا من فرصة اكتساب الآخرين إلى صفوفنا، ومن أكثر الأهداف أهمية. مقاومة النظام وكبح قوته ممكنة فقط لأولئك الذين يمكنهم التخلي عن أي شيء، ولن يتراجعوا أمام أي ظروف. كي تكون لدينا قوة لمجابهة النظام، يجب أن نستند على أساس متين، والنظام يعرف ذلك جيدًا، وأكثر ما يهتم به أن يحث الناس على التخلي عما لا يمكن التخلي عنه، وهي الكرامة الإنسانية. عندما يتخلون عن الكرامة الإنسانية، يقوم النظام بهدوء بفعل ما هو لازم له، عالـمًا أنه لن يلتقي في طريقه بمقاومة تُذكر. الإنسان الذي يوافق على القسم علانية، متفوهًا في قسمه بكلمات غير لائقة وكاذبة، أو حتى ينتظر وصول الوزير لعدة ساعات مرتديًا زيه الرسمي، أو يكون قد شارك في مواكب التتويج، أو حتى يصوم من أجل تناول الأسرار من أجل التقيد بالأعراف العامة، قطعًا لا يخيف النظام.

ذات مرة قال ألكسندر الثاني أنه لا يخشى الليبراليين؛ لأنه يعرف جيدًا أن جميعهم يمكن شراؤه إما بالمال أو بالألقاب أو الأوسمة.

لذلك، فأولئك الذين يشاركون في النظام أو العمل تحت إمرته يبدون ظاهريًا وكأنهم يناضلون، ومن الممكن أن يخدعوا أنفسهم أو رفاقهم، ولكن الطرف الآخر يعرف جيدًا أن مظهر المقاومة الخارجي ما هو إلا مجرد تظاهر. يدرك النظام لدينا ذلك جيدًا فيما يخص الليبراليين، ويختبر باستمرار المقاومة لديهم ويدرك أنها غير موجودة حقيقة، فيفعل ما يحلو له واثقًا في غياب أي رد فعل حقيقي.

ما إن تأكَّد نظام حكم ألكسندر الثالث من هذا جيدًا، حتى دمَّر تمامًا كل ما قد افتخر به الليبراليون فيما مضى، وما قد تخيلوا أنهم قد صنعوه بأيديهم. قام بتبديل وتقييد نظام المحاكمات القائم على هيئات محلفين، وألغى محاكم السلام[٤٤]، وحقوق الجامعات، وقام بتغيير نظام المدارس الثانوية كاملًا، وأعاد المدارس العسكرية[٤٥]، بل وقد أعاد البيع الحكومي للخمر، وعيّن ضباط الأراضي، وأعاد تقنين الجلد، وألغى الزيمستفا تقريبًا، ومنح المحافظين سلطة مطلقة، وشجع على تنفيذ الإعدامات، والنفي المدني، وألقى السياسيين في السجون وأعدمهم، وأعاد حملات الاضطهاد الدِّيني، وقاد بسطاء الشعب إلى

(٤٤) ظهرت لأول مرة في روسيا في ١٨٤٦ إبان الإصلاحات الليبرالية التي قام بها ألكسندر الثاني، وهي محكمة تختص بالحكم في قضايا السجن لمدة أقل من ٣ أعوام مثل عقوبات جرائم السرقات الصغيرة، والسُّكر، والعنف في الشوارع من ناس غير مجرمين، وفي قضايا الطلاق والنزاعات على الأراضي.

(٤٥) مدارس تستقبل الطلاب من أعمار صغيرة لإعدادهم للالتحاق بالجيش والعمل العسكري.

الإيمان بأشد خرافات الكنيسة الأرثوذكسية بربرية، وأعاد تقنين الموت في المبارزات، وفعَّل حالة اللاقانون بدعوى حماية المجتمع، وذلك بإجراء كثير من أحكام الإعدام كإجراء عادي مقبول، ولم يلقَ مقاومة تُذكر سوى اعتراضات امرأة فاضلة صرَّحت بما تعتقد أنه الحق. تحدَّث الليبراليون فيما بينهم بصوت خافت معربين عن أن هذه الإجراءات لا تروقهم، لكنهم واصلوا العمل في المحاكم والزيمستفا والجامعات والخدمة العسكرية والصحافة. وقد قالوا في الصحف ما هو مسموح لهم أن يقولوه، وصمتوا عما أمروهم بالصمت عنه، وطبعوا ما سمحوا لهم بطباعته. وهكذا فكل قارئ للمجلات والصحف الليبرالية -وهو غير مطلع بالطبع على ما يقولونه عند التحرير- يقرأ هذه الأخبار تحت عناوين ذليلة كاذبة دون تعليق أو إدانة واحدة لأكثر الإجراءات قسوة وتعسفًا من قبل أولئك المذنبين. هكذا هو النظام الكئيب السائد في عهد ألكسندر الثالث. إنه يدمر أي شيء طيب قد حدث إبان ألكسندر الثاني، محاولًا العودة بروسيا إلى عهود البربرية في بدايات القرن الحالي، وقد أصبحت الإعدامات المخزية والجلد والاضطهادات والبربرية في كافة الصحف والمجلات الليبرالية وسيلة للإشادة بألكسندر الثالث، واصفين إياه بأنه رجل عظيم يتمتع بالقيم الإنسانية الرفيعة. الأمر ذاته مع القيصر الجديد. فما إن تولى القيصر الشاب محل سلفه -وهو لا يتمتع بأي فهم وخبرة للحياة-، حتى دعَّمه أولئك مَن في السلطة، المنتفعون منها، فكي يحكموا مائة مليون إنسان، يجب أن يقوم هذا الشاب بما قام به سلفه، فلا يطلب النصيحة من أحد، بل يفعل فقط ما تأتيه به رأسه،

أو ما يوحي به إليه أول المداهنين. وبعد أن صوَّر لنفْسه أن الأوتوقراطية المطلقة تشكل الأصل المقدس لحياة الشعب الروسي، بدأ هذا الشاب حكمه بهذا الشكل؛ فبدلًا من أن يسأل ممثلي الشعب إسداء النصح له من أجل مساعدته في الحكم الذي لا يعرف ولا يستطيع أن يعرف عنه شيئًا رغم نشأته داخل سلاح الفرسان، يصرخ ببذاءة واستهتار في كل مَن يأتيه بالتهاني من ممثلي الشعب، مطلقًا على إعراب بعضهم بخجل عن المطالب التي يود الشعب من السلطة أن تنظر إليها أحلامًا طائشة! وماذا حدث؟ هل شعر المجتمع الروسي بالتقزز، وأعرب الشرفاء والأمناء من الناس -الليبراليين- عن سخطهم وغضبهم الشديد إلى تلك الدرجة التي تكبح من إثناء المديح لهذا النظام، ومن المشاركة فيه وحثه على الاستمرار؟ إطلاقًا، بل اندلعت من وقتها منافسة شرسة في مداهنة كل من الأب وابنه الذي يشبهه تمامًا، ولا يستمع أحد إلى أي صوت من المعارضين، وصالات قصر الشتاء مكتظة بالأوغاد، والخطب الكاذبة والأيقونات المجلوبة للقيصر. وها هو يُوطِّن نفْسه داخل هذا الجنون بإنفاق هائل للنقود، وحفلات تتويج، متسببًا من فرط احتقاره للشعب -بوقاحة الحكام المعهودة- في مجاعة هائلة قضى فيها آلاف البشر نحبهم، لم تشكل للسلطة شيئًا سوى انقطاع محزن ووقتي للاحتفالات المبهجة... حفلات لا تتوقف ولا يستفيد أحد منها شيئًا سوى القائمين عليها.. حفل بلا معنى أُنفق عليه الملايين، وقد ابتكروا في المجمع الكنسي الجديد -بشكل لا يصدق قبل أن يكون وقحًا- أكثر الوسائل غباءً لتجهيل الشعب، كبقايا إنسان قضى نحبه لم يعرف أحد عنه شيئًا

أبدًا، وها هم يزيدون من صلابة الهيئات الرقابية، وتستمر حالة الحصار، التي تعني بشكل آخر حالة من الفوضى مقننة، والوضع يزداد سوءًا أكثر فأكثر.

لكني أعتقد أن كل ذلك لم يكن ليحدث إن لم يكن أولئك الشرفاء والأمناء من الناس المشغولين الآن بالنشاط الليبرالي في تحرير القوانين بالزيمستفا واللجان والأعمال الأدبية الخاضعة للرقابة وما إلى ذلك، قد وجَّهوا طاقتهم للعمل في المؤسسات التابعة للنظام، كما لو أنهم سيخدعونه، وسيدمرون النظام عن طريق المؤسسات التي أنشأها هو، بل كان عليهم فقط أن يمتنعوا تمامًا عن المشاركة تحت أي ظرف من الظروف في العمل مع النظام أو في أي مؤسسة ترتبط به، وأن يؤكدوا على حقوقهم الشخصية كبشر. «أنت ترغب في إنشاء قوات عسكرية تحمل العصي بدلًا من محاكم السلام.. حسنًا هذا شأنك، ولكننا لن نذهب إلى موظفيك بقضايانا، ولن نشارك بأي شكل في هذا النشاط. تود لو تجعل هيئات المحلفين في المحاكم هيئة واحدة ثابتة.. حسنًا هذا شأنك، ولكننا لن نذهب إلى المحاكم ولا إلى المحامين ولا إلى هيئات المحلفين. تود أن تصنع حالة من الحصار تحت مسمى «الحماية».. حسنًا هذا شأنك، ولكننا لن نشارك فيها، وسنطلق عليها مباشرة حالة انعدام قانون وعقوبات مميتة دون محاكم... اغتيالات بالمعنى المباشر. تود أن تؤسس مدارس ثانوية تقليدية تحت إشراف عسكري وتعليم كنسي وهيئات طلابية تابعة لها.. حسنًا هذا شأنك، لكننا لن نُدرِّس فيها ولن نرسل إليها أطفالنا، وسنربيهم بطريقتنا. تود أن تقلل أعداد الزيسمتفا

حتى تنتهي تمامًا.. حسنًا هذا شأنك، لكننا لن نشارك فيها. يمكنك أن تُحرِّم طباعة ما لا يروق لك... يمكنك أن تمسك بالكتب وتحرقها وتعاقب القائمين على طباعتها، لكن لا يمكنك أن تمنعنا عن التحدث والكتابة، وسنستمر فيهما... يمكنك أن تأمر بأداء قسم الولاء للقيصر، لكننا لن نقسم به؛ لأن ذلك مجرد حماقة وكذب وخسة... يمكنك أن تأمر بأداء الخدمة العسكرية، لكننا لن نؤديها؛ لأننا نعتبرها دمارًا شاملًا يخالف الضمير كقتل الفرد تمامًا، ولأن قتل مَن يأمرونا بقتله هو أحط فعل يمكن أن يقوم به الإنسان.. تعلن ولاءك لدِين قضى نحبه من ألف عام متمثلًا في أيقونة والدة الإله الإيبيرية[٤٦]، وبقايا الأجساد وحفلات التتويج... حسنًا هذا شأنك، لكننا لن نطلق على الوثنية والعصبية الدينية دِينًا، بل وثنية وعصبية دِينية، بل وسنحاول أن نُخلص الناس منها. وماذا يمكن حينها للنظام أن يفعله لمجابهة هذا النشاط؟ يمكنه أن ينفي إنسانًا أو يلقي به في السجن لأنه يُعد قنبلة، أو حتى يعد منشورًا للعمال.. من الممكن أن ينقل إدارة لجنة التعليم من تحت قيادة وزير لآخر، أو حتى يغلق البرلمان، لكن ماذا يمكن للنظام أن يفعله لإنسان لا يود أن يكذب علانية رافعًا يده، ولا يود إرسال أبناءه إلى مؤسسات يعتبرها شريرة، أو لا يود أن يتعلم القتل، أو لا يريد أن يشارك في مظاهر الوثنية، أو لا يود المشاركة في حفلات التتويج واللقاءات والخطب، أو حتى يقول ويكتب ما يعتقده حقيقةً؟ بملاحقة هؤلاء الناس، سيحولهم النظام إلى شهداء، وسيحطمون القواعد التي يرتكزون عليها، فبدلًا من حماية

---

(٤٦) أيقونة لمريم والطفل يسوع، يقدسها البعض.

حقوق الأفراد، سيخرقونها تمامًا.

ما ينبغي فعله حقًّا لكل هؤلاء المتنورين والشرفاء الذين يضعفون قواهم الآن بإضرار أنفسهم والمشاركة في النشاط الثوري والاشتراكي والليبرالي، أن يبدأوا في التصرُّف بالشكل الذي وصفته، وستجتمع حولهم نواة من الشرفاء والمتنورين والمستقلين من الناس، ووقتها سيتذبذب موقف الجموع التي تشكل طرفًا ثالثًا مترددًا، وستظهر وقتها قوة واحدة يمكنها أن تقهر النظام؛ قوة الرأي العام، مطالبة بحرية الكلمة وحرية الضمير، وبالعدالة والإنسانية. وكما تكوَّن سريعًا هذا الرأي العام، فلن يكون مستحيلًا فقط إلغاء لجنة التعليم، ولكن كافة المؤسسات غير الإنسانية التي تحاصر المجتمع مثل البوليس السري والرقابة والمجمع الكنسي، وهي الهيئات التي يناضل الليبراليون والثوريون ضدها الآن، ستتحطم من نفْسها.

لقد اختبرنا بالفعل طريقتين من النضال ضد النظام، وكلاهما لم يُجدِ نفعًا، ويبقى أمامنا الآن أن نجرب الطريقة الثالثة التي لم نختبرها حتى الآن، والتي في رأيي لا يمكن ألا تكون ناجحة. هذه الطريقة التي عبَّرت عنها، تتأسس على محاولة كافة الشرفاء والمتنورين أن يصبحوا أفضل، لا في كافة علاقاتهم، بل في أمر واحد فقط، وهي أن يراقب الناس أحد الفضائل الرئيسة، وهي أن يكونوا أمناء.. لا يكذبون ويتصرفون ويتحدثون بأمانة، بحيث تكون دوافعهم مفهومة ومحبوبة لطفلك البالغ من العمر ٧ أعوام.. أن يفعل الإنسان ما لا يجعل ابنه يأتيه يومًا قائلًا: «لمَ قلت يا أبي فيما مضى شيئًا، والآن تفعل أو تقول شيئًا

آخر تمامًا؟» قد تبدو هذه الطريقة للنضال ضعيفة، لكني على قناعة أنها وحدها حفظت الإنسانية منذ نشأتها وحتى الآن. وبسبب وجود هؤلاء المستقيمين والصادقين ومَن لديهم الشجاعة، الذين لم يقدموا أي تنازلات ضد مطالب ضمائرهم، وقاموا بكل الانقلابات المصيرية الخيرة، بداية بتدمير محاكم التفتيش ونظام العبودية، مرورًا بحرية الكلمة والضمير، يتمتع الناس بكل ذلك الآن. لم يكن ذلك ممكنًا بشكل آخر، لأن ما يتطلبه الضمير -وهو أسمى ما لدى الإنسان كي يصل إلى الحقيقة- سيظل أكثر الأمور أهمية وفائدة في كافة العلاقات الإنسانية، خاصة في تلك اللحظة. وحده مَن يعيش وفقًا لمتطلبات ضميره يمكنه أن يمارس تأثيرًا كبيرًا على مَن حوله، ووحده النشاط الذي يتطابق ومتطلبات الضمير يحمل فائدة حقيقية.

عليَّ أن أوضح مقصدي أكثر قليلًا. القول بأن أكثر الوسائل جدوى لتحقيق الغايات التي يسعى إليها الثوّار والليبراليون يكون عبر النشاط الذي يتوافق مع متطلبات ضمائرهم، لا يعني إطلاقًا أن على الناس أن يعيشوا وفقًا لضمائرهم من أجل تحقيق هذه الغايات، فالعيش وفقًا لمتطلبات الضمير من أجل تحقيق أهداف خارجية أمر مستحيل.

العيش وفقًا للضمير ممكن فقط عندما ينتج عن قناعات دينية قوية وواضحة، وسيلحق حتمًا بذلك نتائج جيدة في ظروف حياتنا الخارجية. خلاصة ما أود قوله يمكن تلخيصه في الآتي: إنه غير مُجْدٍ للشرفاء والمخلصين من البشر أن يبدووا قوى عقولهم وأرواحهم في تحقيق أهداف عملية صغيرة؛ على سبيل المثال في الكفاحات المختلفة التي

تخوضها الدول والأحزاب، أو في الضغوط التي يمارسها الليبراليون من وراء الكواليس، في حين أنهم لم يتوصلوا إلى إدراك دِيني واضح ومحكم، أي الوعي بمعنى وهدف الحياة. أعتقد أن كافة قوى الروح والعقل للشرفاء من الناس الذين يودون أن يقدموا خدمة إلى الإنسانية عليها أن تُوجَّه إلى هذه الغاية. عندما يكتمل هذا، سنكتمل نحن أيضًا.

أرجو أن تعذريني على أنه بالرغم من كثرة كلماتي، فقد تكون غير مهمة على الإطلاق لكِ، لكني أردتُ أن أعبر عن رأيي في تلك القضية، حتى أني بدأتُ في كتابة مقال كبير عنها، لكني ربما لن أنجح في إكمالها قبل أن توافيني المنية، لذلك أردت أن أوضح لكِ وجهة نظري حيال الأمر. اعذريني إن كنت قد أخطأتُ في أي شيء.

تحياتي لكِ.

ليف تولستوي

٣١ أغسطس ١٨٩٦

الدرجة الأولى

-١-

إن قام إنسان بفعل شيء معين، لا من أجل التظاهر، بل لأجل إتمامه فعلًا، فإن أفعاله ستتم عبر ترتيب معين حتمي في سياق تنفيذ ما يريد إنجازه. إن قام الإنسان بتأجيل ما كان لا بد أن يقوم به أولًا، أو أهمل فعلًا ضروريًّا كان لا بد أن يقوم به كي يتمكن من إتمام عمله، فحتمًا هو غير جاد في نيته في هذا العمل، لكنه يتظاهر فقط برغبته في إتمامه. هذه قاعدة ثابتة لا تتغير، في الأمور المادية وغير المادية على السواء. كما أنه من المستحيل أن نرغب في خبز الخبز، إلا بعد أن نعجن الدقيق أولًا، ثم ننظف الموقد ونشعله، فمن المستحيل أيضًا أن نرغب في حياة صالحة دون أن نتحرى ترتيبًا معينًا في اكتساب الفضائل المرجوة.

إنها قاعدة شديدة الأهمية كي نحيا حياة صالحة؛ لأن في الأمور المادية -كما في مثال الخبز- من الممكن أن نعرف ما إن كان الإنسان يقوم بعمله بشكل جاد، أو إنه يتظاهر فقط عن طريق نتيجة عمله، ولكن

في تحري الأمر مع الحياة الصالحة فتلك الطريقة لا تمكننا من التفريق بين العمل الجاد والتظاهر. إن لم يقم الناس بعجن الدقيق وإيقاد المواقد، بل تظاهروا فقط كما يفعلون على المسرح، فلن ينتج عن ذلك خبز، وسيتضح للجميع أنهم يتظاهرون فقط، ولكن إن تظاهر أحدهم أنه يحيا حياة طيبة، فلن تكون لدينا هذه المؤشرات المباشرة التي نتمكن عن طريقها من معرفة ما إن كان هذا الإنسان جادًّا في سعيه نحو حياة صالحة، أو إنه يتظاهر فقط، وذلك ليس فقط بسبب أن العواقب التي تنتج عن الحياة الصالحة لم ولن تكون أبدًا محسوسة وملموسة للآخرين، بل إنها حتى قد تبدو لهم ضارة، ولكن لأن احترام عمل المرء والاعتراف بأهميته ونفعه ممَّن حوله لا يمكنه أن يُدلِّلَ أبدًا على صلاح الحياة.

لذا فحتى نتمكن من التفريق بين الحياة الصالحة الحقيقية وبين التظاهر بها، فإن قاعدة تسلسل اكتساب الفضائل الواجبة للحياة الصالحة أمر شديد الأهمية. أهمية هذه القاعدة لا تكمن في الأساس من أجل اكتشاف حقيقة جدية الآخرين في السعي نحو حياة صالحة، ولكن من أجل اكتشاف الحقيقة في حد ذاتها، فنحن نميل في هذا الأمر لخداع أنفسنا أكثر من خداع الآخرين.

التسلسل الصحيح في اكتساب الفضائل شرط ضروري للسعي نحو حياة صالحة، لذا فكافة معلمي البشرية وصفوا للناس تسلسلًا ثابتًا شهيرًا؛ كي يتمكنوا من اكتساب الفضائل الضرورية.

ظهر هذا السلم القيمي في كافة التعاليم الأخلاقية، فكما تقول الحكمة الصينية فإنه ينطلق من الأرض نحو السماء، ولا يمكن صعوده

سوى بالبدء من درجاته السفلى. وكما الأمر في تعاليم البراهمة والبوذيين والكونفوشيوسيين، كذلك في تعاليم حكماء اليونان، فقد تأسست درجات الفضيلة المختلفة، ولا يمكن صعود درجاتها سوى بداية من أدناها. وقد أقرت كافة التعاليم الأخلاقية -الدينية منها وغير الدينية- بضرورة وجود تسلسل محدد في اكتساب الفضائل الواجبة من أجل حياة صالحة، وتكمن هذه الضرورة في جوهر الفضائل ذاتها، لذا لا بد وأن تكون معروفة لكافة البشر.

ويا له من أمر غريب! إن معرفة تسلسل الفضائل الواجبة من أجل حياة صالحة تتناقص أكثر فأكثر، حتى أنها تكاد تختفي إلا من وسط بعض النُسَّاك والرهبان. أما بين العلمانيين؛ فثمة اعتقاد بإمكانية اكتساب سمات شديدة السمو مباشرة، لا فقط مع غياب المرور بدرجات سلم الفضائل الأولى التي يتحتم المرور بها صوب الفضائل العليا، ولكن أيضًا مع وجود أكثر الرذائل انتشارًا، لذا فمفهوم الحياة الصالحة بين غالبية الناس قد أصبح مرتبكًا تمامًا في أذهانهم.

-٢-

أعتقد أن ما ذكرته قد حدث على النحو التالي:

عندما حلت المسيحية مكان الوثنية، فقد وضعتْ مُثُلًا أخلاقية أرقى من مثيلتها التي كانت إبَّان الوثنية، ولـمَّا لم يكن الأمر ممكنًا على غير ذلك، فقد حددت -مثلما حدث إبَّان الوثنية- تسلسلًا متدرجًا

واجبًا؛ كي يمكن للإنسان أن يحيا حياة صالحة.

بدأت فضائل أفلاطون بضبط النفْس، مرورًا بالشجاعة والحكمة، وصولًا إلى العدالة، أما الفضائل المسيحية فإنها تبدأ بإنكار الذات، مرورًا بتكريس إرادة الإنسان لله، وصولًا إلى الحب.

هكذا فهم المسيحية أولئك مَن كانت لديهم جدية حقيقية في التعامل معها، ومَن سعوا بحرارة لأن يعيشوا حياة مسيحية حقة، فبدأوا دومًا بقمع شهواتهم؛ الفعل الذي يتضمن بداخله ضبط الذات الذي ظهر إبَّان الوثنية.

لا يقتصر الأمر على استبدال التعليم الوثني بالمسيحي، وأن الأخير أرقى من الأول، لكن التعليم المسيحي -كما حاول الوثني- يقود الناس صوب الحقيقة والصلاح، فالحقيقة والصلاح ثابتان إلى الأبد، لذا فالطريق صوبهما لا بد وأن يكون واحدًا دائمًا، وأول خطوة في هذا الطريق لا بد أن تكون حتمًا واحدة في التعليم المسيحي كما الوثني.

أما الفارق بين التعليم المسيحي والوثني، فيتمثل في أن الأخير محدود بحدود معينة، أما المسيحي فليس له حدود. على سبيل المثال رأى أفلاطون في العدالة كمال الفضيلة ونهايتها، أما المسيحية فلم تضع حدًّا نهائيًّا للفضيلة، وقد رأت في الحب اللا محدود نموذجًا لذلك: «كُوْنُواْ كَامِلِيْنَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِيْ فِي السَّمَاءِ هُوَ كَامِلٌ»(٤٧). في هذا يكمن الفارق، والذي ينتج عنه تعليمٌ يؤدي إلى درجات مختلفة من

(٤٧) إنجيل متى ٥: ٤٨.

الفضيلة. إن الوصول إلى كمال الفضيلة في الوثنية أمر ممكن، ولكل درجة من الفضيلة جدارة خاصة بها، وكلما تعلو الدرجة تزداد الجدارة، وهكذا يختلف الناس من ناحية الفضيلة والرذيلة من وجهة النظر الوثنية. أما في التعليم المسيحي، الذي يعلم بنموذج من الكمال غير محدود، فهذا التقسيم غير ممكن. لا يمكن أن تكون هناك درجات أرفع ودرجات أدنى. في التعليم المسيحي الذي يسعى صوب الكمال غير المحدود، فكل الدرجات سواء في علاقاتها بالنموذج المطلق. تتأسس الفوارق بين الجدارات المختلفة في التعليم الوثني على الدرجات المختلفة التي يصل إليها كل إنسان، أما الجدارة في المسيحية فتتأسس فقط على عملية الحركة المستمرة -سريعة كانت أو بطيئة- التي يقوم بها كل إنسان في طريقه إلى الكمال. من وجهة النظر الوثنية، فالإنسان الجدير بالفضيلة -من الناحية الأخلاقية- يسمو عن مثيله ممَّن لا يحوز الفضيلة؛ الإنسان الذي يحوز حكمة وشجاعة أعظم، والذي يتمتع بالعدالة فوق الحكمة والشجاعة أعظم، أما المسيحية فلا يمكنها أن تعتبر أيًّا منهم أعظم أو أدنى من الآخر بالمعنى الأخلاقي. يعد الإنسان أكثر أو أقل مسيحية فقط بحسب سرعته في طريقه صوب الكمال المطلق، بغض النظر عن المرحلة الأخلاقية التي هو فيها الآن، وهكذا فإن تقوى الفريسيين الثابتة بلا أي تطور أدنى أخلاقيًّا من حركة اللص التائب على الصليب صوب الحق.

ولكن بسبب أن الحركة صوب الفضيلة صوب الكمال لا يمكن أن تنتهي أبدًا إلى درجات متدنية من الفضيلة، فالأمر كما في الوثنية؛ ما من

فارق جوهري.

لا يمكن للمسيحي -تمامًا مثل الوثني- ألا يبدأ طريقه صوب الكمال من نفْس نقطة البداية التي بدأت منها الأخلاقيات الوثنية، وهي «ضبط النفْس»، كما لا يمكن لِمَن يود أن يصعد درجات السلم ألا يبدأ من الدرجة الأولى. يكمن الفارق فقط في أن ضبط النفْس بالنسبة للوثنية يعتبر في حد ذاته فضيلة، أما في المسيحية فهو مجرد جزء من إنكار الذات الذي يعد شرطًا ضروريًا في سعى الإنسان صوب الكمال، لذا فالمسيحية لا يمكنها أن تهمل تمامًا الفضيلة التي أشارت لها الوثنية.

ولكن لم يفهم الجميع المسيحية على أنها سعيًا إلى الأب الكامل في السماء، ولكن عَمِلَ الفهمُ المزيَّفُ للمسيحية على تدمير الجدية والإخلاص في علاقة الناس بالتعاليم الأخلاقية لها.

إن اعتقد إنسان أنه يمكنه أن يخلص بمعزل عن تنفيذ التعاليم الأخلاقية المسيحية، فستبدو له أية جهود يمكنه أن يبذلها أمرًا غير ضروري؛ زائدًا عن حاجته، لذا فالمؤمن بأن ثمة وسائل للخلاص -بعيدًا عن بذل جهود شخصية كي يصل الإنسان إلى الكمال- لا يمكنه أن يكافح كي يصل إلى هذا الهدف بجهد وجدية، كالذي يسعى بهما ولا يعرف أي طريقة أخرى للخلاص سوى ببذل الجهود الشخصية. وإن لم يسعَ الإنسان إلى ذلك بجدية كاملة، مصدقًا أن ثمة وسائل أخرى غير الجهود الشخصية يمكنه أن تخلصه، فقطعًا سيتجاهل ما يمكنه وحده أن يجعله يكتسب فضائلَ حقيقية يحتاجها كي يحيا حياة صالحة. هذا

ما حدث تمامًا مع غالبية مَن يتبعون المسيحية ظاهريًّا.

-٣-

يُعتبر التَّعليم -الذي يقضي بأن الجهود الشخصية غير لازمة للإنسان ليصل إلى الكمال الروحي، وأن ثمة وسائل أخرى- سببًا رئيسًا في إضعاف السعي نحو حياة صالحة وإهمال التسلسل الضروري لأجل الوصول إليها.

إن الغالبية العُظمى من البشر الذين يعتنقون المسيحية ظاهريًّا قد استغلوا استبدال الوثنية بالمسيحية؛ كي يتحرروا من متطلبات الفضيلة التي قضت بها الوثنية، فهي غير لازمة للمسيحية، محررين أنفسهم من أي كفاح ضروري مع طبيعتهم الحيوانية.

هكذا أيضًا فعل أولئك مَن توقفوا عن الإيمان بهذه الصياغة السطحية من المسيحية. لقد فعلوا كما فعل المؤمنون بالصياغة السطحية للمسيحية تمامًا، مستبدلين هذه الصياغة فقط بأي عمل يجمع على صلاحه غالبية الآراء، مثل خدمة العِلم أو الفن أو الإنسانية، وباسم هذا العمل الصالح الوهمي، يحررون أنفسهم من التسلسل الضروري لاكتساب الفضائل اللازمة لحياة صالحة، ويكتفون بالتظاهر بأنهم يعيشون حياة صالحة، كما يحدث على المسرح تمامًا.

أولئك مَن تركوا الوثنية، ولم يعتنقوا المسيحية بمعناها الحقيقي، يعظون بحب الله والناس دون إنكار ذات، وبالعدالة دون ضبط النفْس؛

يعظون بالفضائل السامية دون الأدنى منها.. إنهم لا يعظون بالفضائل، بل بشيء آخر يشبهها.

يعظ البعض بحب الله والناس دون إنكار للذات، وآخرون بالإنسانية وخدمة الناس دون ضبط النفْس.

مثل هذه المواعظ تشجع الطبيعة الحيوانية داخل الإنسان، تحت راية إدخاله إلى أجواء أخلاقية سامية، محررة إياه من أكثر المتطلبات الأخلاقية بدائية، التي عبرت عنها الوثنية قديمًا، والتي لم ترفضها فقط المسيحية الحقيقية، بل دعمتها أكثر، وقد كانت هذه الفضائل مقبولة عن طيب خاطر من المسيحيين وغيرهم على السواء.

منذ أيام قليلة صدر المنشور البابوي. وبعد أن عارض وجهة نظر الاشتراكيين عن رفض الملكية الخاصة، قال مباشرة: «لا أحد ملزم قطعًا بمساعدة القريب من احتياجاته أو احتياجات أُسرته، ولا يتوجب عليه حتى أن يقلل من أي شيء من شأنه أن يُحسِّن حياته وممتلكاته. في واقع الأمر لا يتوجب على أحد أن يعيش عكس العادات والتقاليد» -هذا مستوحًى من توما الأكويني- ويكمل: «ولكن بعد أن يلبي الإنسان احتياجاته الإنسانية ويعيش بكل ما هو لائق، يظهر هنا واجب منح الفقراء».

هكذا يُعلِّم رأس إحدى أكبر الكنائس الموجودة الآن، وبجانب هذه التعاليم الأنانية التي تقضي بأن تمنح الفقراء فقط ما لستَ في حاجة إليه، يعظون بالحب، مستشهدين دائمًا بكلمات بولس الشهيرة في الإصحاح

الثالث عشر من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس عن الحب[٤٨].

وبغضِّ النظر عن أن كافة تعاليم الإنجيل مليئة بمطالب نكران الذات، والتي ترى أنه الشرط الأول للكمال المسيحي، وبغضِّ النظر عن المقاطع الواضحة مثل: «مَنْ لَا يَحْمَلْ صَلِيْبَهُ[٤٩]... مَنْ لَا يُنْكِرْ أَبَاهُ وَأُمَّهُ»[٥٠]، يؤكد كثيرون لأنفسهم وللآخرين أنه من الممكن أن تحب الناس دون أن تتخلى عن العادات والتقاليد، وعما يعتبره المرء لائقًا.

هكذا تُعلِّم المسيحية المزيفة، تمامًا كما يتصرف ويقول ويكتب ويفعل أولئك الرافضون، لا فقط للتعليم المسيحي المزيف، بل للحقيقي أيضًا؛ وهم الليبراليون. يؤكد أولئك الناس لأنفسهم وللآخرين أنه يمكن خدمة الإنسانية كلها وعيش حياة صالحة دون تقليل ممتلكاتهم أو هزيمة شهواتهم.

أهمل الناس التسلسل الوثني للفضيلة، دون أن ينالوا التعليم

---

(٤٨) يقصد الإصحاح ١٣ من رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، وهي تتحدث عن المحبة: من بعض آياتها:
(١) إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة، ولكن ليس لي محبة فقد صرت نحاسًا يطن أو صنجًا يرن (٢) وإن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل عِلم، وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال، ولكن ليس لي محبة فلست شيئًا (٣) وإن أطعمت كل أموالي وإن سلمت جسدي حتى أحترق، ولكن ليس لي محبة فلا أنتفع شيئًا (٤) المحبة تتأنى وترفق. المحبة لا تحسد. المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ (٥) ولا تُقبِّح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء (٦) ولا تفرح بالإثم، بل تفرح بالحق (٧) وتحتمل كل شيء، وتصدق كل شيء، وترجو كل شيء، وتصبر على كل شي (٨) المحبة لا تسقط أبدًا.

(٤٩) «مَنْ لَا يَحْمِلُ صَلِيبَهُ وَيَأْتِ وَرَائِي فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا» (إنجيل لوقا ١٤ : ٢٧).

(٥٠) من أتى إليَّ ولم يفضلني على أبيه وأمه وامرأته وبنيه وإخوته وأخواته، بل على نفسه أيضًا، لا يستطيع أن يكون لي تلميذًا. (إنجيل لوقا ١٤ : ٢٦) (ترجمة يسوعية).

المسيحي الحقيقي، ودون أن يقبلوا التسلسل المسيحي للفضائل، وبقوا هكذا دون إرشاد.

-٤-

في العصور القديمة، وعندما لم يكن التعليم المسيحي قد ظهر بعد، وعند كافة الحكماء بدءًا من سقراط، كان ضبط النفْس أول فضيلة في الحياة، أو ἐγκράτεια σωφροσύνη، وكان مفهومًا أن كل فضيلة يجب أن تبدأ بضبط النفْس، وتمر بها. كان واضحًا للجميع أن الإنسان الذي لا يسيطر على نفْسه، والذي تعتمل بداخله شهوات كثيرة دون أن يخضعها، لا يمكنه أن يحيا حياة صالحة. كان واضحًا للجميع أنه قبل أن يمكن لأي إنسان أن يفكر في الشهامة والحب والإيثار والعدالة، عليه أن يسيطر على ذاته. طبقًا لوجهة النظر السائدة الآن فكل هذا غير ضروري. نحن على قناعة تامة أن الإنسان الذي تعتمل بداخله الشهوات حتى أقصى درجة ممكنة في عالمنا هذا؛ هذا الذي لا يمكنه أن يعيش دون أن يلبي مئات العادات اللا مُجْدِية التي تستعبده، من الممكن أن يحيا حياة أخلاقية صالحة تمامًا. وإن تفحصنا الأمر من أي وجهة نظر تبحث عن العدالة، سواء كانت متدنية أو نفعية، أو سامية أو حتى وثنية، أو عبر وجهة النظر الأسمى: المسيحية والتي تبحث عن الحب، فقطعًا سيكون واضحًا للجميع أن الإنسان الذي يستخدم من أجل شهواته الخاصة -والتي يمكنه التخلي عنها بسهولة- عملَ الآخرين، والذي غالبًا ما يكون مؤلـمًا أن يتصرف بشكل خاطئ، وذلك الفعل هو أكثر

الأمور سوءًا التي عليه أن يتوقف عنها إن أراد أن يحيا حياة صالحة.

من وجهة النظر النفعية فهذا الأمر سيئ؛ لأنه طالما يستمر في إجبار الآخرين على العمل من أجله، يظل الإنسان في حالة غير مستقرة؛ فهو يُعوِّد نفْسه على إشباع شهواته حتى تستعبده، بينما يعمل الآخرون من أجله وهم يُكِنُّون له الكراهية والحقد، منتظرين فقط الفرصة التي تسنح لهم حتى يحرروا أنفسهم من العمل لديه. ينتج عن هذا أن مثل هذا الإنسان عرضة دائمًا أن يُترك مع عاداته المغروسة بعمق بداخله، والتي تخلق له احتياجات لا يمكنه أن يلبيها.

من وجهة نظر العدالة فهو أمر سيئ أيضًا؛ لأنه ليس حسنًا أن تستغل عمل الآخرين لصالح رغباتك الخاصة، وهم لا يستطيعون التمتع بواحد من مائة من المتع التي تستمتع بها من استغلال عملهم.

من وجهة نظر الحب المسيحي، سيكون من الصعب جدًّا أن نقول إنه من الضروري أن الإنسان الذي يحب الآخرين سوف يمنحهم ثمرة عمله الخاص بدلًا من أن يستولي على ثمرة عملهم من أجل متعته الخاصة.

ولكن كافة متطلبات المنفعة والعدالة والمحبة تجاهلها تمامًا المجتمع المعاصر، فهو يرى أن المجهود اللازم للحد من شهوات الإنسان لا يمثل الدرجة الأولى ولا حتى الأخيرة على السلم الأخلاقي، بل هو لا نفع له من الأساس للوصول إلى حياة صالحة.

طبقًا لأكثر التعاليم انتشارًا عن الحياة، فزيادة الاحتياجات تُعَدُّ

على النَّقيض أمرًا مرغوب فيه، وعلامة على التطور والحضارة والثقافة والكمال. يعتبر أولئك مَن يطلق عليهم «مثقفين» أن عادات الراحة والخنوثة، ليست فقط غير ضارة، بل جيدة، وتشير إلى السمو الأخلاقي للإنسان، الذي يقارب الفضيلة.

كلما تزداد هذه الاحتياجات، وكلما تصبح أكثر رقة، كلما يكون الأمر أفضل. أكثر ما يوضح ذلك؛ الشِّعر الوصفي وروايات قرننا هذا والقرن الماضي. كيف يتم تصوير الأبطال والبطلات الذين يمثلون الفضيلة؟

في أغلب الأوقات، يُصوَّر الرجال الذين يمثلون شيئًا من السمو والنبل، بدءًا من شيلد هارولد[٥١]، مرورًا بترولوب[٥٢]، وحتى موباسان[٥٣]، فالأمر واحد؛ كرجل طفيلي فاسق، لا يجدي نفعًا لأحد، أما البطلات فهن دومًا خليلات للذكور، يجلبن المتعة لهم، بطالات أكثر أو أقل- مثلهم تمامًا، متفانيات في الترف والرفاهية.

لم أتحدث هنا عن تصوير الشخصيات المعتدلة الحقيقية الذي نلتقيه في الأدب بين الحين والآخر، لكني أتحدث هنا عن النمط الشائع الذي يُقدِّم النموذج والمثل إلى العامة؛ عن تلك الشخصية التي يحاول معظم الأزواج والزوجات أن يصبحوا مثلها. عندما كتبت روايات، أذكر

---

(٥١) أسفار شيلد هارولد: كتاب من تأليف لورد بايرون.

(٥٢) أنتوني ترولوب: روائي إنكليزي. ولد في لندن وتوفي فيها، ينحدر من أسرة تتألف من أب محام هو توماس ترولوب،
وأم روائية هي فرانسيس ملتون ترولوب.

(٥٣) غي دو موباسان (١٨٥٠ - ١٨٩٣) : كاتب وروائي فرنسي، وأحد آباء القصة القصيرة الحديثة.

جيدًا الصعوبة البالغة التي واجهتها، والتي يواجهها الآن كافة الروائيين الذين ليس لديهم رؤية واضحة عما يشكل حقيقة الجمال الأخلاقي، وهي صعوبة تصوير نمط إنسان ينحدر من الطبقات الغنية، وخيِّر وطيب وصادق فعلًا، فحتى يكون صادقًا غير مزيف، يجب أن يعرض وصف رجل أو امرأة من الطبقات العليا المثقفة لحياة البطل في وسطه العادي، وهو هنا يتمثل في الترف، والراحة الجسدية، والمتطلبات الكثيرة. من وجهة النظر الأخلاقية فهذا النمط قطعًا مرفوض، ولكن عليَّ ككاتب أن أصوِّر هذا الشخص بصورة جذابة، وكذلك يحاول الصحفيون إعادة تصويره. لقد حاولت أنا الآخر، والغريب هنا أن مثل هذا التصوير لفاسق أو قاتل -سواء كان مبارزًا أو جنديًا- تافه بكل معنى الكلمة، منساق بشكل كامل، عصري، مهزار، جذاب، لا يتطلب مجهودًا فنيًّا كبيرًا.

-٥-

يمكننا أن نجد الدليل الواضح على أن الناس في عصرنا هذا لا يعترفون لا بضبط النفْس الوثني ولا بإنكار الذات المسيحي كجوهر للفضائل المطلوب توفرها، بل ويعتقدون أن زيادة الاحتياجات -سواء كانت حقيقية أو مصطنعة- أمر مهم ومطلوب.. يمكن أن نجد هذا الدليل بوضوح في تربية معظم الأطفال في وقتنا هذا. لا يقتصر الأمر على عدم تربيتهم على ضبط النفْس -كما كان عند الوثنيين-، وإنكار الذات -كما يجب أن يكون عند المسيحيين-، بل يتم تعليمهم مقومات

الخنوثة والبطالة الجسدية والترف.

منذ وقت طويل وأنا أرغب في كتابة هذه القصة الخيالية: ذات مرة رغبت إحدى النساء في أن تنتقم من أحد الذين أساؤا إليها، فخطفت طفله وذهبت به إلى أحد السحرة، وطلبت منه أن يعلمها كيف يمكن أن تنتقم من عدوها في طفله الصغير هذا. أخبرها الساحر أن تأخذ الطفل إلى مكان معين حدَّده لها واعدًا إياها أن هذا المكان سيكون أكثر الأماكن رعبًا للطفل. ففعلت المرأة الشريرة ما طلبه منها، لكنها تبعت الطفل، ويا للدهشة... لقد رأت أن الطفل قد تم تبنيه من قبل أحد الأغنياء. فذهبت إلى الساحر ووبَّخته على ما فعله، لكن الساحر أمرها بأن تنتظر. نشأ الطفل وترعرع وسط الترف والنعومة المخنثة. شعرت المرأة الشريرة بالارتباك والحيرة، لكن الساحر أمرها أن تنتظر أيضًا. حتى حان الوقت أخيرًا الذي شعرت فيه المرأة المتحيرة بالشفقة على ضحيتها. ترعرع الطفل وسط الترف والبطالة حتى تحطمت شخصيته الطيبة، وفي هذه اللحظة بدأت معاناته الجسدية، وقاسى من الفقر والعوز اللذين كان حساسًا جدًّا صوبهما، ولم يكن بإمكانه تحملهما. ثمة سعي نحو حياة أخلاقية، ومن جانب آخر ضعف وخنوثة واعتياد على الترف أضعف الجسد. حرب بلا جدوى.. سقوط أكثر فأكثر.. سُكْر حتى يمكنه أن ينسى، ثم الجريمة أو الجنون، أو الانتحار.

في حقيقة الأمر من المستحيل ألا ننظر بهلع لما نفعله لبعض الأطفال أثناء تربيتنا لهم في هذا العالم. وحده أكثر الأعداء شرًّا مَن يمكنه أن يُنشِّئ طفلًا بهذا الضعف وهذه النقائص التي يُنشِّئُ الوالدان

أطفالهما عليها، وخاصة الأمهات. إنه أمر رهيب أن نراقب هذا وعواقبه بشكل أكبر -إن أمكننا رؤيتها-، وأعني ما يقتله الآباء في نفوس أفضل أطفالنا.

يتم طبع الأطفال بصفات الخنوثة، وعندما ينمو الطفل ويصبح مخلوقًا يافعًا لا يفسر له أبواه شيئًا عن المبادئ الأخلاقية. ليست فقط عادات ضبط النفْس وإنكار الذات ما يتم تحطيمها، بل حتى على النقيض مما كان يحدث في أسبرطة أو العالم القديم بشكل عام، فإن هذه الصفات تضمر (٥٤). لا يتوقف الأمر على عدم تعود الإنسان على العمل، وكافة متطلبات العمل المنتج من تركيز ذهني والقدرة على تحمل الضغوط والحماس للعمل، والقدرة على إصلاح ما فسد، والتعود على الإرهاق، والسرور بإتمام العمل، بل يتم تعويده أيضًا على الكسل وعدم الاكتراث بأي منتج للعمل.. يتعود على هذا حتى يفسد، ويُبذِّر المال يمينًا ويسارًا ويأخذ كل ما ترغب فيه نفْسه، ولا يفكر إبَّان هذا حتى في طريقة كسبه لهذا المال. يحرم حتى من القدرة على اكتساب الفضيلة الأولى اللازمة لكافة البشر، وهي التعقل، حتى يتيه في عالم يعظون فيه بقيم العدالة السامية -كما لو أنهم يقدرونها حق تقديرها- وخدمة الناس والمحبة. قد ينشأ الشباب بحس أخلاقي ضعيف غير حساس، ولا يمكنه التفريق بين الحياة الصالحة وبين حياته الراهنة، وهذا بالطبع يُرضي قوى الظلام التي تحكم حياتنا. إن حدث هذا سيبدو كل شيء وكأنه على ما

(٥٤) يقصد تربية النشء على قدرة التحمل والجدية بشكل عام، والتي كانت معروفة في أسبرطة التي تُنشِّئ المحاربين.

يرام، وسيتصالح هذا الإنسان حتى الممات مع كل شعور أخلاقي غير محتمل، ولكن ذلك لا يحدث دائمًا، خاصة في الآونة الأخيرة عندما طفحت لا أخلاقية هذه الحياة إلى العلن، ولم تعد مغمورة فقط في القاع. كثيرًا ما تستيقظ المطالب الأخلاقية الحقيقية من سباتها، وهذا يحدث أكثر فأكثر، وعندها تبدأ حرب ضروس ومعاناة حقيقية، ونادرًا ما تنتهي بانتصار المشاعر الأخلاقية. يشعر الإنسان أن حياته شريرة، وأنه عليه أن يغيرها كاملةً، ويحاول فعل ذلك، ولكن أولئك مَن مروا بتلك الحرب ولم يمكنهم تحملها، يهاجموه من كافة الاتجاهات حتى لا يُغيِّر حياته، ويبذلون كافة الوسائل والجهود الممكنة حتى يقنعوه بأن هذا غير ضروري على الإطلاق، وأن ضبط النفْس وإنكار الذات غير ضرورين للإنسان حتى يصبح صالحًا، وأنه من الممكن مع تصالحه مع النهم والبهرجة والبطالة الجسدية وحتى الفسوق أن يظل صالحًا تمامًا. وتنتهي معظم هذه الحروب على نحو مؤسف؛ فإما أن تخضع طبيعة الإنسان المنهكة بضعف لهذا الرأي العام، وتقمع بداخلها صوت الضمير، وتلوي عقلها، حتى يمكنه تبرير ذلك لها، وتواصل هذه الحياة الشهوانية، مع تأكيد الإنسان لنفْسه أنه قد خلَّصها بإيمانه بهذه المسيحية الظاهرية، أو بخدمة العلم أو حتى الفن؛ أو أن يكافح الإنسان ويعاني، ويجن أو يطلق النار على نفْسه. نادرًا ما يفهم إنسان عصرنا هذا -وسط كل هذه الإغواءات- أن ما كان يشكل الحقيقة البديهية منذ آلاف الأعوام وحتى يومنا هذا هو الآتي: كي يمكن للإنسان أن يحيا حياة صالحة عليه قبل كل شيء أن يتوقف عن فعل الشر، وأنه حتى يتمكن من اكتساب أي

فضائل سامية، عليه قبل كل شيء أن يكتسب فضيلة ضبط النفْس، كما ترى الوثنية، أو إنكار الذات كما ترى المسيحية، ويصل إليها بجهوده رويدًا رويدًا.

-٦-

كنتُ أقرأ حالًا خطابات أحد كبار مثقفي الأربعينات؛ المثقف المنفي الكبير: أجاريوف [٥٥]؛ ذلك الخطاب الذي وجهه لصديقه المثقف الموهوب جرتسين[٥٦]. يعرب جرتسين في هذه الخطابات بحماسة عن أفكاره وكفاحه الأسمى، ولا يفشل المرء بالطبع في ملاحظة كيف يتباهى جرتسين أمام صديقه كعادة الشباب. يتحدث عن سعي الإنسان صوب الكمال، والصداقة المقدسة، والحب، وخدمة العِلم، والإنسانية، وما إلى ذلك. ثم يكتب بلهجة عادية جدًّا كيف أنه أحيانًا ما يثير رفيقته التي تعيش معه بـ«العودة إلى المنزل سكيرًا، أو قضاء وقت طويل مع مخلوقات ساقطة، لكن عزيزة» على حد تعبيره! من الواضح كم من الرائع أن هذا الإنسان اللطيف الموهوب المثقف لا يمكنه أن يجد أي تعارض بين كونه إنسانًا متزوِّجًا توشك زوجته على

(٥٥) نيكولاي بلاتونوفيتش أوجاريوف ١٨١٣ - ١٨٧٧: هو ثوري، وفيلسوف، ومؤرخ، وشاعر روسي اشتراكي. عارض مع صديقه جيرتسين القيصرية. واستمرت العلاقة والتعاون بين أوجاريوف وهيرزن، فنشروا عدة دوريات ثورية روسية.

(٥٦) ألكسندر إيفانوفتش جيرتسين ١٨١٢- ١٨٧٠: كان كاتبًا ومفكرًا روسيًّا ذا توجه غربي، عُرف بأب الاشتراكية الروسية، وأحد أهم رواد الشعوبية الزراعية (أساس النارودنيك والحزب الاشتراكي الثوري والترودفيك وحزب الشعب الأمريكي).

الإنجاب (في الخطاب التالي يذكر أن زوجته قد أنجبتْ) وبين عودته للمنزل سكيرًا وخيانته لزوجته. لم يتبادر حتى إلى ذهنه أنه طالما لم يبدأ الحرب على ضعفه مع إدمان الخمر والفسق، فمن المستحيل أن يفكر في الصداقة أو الحب، ويظل أدنى من خدمة أي شخص أو أي شيء. لكن الأمر لم يتوقَّف على عدم مجاهدة نفْسه ضد هذه الرذائل، لكن من الواضح أيضًا أنه يعتبرها لطيفة، لا تعوقه عن الكفاح صوب الكمال، لذا فلم يُخْفِها عن صديقه الذي يريد أن يبدو أمامه في أفضل صورة ممكنة، بل كشفها له على الفور.

حدث هذا منذ خمسين عام. كنت مصاحبًا لهؤلاء الناس. عرفتُ أجاريوف وجرتسين، وآخرين على هؤلاء الشاكلة، ممَّن نشأوا على هذه التقاليد. لاحظت في حياتهم جميعًا غيابًا مذهلًا للاتساق في أفعالهم. بداخلهم رغبة شديدة الإخلاص والقوة للخير، وفسق كامل في شهواتهم الشخصية، والتي بدت لهم غير معوقة إطلاقًا للعيش بصلاح واكتساب الفضائل أو حتى الأعمال العظيمة. لقد وضعوا أرغفة لم يعجنوها في فرن بارد، وصدقوا أنهم سيحصلون على الخبز. وعندما لاحظوا بعدها بمدة طويلة أن ما من خبز قد حصلوا عليه، أي ما من خير أو فضيلة قد نتجت عن حياتهم، رأوا ما حدث على أنه تراجيديا مريعة.

إن تراجيدية هذه الحياة مرعبة حقًّا. إنها التراجيديا التي حدثت وقت جرتسين وأجاريوف وآخرين، وهي تحدث الآن مع آخرين، يعتبرهم الكثيرون الآن كبار مثقفي عصرنا، وهم يحملون نفْس وجهات النظر. يسعى الإنسان صوب الحياة الصالحة، لكن تسلسل الفضائل

والأفعال الواجبة كي يصل إلى هذه الحياة مفقود تمامًا في المجتمع الذي يعيش فيه. وكما حدث منذ خمسين عام ماضية مع أجاريوف وجرتسين، هكذا الأمر أيضًا الآن، فمعظم المعاصرين على قناعة بأن عيش حياة مخنثة ناعمة خرقاء ممتعة، وإرضاء كافة الشهوات.. كل هذا لا يمكنه أن يعوق الإنسان عن الحياة بصلاح. لكن من الواضح جدًّا أنهم لا يحيون حياة صالحة، وأنهم قد استسلموا إلى التشاؤم قائلين: «يا لها من تراجيديا تلك التي يحياها الإنسان». الغريب أيضًا أن هؤلاء الناس يعرفون جيدًا أن توزيع الملذات بين الناس غير متساوٍ، ويعتبرون عدم المساواة هذه شرًّا عظيمًا، ويودون أن يصححوا هذا الوضع دون أن يتوقفوا عن السعي نحو ملذاتهم الشخصية، والتي تقتضي بالضرورة زيادة عدم المساواة في توزيع الملذات. بفعل ذلك يشبه هؤلاء الناس قومًا دخلوا أولًا إلى بستان، هرعين نحو جمع كل ما تطوله أيديهم من فاكهة، راغبين في الوقت ذاته في تنظيم توزيع للفاكهة أكثر عدالة ومساواة بينهم وبين أنفسهم، وبينهم وبين القادمين من بعدهم، بينما يكملون خطف كل ما تطوله أيديهم من فاكهة!



يكمن الضلال هنا في أن الناس بينما يشبعون شهواتهم ويعتبرون أن هذه الحياة الشهوانية صالحة، يعتقدون أنه بإمكانهم أن يحيوا حياة فاضلة نافعة عادلة محبة! الغريب جدًّا أن الأجيال اللاحقة -كما أعتقد- لن يفهموا مباشرة ماذا يعني جيلنا تحديدًا بتعبير: «حياة صالحة»، عندما

يقولون إن الشره والحياة المخنثة والشبق يقودون صوب الحياة الصالحة! على المرء قطعًا أن يبتعد عن هذه الرؤية التقليدية للحياة ويتأملها، ولا أقول أن يفعل ذلك من وجهة نظر مسيحية، بل حتى من وجهة نظر وثنية، بل حتى من وجهة نظر أقل من متطلبات العدالة، ووقتها سيقنع بلا شك أن ما من حديث هنا عن أي حياة صالحة.

على كل إنسان في عالمنا هذا كي يتحرك فقط قليلًا صوب الحياة الصاحة -لا كي يبدأ حقًّا في العيش بمقتضاها-، عليه قبل كل شيء أن يتوقَّف عن حياته الشريرة.. عليه أن يحطم كافة مقتضيات الحياة الشريرة التي يحيا فيها.

ما أكثر ما يسمع المرء من الناس من تبريرات؛ حتى لا يغيروا حياتهم الشريرة! فأي فعل مناقض لنمط الحياة السائد يصبح بالنسبة لهم غير طبيعي، يدعو للسخرية، أو حتى مقصود به التباهي والفخر، ولذلك يصبح فعلًا شريرًا! يبدو هذا الجدال كما لو أنه قد صُنع خصيصًا حتى لا يقوم الناس أبدًا بتغيير حياتهم الشريرة. إن كانت حياتنا بأكملها صالحة وعادلة، فوقتها فقط يكون أي فعل متوافق مع نمط الحياة السائد فعلًا صالحًا. وإن كانت الحياة نصفها صالحًا ونصفها شريرًا، فأي فعل وقتها لا يتوافق مع نمط الحياة السائد يمكن أن يكون صالحًا أو شريرًا. أما إن كانت الحياة بأكملها شريرة وغير عادلة، فلا يمكن لإنسان يحيا داخل هذا المجتمع أن يفعل فعلًا صالحًا واحدًا دون أن يخرق نمط الحياة السائد. من الممكن أن يقوم بفعل الشر دون أن يزعج مجتمعه، لكن يستحيل أن يقوم بفعل خيِّر واحد دون أن يزعج هذا النمط.

من المستحيل على أي إنسان يحيا في مجتمعنا الآن أن يحيا حياةٍ صالحة دون أن يهجر الظروف التي يفعل بداخلها الشر، ومن المستحيل أن يحيا حياة صالحة دون أن يتوقف عن فعل الشر. لا يمكن لإنسان يحيا في ترف أن يحيا حياة صالحة. ستصبح كل محاولاته عقيمة طالما لم يُغيِّر حياته، طالما لم يَخْطُ أول خطوة عليه أن يقوم بها. الحياة الصالحة طبقًا للمفهوم الوثني للحياة، وأكثر في المفهوم المسيحي، يمكن قياسها بشكل واحد فقط لا غير، بالعلاقة الرياضية بين حب الإنسان لذاته وحبه للآخرين. كلما يقلُّ حب المرء لذاته ويقل تبعًا لذلك اهتمامه بنفْسه وتقلُّ منفعته التي يجنيها من كدح الآخرين، وكلما يزداد حبه للآخرين وعنايته بهم كذلك وعمله من أجلهم، كلما تصبح الحياة أكثر صلاحًا.

هكذا رأى كافة حكماء العالم -ولا يزالون- الحياة الصالحة، وأيضًا كافة المسيحيين الحقيقيين، وهكذا يفهم الحياة أيضًا أكثر الناس بساطة في العالم. كلما يمنح الإنسان الآخرين أكثر وتقل متطلباته الشخصية، كلما يصير إنسانًا أفضل. وكلما يمنح الآخرين أقل وتزداد متطلباته، يصبح أسوأ أكثر فأكثر. لا يقتصر الأمر على ذلك فقط، ولكن كلما تقل محبة الإنسان لنفْسه، تزداد سهولة تحوله للأفضل. والعكس صحيح. كلما تزداد محبة الإنسان لنفْسه، ينتج عن ذلك بالضرورة زيادة مطالبة الآخرين بالعمل من أجله، وتقل هنا احتمالية أن يحب الآخرين ويعمل من أجلهم، ولا توازي القلة هنا الزيادة في محبته لنفْسه، بل بدرجة أكبر. إن حركنا نقطة ارتكاز الوزن من النهاية الطويلة صوب القصيرة، فلن ينتج عن ذلك فقط زيادة الطول في النهاية الطويلة، لكن أيضًا زيادة

القصر في الناحية الأخرى. هكذا الأمر مع الإنسان الذي لديه ملكة الحب، فإن قام بزيادة محبته وعنايته بنفْسه، فينتج عن ذلك بالضرورة قلة محبته وعنايته بالآخرين، ليس فقط بقدر زيادة محبته لنفْسه، بل أكثر كثيرًا. أما إن تناول كمية أكبر من الطعام بدلًا من أن يُطعم الآخرين، فلن يعمل ذلك على تقليل كمية الطعام التي كان سيمنحها للآخرين، بل ستعمل كثرة الكمية التي تناولها على حرمانه من قدرته على مساعدة الآخرين.

لذا فإن أراد الإنسان أن يحب الآخرين حقًّا، فعليه كذلك ألا يحب نفْسه حقًّا. عادة ما يبدو الأمر على هذه الصورة: نعتقد أننا نحب الآخرين، ونؤكد على ذلك لأنفسنا وللآخرين، ولكن هذا الحب يقتصر فقط على الكلام، أما في حقيقة الأمر فنحن نحب أنفسنا. من الممكن أن ننسى إطعام الآخرين وإيواءهم، أما أنفسنا فمستحيل. لذا فكي نحب الآخرين حقيقة علينا أن نتعلم أن ننسى إطعام وإيواء أنفسنا، تمامًا كما ننسى إطعام الآخرين وإيواءهم.

نقول عن المخنثين من البشر «رجل صالح»- «يعيش حياة صالحة».. نطلق تلك الأوصاف على مَن تعودوا الحياة المترفة، أما هذا الإنسان -سواء كان رجلًا أو امرأةً- فمن الممكن أن تكون لديه ألطف السمات الشخصية والجمال والوداعة، لكن لا يمكن لهذه الشخصية أن تحيا حياة صالحة، كما لا يمكن لسكِّينٍ لم يُشحذ جيدًا أن يكون قاطعًا وحادًّا. أن تكون صالحًا وتحيا حياة صالحة، فهذا يعني أن تمنح الآخرين أكثر مما تأخذه منهم. أما هذا المخنث الذي اعتاد حياة الترف،

فلا يمكنه أن يقوم بذلك؛ أولًا- بسبب أنه دائمًا ما يحتاج الكثير جدًّا ليس بدافع من أنانيته فقط، بل لأنه تعود على ذلك، وحرمانه مما تعود عليه يسبب له معاناة شديدة. أما السبب الثاني- فيعود إلى أنه بينما يُضعف نفْسه باستهلاك كل ما يحصل عليه من الآخرين، فإنه يحرم نفْسه من فرصة العمل، وبالتالي يحرم نفْسه من فرصة خدمة الآخرين. إن الإنسان المخنث الناعم، الذي ينام طويلًا، السمين، اللطيف، الذي يأكل ويشرب كثيرًا، الذي يرتدي ثيابًا ثقيلة جدًّا حتى تحميه من البرد، ولم يُعوِّد نفْسه على مصاعب العمل، لا يمكنه أن يفعل سوى القليل جدًّا.

لقد أصبحنا شديدي الأُلفة مع كذباتنا، وكذلك كذب الآخرين، فمن الملائم جدًّا ألا ندرك حقيقة كذبهم، حتى لا يدركوا هم أيضًا حقيقة كذباتنا، حتى أننا لا نشعر أبدًا بالدهشة أو حتى نشك حتى في حقيقة فضيلتنا، أو حتى في قداسة بعض ممَّن يعيشون حياة منحلة وسطنا. إن الإنسان الذي ينام على فراش فاخر -سواء كان رجلًا أو امرأةً- بمرتبتين وثيرتين وملاءتين نظيفتين، ومخدتين ناعمتين، وسجادة تحت الفراش حتى لا تتأذى قدماه الناعمة من الأرض الباردة، بغض النظر عن وجود الحذاء على مبعدة خطوات منه، ولديه أيضًا أدوات كثيرة غير ضرورية، حتى لا يضطر إلى الخروج من غرفته أو منزله. الستائر تغطي النوافذ حتى لا يزعجه الضوء بالاستيقاظ مبكرًا، ويستيقظ وقتما يحلو له. بالإضافة لكل ذلك، فقد اتُّخِذَت الإجراءات اللازمة حتى يتحول برد الشتاء إلى دفء، وحر الصيف إلى جو منعش، حتى لا تزعجه العواصف،

ولا يكدر صفوه الذباب والهوام الطائرة. ينام... ينام، وتُجهَّز له مياه الاغتسال دافئة أو باردة -حسب الطلب- وأحيانًا من أجل الاستحمام أو حلاقة الذقن. ثم يعدون من أجله الشاي أو القهوة، والمشروبات الروحية التي يتناولها بعد استيقاظه مباشرة. أما الأحذية عالية الساقين والعادية والرياضية وغيرها والتي قد لطخها في اليوم الماضي، فقد قاموا بتنظيفها وهي تلمع كالمرآة أمام عينه الآن. كذلك قد نظَّفوا ثياب اليوم الماضي، والتي لا تناسب فقط جو الشتاء أو الصيف؛ بل أيضًا ثمة ثياب للربيع وأخرى للخريف، للأجواء المطيرة والجافة والحارة. ها هي الثياب قد أصبحت نظيفة، معطرة، مكوية، محلاة بأزرَّة وشرائط الزينة بعد أن فحصوها جيدًا وأتوا بها لِمَن هم على شاكلة أولئك البشر. إن كان هذا الإنسان مشغولًا، فسيستيقظ مبكرًا، نحو السابعة صباحًا مثلًا، أي بعد ساعتين أو ثلاثٍ من استيقاظ أولئك مَن يعدون كافة تلك التجهيزات من أجله. بالإضافة لتجهيز الثياب التي يخرج بها في النهار، والتي يرتديها عند النوم في المنزل، ثمة ثياب وأحذية أخرى من أجل الخروج، وهو يغتسل ويستخدم أنواع مختلفة من الفرش في اغتساله، ويستهلك كمية كبيرة من المياه والصابون في ذلك. يفتخر كثير من الإنجليز -رجالًا ونساءً- بأنهم يستهلكون كميات عظيمة من الصابون، ويصبون على أجسادهم كمية أكبر من المياه. ثم يرتدي هذا الإنسان ثيابه ويقوم بتسريح شَعره أمام مرآة خاصة تختلف عن تلك المرايا المعلقة في أغلب غرف منزله، ويتناول أشياءه الضرورية مثل النظارة الأنفية ونظارة الأوبرا، ثم يملأ جيوبه المختلفة بالمناديل النظيفة

التي سينفخ فبها أنفه، وساعته الفاخرة، بغض النظر عن وجود الساعات معلقة في كل مكان سيذهب إليه، ويملأ جيوبه أيضًا بنقود من أنواع مختلفة؛ عملات ورقية وفكة صغيرة؛ حتى لا يضطر إلى عناء البحث عن النقود المناسبة التي يجب عليه أن يمنحها في مواقف معينة، ويعبِّئُ جيوبه أيضًا بالكروت المكتوب عليها اسمه، حتى لا يضطر إلى عناء قول أو كتابة اسمه، وأيضًا مذكرة بيضاء وقلم رصاص. أما بالنسبة للنساء فالأمر أكثر تعقيدًا، فثمة مشدات للخصر وتسريحات مختلفة وشَعر طويل وحُلِي وزخارف وأقراط وأوشحة ودبابيس وبروشات.

ولكنهم ينتهون من كل ذلك، ويبدأون يومهم بالطعام المألوف، ويحتسون القهوة أو الشاي المعد لهم، مُحلّى بكمية كبيرة من السُّكَّر، ويتناولون خبزًا من الدرجة الأولى مطحونًا بكمية كبيرة من السمن، وأحيانًا بلحم الخنزير. وفي أثناء ذلك يدخن الرجال السجائر أو السيجار، ثم يقرأون الصحف الجديدة التي أتى بها للتو خدمهم. ثم يخرجون صوب أعمالهم أو مكاتبهم، ويستقلون المركبات المعدة خصيصًا لهؤلاء البشر. بعد أن انتهى الإفطار المعد من حيوانات وطيور وأسماك مقتولة، يأتي دور الغذاء، وهو متواضع للغاية، مكون هو الآخر من اللحوم أيضًا، ويأتي في ثلاثة أطباق فقط، ثم الحلو، ومن بعده القهوة، وبعدها يأتي وقت لعب الورق والموسيقى، أو المسرح أو القراءة، أو الحوار من على مقاعد وثيرة في ضوء الشموع المكثف، ثم مزيد من الشاي والطعام، ثم يأتي وقت العشاء، يليه الذهاب مجددًا إلى الفراش الرقيق بأغطيته وملاءاته النظيفة.

هكذا يمر يوم إنسان متواضع من على هذه الشاكلة، ممن يُقال عنه -إن كانت لديه شخصية لطيفة، ولا يعكر صفو تقاليد الآخرين بأية طريقة- إنه يحيا حياة صالحة.

ولكن الحياة الصالحة هي حياة مَن يفعل الخير للآخرين، وكيف يفعل الخير للآخرين مَن يحيا على هذا النمط؟ فقبل أن يفعل الخير عليه أن يتوقف أولًا عن فعل الشر للآخرين. حطِّم فقط كافة تلك الشرور التي يفعلها بالآخرين وهو حتى لا يلاحظها، وسترى كم أنه بعيد جدًّا عن خير الناس، وسيتوجب عليه أن يفعل الكثير جدًّا حتى يُكفِّر عن شروره، ولكن حياته الشهوانية قد أضعفته، ولن يكون بإمكانه أن يفعل شيئًا واحدًا. من الممكن أن ينام على الأرض متدثرًا بعباءته شاعرًا بأنه قد أرضى ضميره الأخلاقي كما فعل ماركوس أوريليوس[٥٧]، وبذلك يوفر كل العمل والجهد اللازمين لصنع الأَسرَّة والزنبرك والوسائد والعمل اليومي الضائع في الغسيل الذي تقوم به النساء، وهو عمل شاق بدنيًّا عليهن بحكم طبيعة جنسهن ورعايتهن للأطفال، وتقوم النساء بغسل ثياب الرجال الأقوياء... كان بإمكاننا أن نلغي ضرورة هذه الأعمال نهائيًّا. كان من الممكن أن ينام الرجل مبكرًا ويستيقظ مبكرًا.. كذلك العمل الخاص بالستائر وإضاءة الغرف كان من الممكن

(٥٧) ماركوس أوريليوس أنطونينوس أوغسطس: الإمبراطور الروماني السادس عشر، وخامس الأباطرة الأنطونيين لروما. تميز عهده بالحروب في آسيا ضد إعادة الإمبراطورية البارثانية، والقبائل الجرمانية إلى بلاد الغال عبر نهر الدانوب، والتمرد الذي حدث في الشرق بقيادة أفيديوس كاسيوس. كفيلسوف فإن «تأملات ماركوس أوريليوس التي كُتِبت في حملته بين ١٧٠-١٨٠ لا تزال تعتبر أحد الصروح الأدبية في الحكم والإدارة».

ألا نكون بحاجة إليه. من الممكن أن ينام المرء بنفْس القميص الذي سيخرج بها نهارًا.. من الممكن كذلك أن يخطو على الأرض حافيًا صوب باب الغرفة، ومن الممكن أيضًا أن يغتسل عند الصنبور؛ باختصار من الممكن أن يعيش بهذا النمط الذي يعيش به كل مَن يعملون بهذه الأعمال من أجله، وبذلك يمكنه أن يوفر أداء كل تلك الأعمال التي يبذلها العاملون لديه من أجل رفاهيته وطعامه وتسليته، وهو يعلم تمامًا الظروف التي تتم فيها مثل هذه الأعمال، وكيف يعاني العمال في أدائها وتسوء أحوالهم، بل ويشعرون بالكراهية صوب أولئك مَن يستغلون فقرهم للقيام بها.

لسنا في حاجة لنذكر كيف نرى الآخرين من منظورنا، فكل إنسان عليه أن يرى ويشعر بهذا في داخله.

ليس بوسعي سوى أن أكرر هذا مرة تلو الأخرى، بالرغم من البرودة والعداء اللذين تثيرهما كلماتي. إن رجلًا أخلاقيًّا يعيش حياة مترفة حتى وإن كان من الطبقة الوسطى (ولن أتحدث عن الطبقة العليا التي تستهلك يوميًّا عمل مئات الأيام من أجل إرضاء نزواتها) لا يمكنه أن يعيش في صمت، عالـمًا أن كل ما يستهلكه نتاج لحياة العمَّال المسحوقة، الذين يموتون دون أمل، ويعيشون في جهل، سكارى منعزلين، فاسقين... همج يعملون بالمناجم والمصانع والأراضي؛ كي ينتجوا كل ما نستهلكه نحن.

في تلك اللحظة التي أكتب فيها هذه الكلمات، فكل منا -أنا وأنت يا مَن تقرأ هذه الكلمات- لديه ما هو صحي ومفيد، وربما ننعم

بالوفرة أيضًا، والطعام الفاخر، والهواء الدافئ كي نتنفسه، وثياب صيفية وشتوية، ووسائل الاستجمام المختلفة، وأهم من ذلك كله لدينا وقت فراغ بالنهار، وراحة لا يمكن لأحد أن يكدر صفوها بالمساء. وفي الناحية المقابلة لنا يعيش العمَّال، الذين ليس لديهم لا طعام فاخر ولا منازل صحية أو ثياب كافية ولا وسائل استجمام، وهم فوق كل ذلك محرومون ليس فقط من التسلية، بل حتى من الراحة... تهلك حياة الجميع في العمل كبارًا وصغارًا ونساءً... يقضون لياليهم دون نوم معانين من الأمراض، هم مَن يمضون حياتهم بأكملها في صنع وسائل راحتنا ورفاهيتنا، والتي ليست لديهم بالطبع.. تلك الأدوات التي تصنع ترف حياتنا غير الضرورية، موجودة لدينا بوفرة.

كيف يمكن إذنْ لمثل هذا الإنسان أن يفعل الخير للناس ويحيا حياة صالحة دون أن يتوقف عن هذه الخنوثة والحياة المترفة؟ لا يمكن لإنسان أخلاقي -ولا أقول مسيحي، بل يتمتع بقليل من الإنسانية، أو حتى يريد فقط الوصول إلى العدالة- ألا يُغيِّر حياته ويتوقف عن استغلال هذا الترف الذي يضر بحياة الآخرين.

إن أشفق الإنسان على العمَّال العاملين بمصانع التبغ، فأول شيء سيقوم به طوعًا هو التوقف عن التدخين؛ لأنه بمواصلة التدخين وشراء التبغ يشجع مصانع التبغ التي تدمر صحة الناس على مواصلة عملها. الأمر ذاته مع كل وسائل الرفاهية الأخرى. إن كان الإنسان قادرًا على مواصلة تناول الخبز بغض النظر عن العمل المضني الذي يقوم به البعض من أجل إنتاجه، فذلك بسبب أن الخبز أمر لا يمكن الاستغناء

عنه حتى تتغير ظروف العمل المضني. ولكن بالنسبة للأشياء التي لا يقتصر الأمر على كونها غير ضرورية، بل أيضًا كثيرة جدًّا، فما من استنتاج آخر سوى الآتي: إن كنت أشعر حقًّا بالشفقة على بعض البشر الذين يعملون في إنتاج سلع معينة، فعليَّ أن أعوّدِ نفْسي على الاستغناء عن هذه السلع نهائيًّا.

أما معاصرونا؛ فيرون الأمر بصورة مختلفة، ويقومون بابتداع كافة الحجج المختلفة والماكرة الممكنة، لكنهم لا يقولون أبدًا ما يبدو بديهيًّا حتى لإنسان بسيط. طبقًا للحجج التي يجرونها، فإن الامتناع عن وسائل الترف والرفاهية غير ضروري. من الممكن أن نشفق على العمَّال ونُلقي الخطب ونكتب المقالات والكتب المختلفة من أجل مصالح هؤلاء البشر، وفي الوقت ذاته نواصل استغلال عملهم الذي نراه ضارًّا بهم!

طبقًا لإحدى الحجج يمكن أن نستفيد من خلف الأعمال الضارة بالعمال؛ لأني إن لم أستفدْ منها، سيستفيد منها آخر. تشبه هذه الحجة مَن يقول إني يجب أن أشرب مشروبًا ضارًّا لصحتي؛ لأني إن لم أشربه سيشربه إنسان آخر.

طبقًا لحجة أخرى فاستغلال عمل هؤلاء البشر من أجل رفاهية المرء أمر مفيد جدًّا لهم، فبذلك نمنحهم المال، الذي يعني إمكانية مواصلة حياتهم، كما لو أنه من المستحيل أن نمنحهم وسيلة أخرى تعينهم على البقاء، كالتوقف مثلًا عن كافة تلك الأعمال المفرطة الضارة بهم من أجل رفاهيتنا. طبقًا لحجة ثالثة شهيرة جدًّا الآن فإنه طالما يوجد الآن تقسيم للعمل، فأي عمل يقوم به الإنسان سواء كان

موظفًا للدولة أو كاهنًا أو صاحب أرض أو صانعًا أو تاجرًا مفيد للغاية، فهو يُعوِّض عمل الطبقة العاملة كاملًا بما يربحه. أحدهم يخدم الدولة، وآخر يخدم الكنيسة، والثالث العِلم، والرابع الفن، والخامس يخدم أولئك مَن يخدمون الدولة والعِلم والفن، وجميعهم على قناعة أن ما يمنحونه للبشر يعوضهم كاملًا عما قد أخذوه منهم. من المدهش جدًّا كيف يمكن لهؤلاء البشر بينما تتزايد متطلبات رفاهيتهم باستمرار دون أن تزداد إنتاجيتهم في شيء أن يكونوا بهذا اليقين من أن إنتاجيتهم تعوض كل ما يستهلكونه.

أينما يستمع المرء لحجج أولئك البشر، يبدو للمرء أنهم بعيدون جدًّا عن استحقاق ما يستهلكونه. يقول موظفو الدولة إن عمل ملاك الأراضي لا يساوي ما ينفقونه، ويقول ملاك الأراضي الشيء ذاته عن التجار، ويقول التجار الشيء ذاته عن موظفي الدولة.. إلخ. ولكن ذلك لا يحبطهم، بل إنهم يواصلون التأكيد على أنهم (وكلٌّ يتحدث عن طائفته فقط) يربحون فقط من عمل الآخرين ما يضاهي ما يقدمونه للبشر من خدمة. لذا فإن الدفع لا يحدده هنا العمل، بل يحدد الدفع قيمة العمل المتخيل. هكذا يؤكد كل منهم للآخر الأمر، لكنهم يعرفون تمامًا في قرارة أنفسهم أن كل تلك الحجج لا يمكنها أن تبرر ما يقومون به، وأنهم غير ضروريين لحياة العمَّال، وأنهم يربحون من خلف عمل الطبقة العاملة وليس من خلف تقسيم العمل، ولكن لأن لديهم ببساطة القوة على مواصلة ذلك، ولأنهم فاسدون جدًّا، فلا يمكنهم التوقف عن ذلك.

في حقيقة الأمر، فإن منبع كل تلك الحجج هو قدرة الناس على تخيل أنه بإمكانهم أن يحيوا حياة صالحة دون اكتساب أول الصفات الواجبة من أجل تلك الحياة.

وأولى هذه السمات هي: ضبط النفْس.

-٨-

لم ولن تكون أبدًا ثَم حياة صالحة دون ضبط للنفْس، فمن دونه لا يمكن حتى تصور الحياة الصالحة. لذا فلا بد أن تبدأ أي محاولة في طريق الحياة الصالحة بضبط النفْس.

ثَم سلم للفضائل، ولا بد من البدء بالدرجة الأولى حتى يمكننا أن نرتقي بقية الدرجات، وأول فضيلة يتوجب على الإنسان أن يتبناها -إن أرد أن يصعد بقية الدرجات- هي ما أطلق عليها القدماء **ἐγκράτεια** أو **σωφροσύνη**، أي الاعتدال والتحكُّم في الذات.

إن كان ضبط النفْس في التعليم المسيحي مُتضمَنًا في قلب فكرة إنكار الذات، فيبقى تسلسل الفضائل كما هو، ويظل من المستحيل اكتساب أي فضيلة مسيحية دون ضبط النفْس، وذلك ليس بسبب أن أحدهم اخترع الأمر برمته، بل بسبب أن هذه هي حقيقة الأمر.

يمثل ضبط النفْس الدرجة الأولى في سلم أي حياة فاضلة، لكن لا يمكن للإنسان أن يصل إليه فجأة، ولكن بالتدريج.

يعني ضبط النفْس تحرير الإنسان من شهواته، وخضوعها للاعتدال

σωφροσύνη، ولكن شهوات الإنسان متباينة للغاية، لذا فحتى يتمكن الإنسان من الانتصار عليها عليه أن يبدأ بالأساسيات؛ تلك التي تتأسس عليها شهوات أخرى أكثر تعقيدًا، لا بالعكس. ثمة شهوات معقدة مثل: زينة الجسد، الألعاب، التسلية، الثرثرة، الفضول، وشهوات أخرى كثيرة، وشهوات أخرى أساسية مثل: الشراهة، الكسل، الحب الجسدي. في حربنا مع الشهوات لا يمكن للإنسان أن يبدأ من النهاية: أي الحرب مع الشهوات المعقدة، بل عليه أن يبدأ مع الأساسيات في اتجاه واحد محدد، وطبيعة الأمر ذاته هي ما حدد هذا الترتيب الذي أشارت له حكمة القدماء أيضًا.

الإنسان الذي يأكل بشراهة لا يمكنه أن يحارب الكسل، ولن تكون لدى الإنسان الشَّرِه والكسول القوة على محاربة الشهوة الجنسية، لذا فقد أشارت كافة تعاليم الحكماء الرامية إلى ضبط النفْس بالبدء بالحرب ضد شهوة الشراهة، أي بالصوم. في عالمنا هذا الذي فَقَدَ تمامًا هذه الفضيلة، وكذلك فقد أي محاولة جادة للعلاقة بالحياة الفاضلة التي يعد ضبط النفْس أولى درجات سلمها الذي من المستحيل ارتقاؤه دونها، اعتبر هذه الفضيلة أمرًا زائدًا لا قيمة له، لذا فَقَدْ فَقَدَ التدرج اللازم لاكتساب هذه الفضيلة، ونسي الجميع الصوم، وقد حسموا الأمر بقولهم إن الصوم ما هو سوى خرافة غبية، وإنه غير لازم البتة.

على أي حال، فضبط النفْس هو الشرط الأول للحياة الصالحة، وأول شروط حياة ضبط النفْس هو الصوم.

من الممكن أن يرغب الإنسان في أن يكون فاضلًا، ويحلم بالفضيلة

دون أن يصوم، ولكن في حقيقة الأمر من المستحيل أن تصبح فاضلًا دون أن تصوم، كما أنه من المستحيل أن تسير دون أن تخطو قدماك.

الصوم شرط أساسي للحياة الفاضلة، كما أن الشراهة كانت دائمًا وستظل العلامة الأولى على الحياة غير الفاضلة، وللأسف فهي السمة الغالبة في معظم معاصرينا الآن.

انظرْ إلى هيئات ووجوه مَن يحيطون بنا اليوم... انظرْ إلى خدودهم، وإلى هذه الشفاه السمينة، والبطون المنتفخة والتي تترك دليلًا لا يمكن محوه على حياة شهوانية. لا يمكن أن يكون الأمر عكس ذلك. أمعنِ النظر في الحياة وفي الدافع الرئيس الذي يحرك معظم الناس، واسألْ نفْسك: ما الهدف الرئيس لدى غالبية هذه الجموع؟ وسيكون غريبًا علينا -نحن مَن تعودنا على إخفاء دوافعنا الحقيقية والتصريح بدوافع أخرى مزيفة- أن نرى أن الدافع الرئيس في حياة الغالبية هو إرضاء المعدة ومتعة الطعام والشراهة. من أفقر شرائح المجتمع إلى أغناها تُشكِّل الشراهة الهدف الرئيس في الحياة كما أعتقد. أما الشعب الفقير العامل فقد يشكل استثناءً فقط بقدر ما يحول نفْسه من عبودية هذه الرغبة الجامحة. ولكن عندما يُتاح له الوقت والوسائل اللازمة، فإنه يحاكي الطبقة العليا، ويحصل على أشهى وألذ المأكولات، وكذلك يترك لنفْسه العنان في الشرب.

كلما يأكل، يزداد شعوره لا بالسعادة فقط، بل بالقوة والصحة أيضًا. وقد حثهم المثقفون على هذه القناعة، فهم مثلهم ينظرون إلى الطعام بنفْس الطريقة. يتخيل أبناء الطبقات الغنية -الذين يتبعون

نصائح الأطباء القائلين لهم إن أغلى أنواع الطعام واللحوم هي أكثر الأطعمة صحية - أن السعادة يمكن أن تأتيهم في الأطعمة اللذيذة المغذية والسهلة الهضم، مع أنهم يحاولون إخفاء هذه القناعة.

انظرْ مليًّا في حياة أولئك البشر، واستمع إلى حواراتهم. ما الموضوعات التي تبدو في أحاديثهم وكأنها شاغلهم الرئيس؟ الفلسفة والعِلم والفن والشِّعر وتوزيع الثروة ورخاء الشعب وتربية النشأة، ولكن كل ذلك في حقيقة الأمر مجرد كذب بالنسبة لغالبيتهم، فذلك يمكن أن يشغلهم بين الحين والآخر.. بين الإفطار والغداء.. حتى تمتلئ البطن تمامًا، ويتعذر تناول المزيد من الطعام. أما الشاغل الرئيس الحقيقي عند الغالبية -رجالًا ونساءً- فهو الطعام، خاصة بعد مرور وقت الشباب. كيف نأكل؟ ماذا سنأكل؟ متى؟ أين؟

ما من مناسبة سعيدة، أو حادث يبعث على الفرحة، أو رسامة دينية، أو افتتاح أي شيء يمكن أن يجري دون تناول طعام.

تأمَّلِ المسافرين. سترى ذلك فيهم بوضوح. «المتاحف.. المكتبات.. البرلمان... يا لها من أمور شيقة! ولكن أين سنتناول الغذاء؟ مَن يُعد طعامًا أشهى؟». انظرْ إلى الناس عندما يذهبون لتناول الغذاء، متأنقين، محملين بالعطور النفاذة، جالسين على مقاعد مزينة بالزهور، يفركون أيديهم في سعادة، ويبتسمون.

إن أمكننا أن ننظر في قاع أرواحهم، فتُرى ما الشيء الذي سنجده محركًا أكبر لهم؟ الشهية المفتوحة على الإفطار والغداء. ما العقاب الأشد قسوة الذي نعاقب به الطفل؟ سيقتصر طعامك على الخبز

والماء. مَن يتقاضى بين العمَّال المقابل الأعلى ماديًا؟ الطهاة. ما أكثر الأمور التي تشغل ربَّات البيوت؟ ما الموضوع الذي تتطرق إليه دومًا أحاديث ربات بيوت الطبقة الوسطى؟ وإن لم يتطرق إليه حديث الطبقة العليا، فلا يعود السبب في ذلك إلى أنهن أكثر ثقافة، تشغلهم أمور أرفع، ولكن لأن لديهن مدبرة منزل أو كبير خدم، ينشغل بدلًا عنهم بذلك ضامنًا لهم الغذاء. ولكن جرِّب أن تحرمهم من تلك الراحة، وسترى ما الذي سيشغلهم حقًّا. كل شيء سينتهي إلى السؤال عن الطعام، وتناول الدجاج البري، وأفضل طرق إعداد القهوة، وإعداد أشهى الفطائر... إلخ. يجتمع الناس في أي مناسبة خاصة مثل: العماد- التأبين- الزفاف- المناسبات المقدسة بالكنيسة- استقبال ضيوف- اجتماعات- احتفالات بأيام تذكارية، مثل موت أو ولادة عالم عظيم أو مفكر أو معلم أخلاقي.. يجتمع الناس وقتها وكأنهم مشغولون بأرفع وأسمى الأمور، لكنهم يتظاهرون بذلك، فهم في الحقيقة يعلمون جميعًا أنه سوف يكون هناك طعام شهي ولذيذ، وهذا هو الأمر الرئيس الذي جمعهم سويًّا في هذه المناسبة. لأجل هذا الهدف، ولعدة أيام متتالية يذبحون الحيوانات، ويأتون بسلال من الطعام من المتاجر ومحلات الطعام، ويأتون بالطهاة ومساعدي الطهاة وخدم الطهي، ويرتدون جميعًا ثيابًا معينة، ومرايل وقبعات نظيفة. أما الطهاة الذين يتقاضون ٥٠٠ روبل أو أكثر في الشهر فيصدرون الأوامر. يقطعون ويعجنون ويغسلون ويعدون ويزينون الطعام. بنفْس الحمية والاهتمام يعمل المشرف على الحفل، فيحسب ويفكر، ويلقي النظر هنا وهناك

ويتابع، كما الفنان. أما الجنائني فيبدأ عمله مع زهوره، وكذلك غاسل الصحون.. جيش من البشر يعمل، كي يبتلع الجمع إنتاج ألف يوم من إنتاج العمَّال، وكل هذا حتى يجتمع البعض ويتحدثوا عن ذكرى عالم أو معلم أخلاقي عظيم، أو حتى يسترجعوا ذكرى صديق راحل، أو حتى يحتفلوا برجل وامرأة يبدآن حياتهم الزوجية.

نجد من الواضح جدًّا في الطبقات الوسطى والدُّنيا أن الأعياد والمآتم وحفلات الزواج جميعها تعني الشَّرَه. هكذا يفهمون الأمر. إلى هذا الحد يمثل الشَّرَه دافع الاجتماع لديهم، حتى أن الكلمة في اليونانية والفرنسية تعني في الوقت ذاته: الزواج- المأدبة. أما في الطبقات العُليا وبين النُّخَب فيستخدمون ما هو أكثر إبداعًا من ذلك حتى يخفوا هذه الحقيقة، ويتظاهروا بأن الطعام يمثل شيئًا ثانويًّا، وأنه يكون موجودًا كنوع من اللياقة فقط، والأمر هنا سهل بالنسبة لهم؛ لأن غالبيتهم متخمون تمامًا، ولا يشعرون أبدًا بالجوع.

يتظاهرون أن الطعام غير ضروري لهم، بل إنه يمثل عبئًا عليهم، ولكن كل ذلك محض كذب. جرِّبْ أن تقدم إليهم بدلًا من الأطباق الفاخرة المنتظرة -لا أقول خبزًا وماءً- بل بعضًا من العصيدة والمكرونة أو ما يشبه ذلك، وانظرْ كم سيثير ذلك من عواصف، وكيف ستصبح الحقيقة واضحة تمامًا، وهي أن الدافع الحقيقي وراء اجتماع هؤلاء الناس ليس ما يدَّعونه قط، بل هو الطعام.

انظرْ إلى ما يتاجر به الناس.. اذهبْ إلى المدينة وانظرْ ماذا يبيعون هناك: ثيابًا وأدوات الطعام.

في الحقيقة هكذا هو الأمر، وهكذا سيظل، وليس بالإمكان أن يكون شيئًا آخر. من الممكن ألا نفكر في الطعام ونُبقي هذه الشهوة تحت السيطرة فقط إن تناول الإنسان طعامه عندما يشعر بالجوع، ولكن إن لم يفعل الإنسان ذلك وتناول الطعام حتى وهو متخم، فلا يمكن أن نُبقي هذه الشهوة تحت السيطرة. إن أحب الإنسان متعة الطعام، وسمح لنفْسه بحب هذه المتعة، ووجد أن هذه المتعة أمر حسن (كما وجدها غالبية الناس في عالمنا هذا على الرغم من تظاهرهم بالعكس)، فوقتها لن تكون ثمة حدود لزيادة شهوته... ما من حدود لا يمكن لشهوته ألا تتجاوزها. ثمة حدود لإشباع الاحتياجات الأساسية، ولكن المتعة ليست لها حدود، إشباع الاحتياجات يلزم له الخبز والعصيدة أو الأرز، بل ويكفيه ذلك، أما زيادة المتعة فما من حدود فيها للنكهات والإعدادات المختلفة.

إن الخبز غذاء ضروري وكافٍ، والدليل على ذلك أن ملايين من البشر الأقوياء والأصحاء العاملين يتناولون الخبز فقط. ولكن طعم الخبز يكون أفضل عندما نضيف إليه بعض النكهات أو التوابل، وأفضل أكثر إن غمسناه في شوربة اللحم. من الأفضل أيضًا أن نضع بعض الخضراوات في هذه الشوربة، وسيكون ألذ كثيرًا إن تناولنا اللحم مع كل ذلك، ولكن بالنسبة للحم يكون من الأفضل ألا نكتفي بسلقه، بل نُحَمِّرُهُ.. إن قمنا بالتحمير بقليل من السمن والدم فستكون النتيجة عظيمة. يلزم طبعًا لذلك بعض الخضراوات والخردل، وتناول بعض الخمر أيضًا، ومن المفضل أن يكون نبيذًا أحمرَ. هذا يكفي، ولكن

من الممكن أيضًا تناول سمكة واحدة، ولنُضفْ إليها بعض الصوص، ونشرب نبيذًا أبيضَ. قد يبدو ذلك كافيًا، وأنه ما من داعٍ لأي طبق آخر حلو أو حادق، ولكن من المهم تناول بعض المحليات بعد ذلك.. فلنقل مثلًا مثلجات بالصيف، وكمبوت بالشتاء أو مربى... إلخ. وها هو الغذاء.. متواضع للغاية.. من الممكن أن تزداد المتعة بالغذاء.. من الممكن أن تزداد جدًّا، وليست ثمة حدود للزيادة، ويمكن أيضًا للمقبِّلات أن تثير الشهية، وبعض الحلويات والخضراوات الطازجة اللذيذة، وأيضًا بعض من الزهور والزينة والموسيقى.

الغريب في الأمر أن الناس الذين سيجتمعون كل يوم على مثل هذه المآدب التي تشبه مآدبة بيلشاصر(٥٨) التي استدعت تحذيرًا خارقًا،

---

(٥٨) يشير تولستوي إلى القصة الواردة بسفر دانيال- إصحاح ٥ عندما أقام الملك بيلشاصر مأدبة عظيمة وشرب فيها الخمر متفاخرًا بما استولى عليه أبوه نبوخذنصر من آواني فضية وذهبية من هيكل أورشليم بعد غزو مملكة يهوذا، وبينما هو يفتخر بما صنعوه في أورشليم من تدمير ظهرت كتابة فجأة على الحائط لم يفهمها وأصابه الرعب الشديد ولم يتمكن أحد من رجاله من تفسيره، فأتوا بدانيال يسألونه عن تفسير الكلام، فأعلن قضاء الله كالآتي: «أَيُّهَا الْمَلِكُ قَدْ وَهَبَ اللهُ الْعَلِيُّ أَبَاكَ نَبُوخَذْ نَصَّرَ مُلْكًا وَعَظَمَةً وَجَلاَلًا وَبَهَاءً. ١٩ وَلِفَرْطِ عَظَمَتِهِ الَّتِي أَنعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِ، كَانَتْ جَمِيعُ الأُمَمِ وَالشُّعُوبِ مِنْ كُلِّ لِسَانٍ تَرْتَعِدُ أَمَامَهُ وَتَفزَعُ، فَكَانَ يَقْتُلُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَسْتَحْيِي مَنْ يَشَاءُ، يَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ وَيَضَعُ مَنْ يَشَاءُ. ٢٠ وَعِنْدَمَا شَمَخَ قَلْبُهُ وَقَسَتْ رُوحُهُ تَعَنُّتًا، عُزِلَ عَنْ عَرْشِ مُلْكِهِ وَجُرِّدَ مِنْ جَلاَلِهِ، ٢١ وَطُرِدَ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ، وَمَاثَلَ عَقْلُهُ الْحَيَوَانَاتِ، وَصَارَ مَأْوَاهُ مَعَ الْحَمِيرِ الْوَحْشِيَّةِ، فَأَطْعَمُوهُ الْعُشْبَ كَالثِّيرَانِ، وَابْتَلَّ جِسْمُهُ بِنَدَى السَّمَاءِ، حَتَّى عَلِمَ أَنَّ اللهَ الْعَلِيَّ هُوَ الْمُتَسَلِّطُ فِي مَمْلَكَةِ النَّاسِ، وَأَنَّهُ يُوَلِّي عَلَيْهَا مَنْ يَشَاءُ. ٢٢ وَأَنْتَ يَا بَيلْشَاصَّرُ ابْنُهُ لَمْ يَتَوَاضَعْ قَلْبُكَ، مَعَ عِلْمِكَ بِكُلِّ هَذَا، ٢٣ بَلْ تَغَطْرَسْتَ عَلَى رَبِّ السَّمَاءِ، فَأَحْضَرُوا أَمَامَكَ آنِيَةَ هَيْكَلِهِ لِتَشْرَبَ بِهَا الْخَمْرَ، أَنْتَ وَنُبَلاَءُ دَوْلَتِكَ وَزَوْجَاتُكَ وَمَحْظِيَّاتُكَ، وَسَبَّحْتَ آلِهَةَ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَالنُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ وَالْخَشَبِ وَالْحَجَرِ الَّتِي لاَ تُبْصِرُ وَلاَ تَسْمَعُ وَلاَ تُدْرِكُ، أَمَّا اللهُ الَّذِي بِيَدِهِ رُوحُكَ وَلَهُ كُلُّ طُرُقِكَ، فَلَمْ تُمَجِّدْهُ. ٢٤ عِنْدَئِذٍ، أَرْسَلَ مِنْ حَضْرَتِهِ هَذِهِ الْيَدَ فَخَطَّتْ هَذِهِ الْكِتَابَةَ. ٢٥ وَهِيَ: مَنَا مَنَا تَقَيْلُ وَفَرْسِينُ٢٦ وَتَفْسِيرُهَا مَنَا: أَحْصَى اللهُ أَيَّامَ مُلْكِكَ وَأَنْهَاهُ. ٢٧ تَقَيْلُ: وُزِنْتَ بِالْمَوَازِينِ فَوُجِدْتَ نَاقِصًا. ٢٨ فَرْسٍ: شُطِرَتْ مَمْلَكَتُكَ وَأُعْطِيَتْ لِمَادِي وَفَارِسَ».

على ثقة كاملة بأنه يمكنهم مع ذلك أن يحيوا حياة أخلاقية صالحة.

-٩-

يُشكِّل الصوم شرطًا رئيسًا للحياة الصالحة، ولكن في الصنوم -كما هو الأمر مع ضبط النفْس- نجد أنفسنا أمام هذا السؤال: بمَ نبدأ الصوم؟ عمَّ نصوم؟ كم مرة نتناول فيها الطعام؟ وماذا نتناول؟ وما الذي نمتنع عن تناوله؟ وكما لا يمكننا أن نعمل دون ترتيب متسلسل، فكذلك لا يمكننا أن نصوم دون أن نعرف بما نبدأ في صومنا، وبما نبدأ في ضبطنا لأنفسنا في الطعام. أتقول «الصوم»؟ وتريد أن تُحلِّل الأمر أيضًا وتتحدث عمَّ نبدأ به في الصوم؟ تبدو هذه الفكرة مثيرة للسخرية للغالبية.

أذكر جيدًا كيف قال ذات مرة لي أحد الوعاظ بكل فخر، مهاجمًا الزهد: «مسيحيتي التي أدين بها ليست مسيحية الأصوام والحرمانات، لكنها مسيحية شرائح اللحم!». المسيحية أو الفضيلة بشكل عام بصحبة شرائح اللحم!

ثمة أمور كثيرة بربرية وغير أخلاقية شقت طريقها إلى حياتنا، خاصة فيما يتعلق بتلك المرحلة الدنيا للدرجة الأولى على سلم الفضيلة... أمور من قبيل علاقتنا بالطعام، وهي التي لا يوليها الانتباه إلا قليل منا، حتى أنه أصبح من الصعب جدًّا علينا أن نفهم وقاحة وجنون التأكيد في زماننا هذا على اقتران المسيحية والفضيلة بشرائح اللحم!

لذا فنحن لا نشعر بالهلع أمام هذه التأكيدات، وكأن ما يحدث أمامنا

أمر غير مألوف. نحن ننظر ولا نرى، نسمع ولا ننصت.. ما من رائحة نتنة لم يشتمها الإنسان، وما من صوت لم يسمعه، وما من تشوهات لم يرها من قبل، ولم يدرك حتى كم هو أمر غريب بالنسبة للإنسان الذي لم يتعود على ذلك. الأمر ذاته في مجال الأخلاق.. المسيحية والأخلاق مع شرائح اللحم!

ذهبت مؤخرًا إلى السلخانة بمدينة تويلا [٥٩]. لقد بنوا سلخانة جديدة، مجهزة بكافة الأدوات حتى أنها تبدو كمثيلتها بالمدن الكبيرة، حتى يمكنها أن تقلل قدر الإمكان من معاناة الحيوانات عند الذبح. حدث ذلك يوم الجمعة قبل يومين من يوم الأحد الذي يوافق عيد الثالوث الأقدس. كان المكان مكتظًا بالماشية.

قبل ذلك أيضًا بمدة طويلة، وأثناء قراءتي للكتاب الرائع (أخلاقيات النظام الغذائي)[٦٠]، شعرت بالرغبة في زيارة المجزر حتى أرى بعيني حقيقة الأمر الذي يدور عنه الحديث حينما تحدث الكتاب عن النظام النباتي [٦١]. ولكن كان الأمر مثيرًا للخزي، كما يثير الخزي دائمًا أن ترقب صامتًا المعاناة المقرر لها أن تحدث ولا يمكنك تجنب النظر إليها، وقد تمعنت في كل ما يحدث.

ولكن منذ وقت ليس ببعيد التقيت في طريقي بأحد الجزَّارين كان في طريقه إلى تويلا عائدًا من منزله. إنه أيضًا جزار غير بارع، تنحصر

(٥٩) مدينة روسية.

(٦٠) Ethics of Diet.

(٦١) الامتناع عن تناول اللحوم.

مهمته في الطعن بالسكين. سألته إن كان يشعر بالشفقة على الحيوانات عندما يقوم بقتلها؟ وكما يجيبون دائمًا أجابني: «علامَ أُشفق؟ إنه أمر ضروري». ولكن عندما قلت له إن تناول اللحوم ليس ضروريًّا، وافق على ذلك، وحينها أقر بأنه يشعر بالشفقة. «وما العمل؟ لا بد أن أكسب قوتي... في البداية كنت أخشى قتل الحيوانات. لم يقتل أبي في حياته شيئًا، ولا حتى دجاجة صغيرة». إن معظم الروس لا يمكنهم القتل، ويشعرون بالشفقة ويعبرون عن هذا الشعور بكلمة: «أخشى». هو أيضًا كان يخشى ذلك، لكنه فسد. لقد وضَّح لي أن الجزء الأكبر من العمل يتم يوم الجمعة ويستمر حتى المساء.

منذ وقت ليس ببعيد أيضًا تحدثت مع أحد الجنود، والذي كان جزارًا في الأصل، وتعجب هو الآخر من تأكيدي على الشعور بالشفقة من القتل، وكالعادة أخبرني أن هذا أمر محتوم لا يمكننا الفكاك منه، لكنه بعد ذلك وافقني قائلًا: «خاصة عندما تكون الماشية هادئة وديعة.. تسير في هدوء، وتثق بك... يا له من أمر مثير للشفقة».

ذات مرة سرتُ مغادرًا موسكو، وفي الطريق عرض عليَّ سائقو إحدى المركبات أن يقلوني في طريقهم من سوربوخوف صوب الغابة حتى يقوموا بجمع بعض الخشب. كان خميسًا صافيًا. ركبتُ في العربة الأولى بجانب السائق، وكان قويًّا جميلًا متورد البشرة، خشنًا بعض الشيء، ومن الواضح أنه كان مخمورًا. وبينما نسير في إحدى الطرقات شاهدنا بعضهم يسحبون من أحد الأبواب البعيدة خنزيرًا أحمرَ سمينًا ويذبحونه. كان يصرخ في ذعر بصوت يائس يشبه صوت البشر. وفي

اللحظة التي كنا نمر فيها بجانبهم تمامًا بدأوا في ذبحه. شق أحدهم عنقه بالسكين، فصرخ بصوت أعلى وهرب من الرجل مضرجًا بالدماء. لديَّ قصر بالنظر ولم أرَ ما حدث بدقة، ولكني شاهدتُ فقط جسد الخنزير الوردي الذي يشبه جسد البشر، وسمعت صرخة يائسة، ولكن السائق بجانبي شاهد بوضوح كل ما حدث، ولم يبعد نظره عن الأحداث. قبضوا بعدها على الخنزير، وطرحوه أرضًا، وأكملوا ذبحه. عندما خفتت صرخاته حتى انتهت، تنهد السائق بعمق قائلًا: «ألن يجيبوا عن هذا أبدًا؟».

يشعر الإنسان بتقزز شديد من أي عملية قتل، ولكن تشجيع الشراهة والجشع لدى الناس والتأكيد على أن الله قد حلَّل هذا، بالإضافة إلى العرف العام.. كل هذا يقود الناس إلى محاولة إقناع أنفسهم بأنه شعور طبيعي.

يوم الجمعة ذهبتُ إلى تويلا، وبعد أن التقيت أحد أقربائي، وهو شخص لطيف وطيب، دعوته كي يصطحبني.

- نعم... سمعت أنهم يعدّون الأمر هناك بصورة جيدة، وودت لو أرى وأراقب ذلك عن كثب، ولكن إن كانوا يذبحون فلن أدخل لأرى شيئًا.

- لمَ لا؟ لهذا السبب بالذات أود أن أرى الأمر. إن تناولت اللحم، فيتوجب عليك أن تذبح.

- لا.. لا.. لا أستطيع ذلك.

المثير للتعجب حيال ذلك الرجل أنه صياد.. يقوم باصطياد الطيور والوحوش.

اقتربنا من السلخانة، وعندها تناهت إلى أنوفنا رائحة عفنة مقززة قوية.. رائحة تشبه الغراء أو الدهان. وكلما نقترب كلما تزداد قوة هذه الرائحة. لون المبنى أحمر، مؤسس بالطوب، ضخم، تزينه قناطر كبيرة، وبه مداخن شاهقة. دخلنا من البوابة. على اليمين أرض كبيرة مُسيَّجة على مساحة ما يقرب من ربع ديسياتين (٦٢). إلى هذه الساحة يأتون في يومين من كل أسبوع بالماشية المباعة، وفي طرف هذا الفناء مقر الحارس. على اليسار كانت الحجرات المختلفة بأبواب بيضاوية وأرضيات قاتمة كئيبة، وأدوات خاصة مُجهَّزة لتعليق أجساد الحيوانات بعد قتلها. أمام حائط مقر الحارس على اليمين جلس على إحدى الأرائك ستة جزارين يرتدون مرايلهم الخاصة ملطخة بالدماء، وتكشف عن سواعدهم القوية الملطخة هي الأخرى بالدماء. كانوا قد أنهوا عملهم منذ حوالي نصف ساعة، لذا فلم نرَ في هذا اليوم سوى غرف فارغة. وبالرغم من أن المكان كان مفتوحًا من الناحيتين، إلَّا أن رائحة الدم الطازج كانت ثقيلة جدًّا. كانت الأرض بنية نظيفة، مع بعض لطخات الدم المتجلطة في الفجوات هنا وهناك.

حكى لنا أحد الجزارين كيف يقومون بقتل الحيوانات، وأرانا البقعة التي يتم فيها ذلك. لم أفهمه تمامًا، وكوَّنت في ذهني فكرة خاطئة، لكنها مرعبة للغاية عن الطريقة التي يقتلون بها الحيوانات، وأخذت أفكر كم

---

(٦٢) وحدة قياس روسية قديمة، تساوي ما يقرب من ١,٠٩ هكتار.

يحدث هذا مرارًا وتكرارًا معتقدًا أن الواقع سيكون أثره عليَّ أقل من الصورة التي تخيلتها. لكني كنت مخطئًا في هذا.

في المرة التالية وصلتُ إلى السلخانة في الموعد. كان ذلك يوم الجمعة السابق لعيد الثالوث. كأن أحد أيام شهر يونيو الحارة. رائحة الغراء والدم كانت أقوى من المرة السابقة. كان العمل على أَوْجِهِ، والفناء مغطى كاملًا بالماشية.

أمام المدخل في الشارع كانت ثمة عربات مربوط بها ثيران وعجول وبقر. وثمة عربات أخرى تجرها جياد قوية مكتظة بالعجول الحية التي تتأرجح رؤوسها هنا وهناك. ثم أفرغوا العربات من حمولتها من العجول، وعربات أخرى يحملونها بجثث الثيران والسيقان المتدلية، والرؤوس، والرئات الحمراء، والأكباد بنية... يخرجون بها جميعًا من السلخانة. وعند السياج وقفت جياد تاجر الماشية. دخل السلخانة بعض التجار بمعاطفهم الطويلة، وسياطهم في أيديهم، والبعض الآخر كانوا يشرفون على تعليم ماشية كل تاجر بالقطران لتمييزها، والبعض الآخر كان منهمكًا في المساومة، والبعض يسوق الماشية إلى الداخل صوب الحجرات المختلفة.

من الواضح جدًّا أن كل هؤلاء الناس كانوا مشغولين بالمعاملات المالية والحساب، أما التفكير فيما إن كان من الصواب ذبح هذه الحيوانات أو لا، فقد كان بعيدًا عن أذهانهم تمامًا، بالضبط كالتفكير في التركيب الكيميائي لقطرات الدم التي تلطخ المكان!

لم نشهد أحدًا من الجزارين في الساحة، فقد كانوا جميعهم في

الغرف منهمكين في عملهم. في ذلك اليوم ذبحوا ما يقرب من مائة ثور. دخلت إلى الغرفة ووقفت عند الباب. توقفت عند الباب؛ لأن الغرفة كانت مليئة بجثث الحيوانات التي كانوا يبعدونها، وأيضًا لأن الدم كان ينهال على أرضية الغرفة، كما يسقط من أعلى، وكان كافة الجزارين الموجودين بالمكان ملطخين كاملًا بالدم، فإن دخلت إلى قلب الغرفة فسأتلطخ بالدم لا محالة. كانوا يُنزلون إحدى الجثث المعلقة على خطاف، وأخرى ينقلونها صوب الباب، وجثة ثور ثالث معلقة بأرجلها البيضاء، يعمل فيها الجزار سكينه حتى يزيل منها الجلد.

ومن ناحية الباب المقابل الذي كنت أقف عنده، أدخلوا في ذلك الوقت ثورًا أحمرَ صغيرًا سمينًا. كان اثنان يجرانه، ولم ينجحا في إدخاله، فأخرج أحد الجزارين خنجره وضربه به في عنقه، فسقط على بطنه كما لو أن سيقانه الأربعة قد تداعت فجأة، وقلبه الجزار سريعًا على جانبه، وأخذ يعمل على إزالة السيقان والأجزاء الخلفية من الذبيحة، وسرعان ما استند أحد الجزارين على جانب الثور المقابل، وأمسكه من قرنيه، وطرح وجهه على الأرض، وقام جزار آخر بذبحه من عند العنق، وتدفق الدم من تحت الرأس بلون أحمر قاتم يميل إلى السواد، وسرعان ما هرع أحد الصبية الملطخين بالدم بوضع إناء صغير تحت الرأس حتى يسقط الدم المتدفق بداخله. وطوال ذلك الوقت لم يكفّ الثور الصغير عن الارتعاش كما لو أنه يحاول أن يقوم ثانية، ضاربًا بسيقانه الأربعة في الهواء. امتلأ الإناء سريعًا بالدماء، والثور ما زال حيًّا، تهتز بطنه بصعوبة ضاربًا بأرجله بقوة، حتى أن الجزارين ابتعدوا عنه حتى لا يصيبهم

الأذى. وعندما امتلأ الإناء عن آخره حمله الصبي على رأسه متوجهًا به صوب المصنع، ووضع صبي آخر إناءً آخر أخذ في الامتلاء بالدم أيضًا. ظل الثور يحرك جسده وسيقانه بصعوبة طوال هذا الوقت. عندما توقف الدم عن التدفق أمسك أحد الجزارين بالرأس وأخذ ينزع عنها الجلد، وأخذ الثور يواصل الارتجاف. تعرت الرأس من الجلد وصارت حمراء بأوردة بيضاء، واستمر الجزار في عمله. لم يتوقف الثور أثناء كل ذلك عن الارتجاف، ثم أمسك جزار آخر بالثور من قدميه، ورفعه معلقًا إياه على خطاف. ظلت بطن الثور وسيقانه الأخرى الحرة تدب فيها الحركة. ثم قاموا بقطع الأرجل الباقية ورموا بها في المكان الذي يلقون فيه أرجل الذبائح الأخرى التي تنتمي لنفْس الشخص. وانتهى الأمر بعد أن رفعوا الذبيحة على الخطاف.

شاهدتُ الأمر من مكاني عند الباب يحدث مع الثور الثاني فالثالث فالرابع. كان الأمر معهم جميعًا على هذا المنوال؛ نفس السكاكين عند العنق، والأعضاء المرتجفة. الفارق الوحيد كان يكمن في أن المعارك لم تكن تحدث جميعها في نفْس البقعة التي شاهدت فيها الثور الأول. أحيانًا ما كان الجزار يخطئ هدفه ويقفز الثور الصغير من مكانه صارخًا في دمائه متملصًا من قبضاتهم، ووقتها كانوا يقبضون عليه ثانيًا ويثبتونه تحت عارضة خشبيه ويضربونه بالسكين مرة أخرى، فيسقط في النهاية. بعدها دخلت من الباب الذي يُدخلون منه الثيران. من هناك شاهدت الأمر بصورة أوضح وأقرب. شاهدت أيضًا الأمر الرئيسي الذي لم أره في البداية؛ كيف يجبرون الثيران على الدخول من الباب. في كل مرة

كانوا يربطون الثور بحبل من قرنيه ويجرونه من الفناء صوب الغرفة، فما إن يشم الثور رائحة الدماء حتى يحاول التراجع صارخًا رافضًا التقدم، حتى أن تقدمه صوب الغرفة يصبح في بعض الأحيان مستحيلًا على فردين، لذا فمن وقت لآخر يأتي إليهم أحد الجزارين ويمسك بالثور من ذيله ويسحبه بقوة شديدة حتى يقرقع الغضروف وتنهار مقاومة الثور.

عندما انتهوا من ذبح ماشية أحد التجار بدأوا مع ماشية تاجر آخر. أول ماشية هذا التاجر الآخر لم يكن ثورًا مخصيًّا[٦٣] بل ثورًا عاديًّا. ثور أصيل جميل أسود تظلل ساقيه وشمتان بلون أبيض. كان أيضًا ثورًا قويًّا شابًّا شديد النشاط. حاولوا جرَّه للداخل لكنه أخفض رأسه وقاوم باستماتة، فقام أحد الجزارين الواقفين من خلفه بإمساك ذيله من الخلف كسائق العربة عندما يمسك بالبوق، وقام بعقده وشدِّه بقوة منه فتداعى الغضروف، واندفع الثور للأمام مسقطًا مَن كانوا يمسكونه بالحبل، وتوقف مرة أخرى ناظرًا نظرات جانبية بعينيه السوداوين اللتين تحول بياضهما إلى اللون الأحمر القاني كالدم. ولكن سرعان ما قرقع الذيل مجددًا، واندفع الثور مرة أخرى إلى الأمام حتى وصل إلى البقعة المنشودة. اقترب منه الرجل ذو السكين وصوب جيدًا ووجَّه ضربته، لكنها لم تصب المكان المنشود، فارتج الثور ورفع رأسه، وعلا خواره وهو مغطى بالدماء متخلصًا من براثنهم وتراجع بعنف. تنحَّى جانبًا كل الواقفين عند الأبواب، ولكن سرعان ما قام الجزارون المحترفون الذين تعودوا على الخطر بالإمساك به مرة أخرى بالحبل، وتكرر ما حدث مع

(٦٣) يستخدم الثور المخصي عند الفلاحين في جر الحمولات والأوزان الثقيلة.

الذيل فعاد الثور مجددًا إلى مكانه بالحجرة، وجروه حتى وصل أسفل العارضة التي لم يتمكن من التملص منها. بحث الرجل الذي يوجه ضربات السكين عن ذلك الموضع عند الرأس الذي ينفرق عنده الشَّعر كالنجم، وبالرغم من الدماء الغزيرة وجد المكان، وسدَّد ضربته، فارتج جسد الحيوان الضخم المليء بالحياة، وتدلت رأسه وساقاه، وقاموا بسلخ الرأس.

دمدم الجزار بينما يسلخ بسكينه جلد الرأس قائلًا:

- لم يسقط هذا الملعون -حتى- في المكان المناسب.

وفي غضون خمس دقائق تحوَّل لون الرأس الأسود إلى الأحمر بعد أن سلخوا الجلد وتحجرت العينان الزجاجتان في مكانهما.. تلك العينان الرائعتان اللتان كانتا تومضان من دقائق قليلة.

بعد ذلك ذهبتُ إلى المكان الذي يذبحون فيه الحيوانات الصغيرة. كانت غرفة كبيرة للغاية، طويلة، ذات أرضية من الأسفلت، وموائد ذات مساند يذبحون عليها الخرفان والعجول. كان العمل هناك قد انتهى بالفعل. ورائحة الدم تعبق في الغرفة الطويلة، ولم يكن هناك سوى جزارين اثنين. أحدهما يمسك بساق إحدى الكباش المذبوحة، يربت عليها براحة يده السمينة في رفق، والآخر شاب صغير تلطخت مريلته بالدماء، يدخن سيجارة. لم يكن هناك أحد آخر في تلك الغرفة الطويلة الكئيبة المعطنة برائحة الدماء. أتى من خلفي مقاتل متقاعد، وفي يده كبش صغير أسود تُظلِّل عنقه علامة بيضاء. وضعه على أحد الموائد كما لو كان يضعه على الفراش. قام الجندي بتحية الجزارين بلهجة مَن

يعرفهما جيدًا، وسألهما متى يتركهما السيد يرحلان. اقترب منه الجزار الشاب ممسكًا بسكينه، وسيجارته في فمه، وسحبه صوب ركن الغرفة وأجابه بصوت خفيض أن السيد يتركهما في الأعياد. في تلك الأثناء رقد الكبش الصغير في مكانه بهدوء، وبدا كالميت سوى أن ذيله كان يتحرك وجسده يرتجف أكثر قليلًا من المعتاد. أمسكه الجندي برفق ورفع رأسه، وتناول بيسراه السكين ذابحًا الكبش الصغير من عند العنق بينما يكمل حديثه في هدوء. ارتجف جسد الكبش وكف الذيل عن حركته. وبينما كان الشاب ينتظر تدفق الدماء، أعاد إشعال سيجارته، وعاد الحوار إلى مجراه دون أن يتوقف.

وماذا عن الدجاج والكتاكيت التي تُذبح كل يوم في آلاف المطابخ، وتسيل الدماء من الأعناق المبتورة بينما يقفزن في هلع في منظر يشي بكوميديا سوداء مرفرفات بأجنحتهن؟

تأمَّلْ معي.. سوف تلتهم سيدة راقية أجساد هذه الحيوانات، وهي على ثقة تامة بأنها تفعل الصواب، بينما تجد نفْسها في موقفين متناقضين:

الموقف الأول- يتمثل في ثقتها التامة في طبيبها الذي يؤكد لها أنها لا يمكنها أن تقتصر على تناول الطعام النباتي؛ فجسدها ضعيف وفي حاجة إلى تناول اللحوم. والموقف الثاني- يتمثل في أنها حساسة للغاية، حتى أنها لا يمكنها أن تتسبب في معاناة الحيوانات بنفْسها، ولا يمكنها حتى أن تنظر إلى هذه المعاناة بعينها. بينما جسد هذه السيدة ضعيف بسبب أنها تتناول طعامًا غير طبيعي للإنسان، وفي الوقت ذاته لا

يمكنها أن توقف معاناة الحيوانات لأنها تلتهمهم.

-١٠-

من المستحيل التظاهر بأننا لا نعلم شيئًا عن هذا. لسنا نعامًا، ولا يمكننا أن نصدق أن ما سنرفض رؤيته لن يحدث! الأكثر استحالة من ذلك أننا لا نريد أن نرى ما نود أن نأكله، خاصة إن لم يكن هذا ضروريًّا. ولكن إن لم يكن تناول اللحوم ضروريًّا، فما الفائدة منه إذنْ؟ ولا أي شيء [٦٤]... إنه ضروري فقط كي نربي بداخلنا المشاعر الوحشية، ونأجج الشهوة والفسق والسُّكْر. ويؤكد ذلك أيضًا حقيقة أن الطيبين من الناس والشباب وغير الفاسدين خاصة النساء والأطفال يشعرون دومًا -دون معرفة سبب ذلك- أن الفضيلة لا يمكن أن تتواءم مع شريحة اللحم، وأنه إن أردت أن تكون فاضلًا فعليك الامتناع عن تناول اللحوم.

ما الذي تريد قوله من كل ذلك؟ أتريد القول إنه لو أراد إنسان أن يكون أخلاقيًّا، فعليه الامتناع عن تناول اللحوم؟! بالطبع لا أريد قول ذلك.

---

(٦٤) أما مَن يشككون في عدم فائدة تناول اللحوم للجسد البشري، فعليهم الرجوع إلى الكثير جدًّا من الكتب والمؤلفات التي كتبها علماء وأطباء عن هذا الموضوع مثل كتاب د. هيج: النظام والغذاء: **diet and food** أو حتى عمله الأكبر: اليوريك أسيد أحد أسباب الأمراض **Uric Acid as a factor in the causation of disease**، والذي يثبت فيه أن تناول اللحوم غير ضروري لجسد الإنسان. عليهم ألا يستمعوا إلى أولئك الأطباء الذين يتمسكون بتعاليم قديمة، ويقولون إن تناول اللحوم ضروري؛ لأن أسلافهم أكدوا على ذلك، ويدافعون عن رأيهم بعناد وغل كما يفعل دومًا كل من يتمسك بالتقاليد. (تولستوي).

أود فقط أن أقول إنه لو أردنا حياة صالحة، فلا بد من اكتساب نظام معين من الفضائل الأخلاقية، وأن السعي الجاد للحياة الصالحة من جانب الإنسان لا يمكن أن يحدث بمعزل عن نظام معين، وأن أول فضيلة في هذا النظام يتوجب على الإنسان العمل على اكتسابها هي: ضبط النفْس. وعندما يسعى الإنسان نحو ضبط النفْس، فثمة نظام محدد أيضًا عليه أن يسير بداخله، وأول خطوة فيه هي ضبط النفْس بالنسبة للطعام؛ أي الصوم. وإن أراد الإنسان من خلال الصوم أن يسعى نحو الحياة الفاضلة بإخلاص، فأول شيء سيضبط نفْسه بخصوصه، هو تناول اللحوم، والسبب في ذلك -بعيدًا عن الشهوات التي يؤجهها تناول اللحوم- فهو في الأساس يتمثل في أن تناول اللحوم أمر غير أخلاقي بالمعنى المباشر للكلمة، كالذي يتطلبه فعل القتل تمامًا من شعور غير أخلاقي في الإنسان، ويثيره فقط الطمع والرغبة في تناول الطعام اللذيذ.

أما عن السبب في أن الامتناع عن ضبط النفْس والامتناع عن تناول اللحوم يُعد الدرجة الأولى على سلم الحياة أخلاقية، فقد وضَّحه بشكل رائع كتاب The ethics of diet[٦٥] وليس فقط من إنسان واحد، بل من كافة البشرية الممثلين في أشخاص يمثلون القيم الإنسانية على مدار الحياة البشرية الواعية. ولكن طالما أن تناول اللحوم غير شرعي وغير أخلاقي كما هو معروف منذ زمن بعيد للكثيرين، فلمَ لمْ يتعرف الناس حتى هذه اللحظة على هذا القانون؟ إنه سؤال يوجهه إلينا أولئك مَن

---

(٦٥) الكتاب من تأليف هوارد ويليامز Howard Williams، وترجمه تولستوي إلى الروسية، ويتحدث الكتاب عن تاريخ الحركة النباتية.

يخضعون للرأي العام السائد أكثر من صوت العقل. أما الإجابة على هذا السؤال فتتمثل في أن كافة الحركات الأخلاقية للإنسانية والتي تمثل أساس كل الحركات الأخرى، دائمًا ما تتم ببطء، فسمة التطور الحقيقي والذي لا يحدث مصادفة هو ديمومته وتسارع وتيرته تدريجيًّا.

وهكذا الأمر مع الحركة النباتية. لقد تم التعبير عن هذه الحركة في أفكار المؤلفين الذين كتبوا عن هذا الموضوع، وفي حياة البشرية نفْسها التي تنتقل بالتدريج دون وعيٍ من تناول اللحوم إلى الطعام النباتي. وفي العشرة أعوام الأخيرة تصاعدت سرعة هذه الحركة أكثر فأكثر، وفي كل عام يصدر كتاب عن هذا الموضوع، أو نجد مقالًا في صحيفة، ويلتقي الرافضون لتناول اللحوم أكثر فأكثر ببعضهم البعض، ويتزايد في كل عام عدد الفنادق والنزل التي تقدم طعامًا نباتيًّا بالخارج، خاصة في إنجلترا وألمانيا وأمريكا.

لا بد وأن تحمل هذه الحركة سرورًا كبيرًا لأولئك الذين يتمثل معنى حياتهم في السعي لتحقيق ملكوت الله على الأرض؛ لا لأن النباتية في حد ذاتها تعد خطوة مهمة في طريق تحقيق ملكوت الله، فكل الخطوات الحقيقية تعد مهمة وغير مهمة في الوقت ذاته، بل لأنها تثبت أن السعي صوب الحياة الأخلاقية جاد ومخلص، عندما يبدأ بالترتيب الطبيعي ويرتقي الدرجة الأولى.

من المستحيل ألا يشعر المرء بالسرور من ذلك، كما أنه من المستحيل ألا يشعر الناس بالسرور عندما يسعون مدة طويلة للصعود إلى الطابق الأعلى في منزلهم، بعد فشل عدة مرات في ارتقاء الدرجات

المناسبة، حتى يصلوا أخيرًا إلى الدرجة الأولى، ويصبحوا على قناعة كاملة بأنه ما من طريقة أخرى للصعود سوى بارتقاء الدرجة الأولى.

ليف تولستوي

١٨٩١

ما الدِّين، وأين يكمن جوهره؟

-١-

في كافة المجتمعات الإنسانية، وفي فترات معينة من حياة تلك المجتمعات، دائمًا ما حلت بعض الأوقات انحرف فيها الدِّين عن معناه الحقيقي، ثم أخذ هذا الانحراف يزيد أكثر فأكثر، حتى فقد الدِّين معناه الرئيس، وحين تحوَّل إلى صيغ متحجرة أخذ يذبل، ومن ثَم أخذ تأثيره على حياة الناس يضعف أكثر فأكثر.

في هذه الفترات، لا تؤمن الأقلية المثقفة بالدِّين، بل تتظاهر فقط بالإيمان به، معتبرة أن هذا ضروري من أجل إقرار النظام في حياة الجماهير، ولكن الجماهير وبينما تريد الحفاظ على هذه الصيغ القائمة من الدِّين بدافع الاستمرار لا أكثر، لا تسترشد بتعاليمه في حياة أفرادها اليومية؛ بل بالعادات الشعبية، والقوانين التي تسنها الدولة.

هذا ما حدث مرات عديدة في مجتمعات مختلفة، أما ما يحدث الآن في مجتمعنا المسيحي فلم يحدث من قبل. لم يحدث من قبل ألا تكون الأقلية الغنية المسيطرة والأكثر تعليمًا وثقافة، والتي لديها

أكبر الأثر على الجموع، غير مؤمنة فقط بالدِّين القائم، بل أيضًا على قناعة كاملة بأن الدِّين لم يعد لازمًا لعصرنا على الإطلاق، وبدلًا من أن يساعدوا الجموع التي تساورها الشكوك في حقيقة الدِّين القائم على استبداله بتعليم دِيني أكثر منطقية ووضوح من الموجود، أوحوا إليهم بأن الدِّين قد مضى عصره، ولم يعد غير مفيد فحسب، بل أيضًا صار عنصرًا ضارًّا بحياة المجتمع كالزائدة الدودية بجسد الإنسان. الدِّين بالنسبة لهذه الطائفة من الناس ليس أمرًا نعرفه بتجربتنا الداخلية، بل ظاهرة خارجية؛ كالمرض الذي يعتري أجساد بعض البشر، ويمكن التعرف عليه من خلال الأعراض الخارجية.

طبقًا لرأي بعض من هؤلاء الناس، فقد نشأ الدِّين عن روحنة كافة ظواهر الطبيعة (الأرواحية)[٦٦]، وطبقًا لرأي آخرين منهم فقد نشأ عن فكرة إمكانية قيام علاقة بين البشر وأسلافهم الذين رحلوا، وترى طائفة ثالثة منهم أنه قد نشأ عن الخوف من قوى الطبيعة.

يقول أكثر الناس عِلمًا في عصرنا: إن العِلم قد أثبت أن الأشجار والصخور لا يمكن أن تحوز أرواحًا، وأن الموتى لا يشعرون بما يقوم به الأحياء، وأن الظواهر الطبيعية يمكن تفسيرها بأسباب طبيعية، وهذا يعني أن احتياجنا إلى الإيمان بالدِّين قد انهار، وهكذا فقد تلاشت كافة الكوابح التي فرضها الناس على أنفسهم نتيجة لإيمانهم بالدِّين. يرى العلماء أنه قد مر بنا عصر من الجهل، وهو العصر الدِّيني، ولكن ما

---

(٦٦) الأرواحية هي مذهب حيوية المادة، أي الاعتقاد بأن كل شيء له نفْس أو روح، بما في ذلك الحيوانات والنباتات والصخور والجبال والأنهار والنجوم.

زالت تحيا بيننا بعض مظاهره الرجعية. ثم مر بنا العصر الميتافيزيقي، وهو ما نعيشه الآن. أما الآن فنعيش -نحن المثقفين- في عصر العِلم القطعي الذي حل محل الدِّين، وهو يقود البشرية إلى هذه الدرجة السامية من التطور، التي لم يكن بإمكانها أن تصل إليها من قبل أثناء خضوعها للتعاليم الدينية الأسطورية.

في بداية عامنا هذا ١٩٠١، أجرى العالم الفرنسي اللامع بيرتيلو[٦٧] حديثًا[٦٨] أوضح فيه لسامعيه أن عهد الدِّين قد مضى، وأنه على العِلم الآن أن يحل محله. وأنا أقتبس من هذا الحديث؛ لأنه أول ما وقع تحت يديَّ، ولأنه قد أجرى في عاصمة العالم المثقف بكافة علمائها المرموقين، ولكن نفْس الفكرة قد أعلنت في كل مكان باستمرار، بدءًا من المقالات الفلسفية، وحتى الصحف الفكاهية. يقول السيد بيرتيلو في هذا الحديث أن ثَم دافعين كانا يحركان الإنسان في الماضي، وهما القوة والدِّين. الآن لم نعد بحاجة إلى كليهما؛ لأن العِلم حل محلهما. ويقينًا يعني السيد بيرتيلو بالعِلم -مثل كافة مَن يؤمنون بالعِلم- هذا العلم الذي يشمل كافة معارف الإنسان، بشكل مترابط ومتسق، يمنحنا وسائل نتوصل بها إلى معلومات صحيحة صحة مطلقة لا يمكن الشك فيها. ولكن في حقيقة الأمر، فإن مثل هذا العِلم لا وجود له، أما ما يُطلق عليه الآن «العِلم»، فهو يتألف في الأساس من مجموعة اعتباطية من

(٦٧) كيميائي وسياسي فرنسي، يعتبره البعض أحد أعظم الكيميائيين على مدى التاريخ. عُرف باكتشافه مبدأ طومسن- بيرتيلو في الكيمياء الحرارية، كما قام بتخليق العديد من المركبات العضوية من مكونات غير عضوية، وأبطل بذلك نظرية الأصل الحيوي للمركبات العضوية **vitalism**.

(٦٨) **«Revue de Paris», janvier 1901.**

المعارف لا يرتبط بعضها البعض بشيء، وكثير منها بلا فائدة على الإطلاق، ولا يقتصر الأمر على أنها لا تمثل حقيقة لا ريب فيها فحسب، بل إنها تضم أيضًا بين طياتها أكثر الحماقات فظاظة، والتي تُعتبر اليوم حقائق، ولكن الغد سيفندها، لذا فمن الواضح أنه ما من وجود لما يجب أن يحل محل الدِّين من وجهة نظر السيد بيرتيلو. لذا فإن تأكيد السيد بيرتيلو ومَن يوافقونه في وجهة نظره على أن العِلم يحل محل الدِّين يرتكز على إيمان غير مُبرَّر بعصمة العِلم من الخطأ، يشبه تمامًا الإيمان بعصمة الكنيسة من الخطأ. وفي أثناء ذلك، فإن مَن يُطلق عليهم علماء -ويعتبرون أنفسهم كذلك- على قناعة كاملة بوجود هذا العِلم الذي يتوجب عليه وبإمكانه أن يحل محل الدِّين، بل وإنه قد أبطله الآن.

«لقد مضى عصر الدِّين والإيمان بأي شيء آخر خلا العِلم. يعالج العِلم كل شيء ضروري لنا، ولا بد أن يقود حياتنا عِلم واحد فقط». هكذا يفكر ويعلن كثير من العلماء، والجموع التي تود مع بُعدها الكامل عن العِلم أن تؤمن بالعلماء، ويؤكدون معهم على أن الدِّين ما هو سوى أساطير بالية، وأن حياتنا يجب أن تسترشد بالعِلم وحده. وهذا في الواقع محض هراء؛ لأن العِلم طبقًا لأهدافه المتمثلة في فحص كل الموجودات لا يمكنه أن يرشد حياة البشر لأي شيء.

-٢-

قرر إذنْ مثقفو عصرنا أن الدِّين ليس نافعًا، وأن العِلم يحل محله، أو أنه بالفعل قد حل محله، ولكن لا يمكن لأي مجتمع إنساني في الماضي

أو الآن أن يعيش دون دِين، ولا يمكن ذلك لشخص عاقل، وأقول عاقل؛ لأن الإنسان غير العاقل مثله مثل الحيوان بإمكانه أن يعيش دون دِين. لا يمكن للإنسان العاقل أن يحيا دون دِين؛ لأن الدِّين يمنحه الإرشاد اللازم له عمَّا يجب أن يفعله، وما الذي يجب أن يفعله أولًا، وما الذي يجب أن يفعله بعد ذلك. لا يمكن لإنسان عاقل أن يحيا دون دِين، تحديدًا لأنه عاقل! بمعزل عن تلك التصرفات التي تستدعيها تلبية احتياجاته المباشرة، يسترشد كل حيوان في تصرفاته بحساب النتائج المباشرة الناتجة عن أفعاله. وبعد أن يحسب الحيوان هذه العواقب بوسائل المعرفة التي لديه، يعمل الحيوان على توافق تصرفاته مع هذه العواقب، ويتصرف دومًا دون تردد بهذه الطريقة أو تلك، بقدر اتفاقها مع حساباته. على سبيل المثال، تطير النحلة من أجل العسل وتجلبه إلى الخلية؛ لأنها تكون في حاجة إليه في الشتاء لتطعم نفْسها وأطفالها أيضًا، وهي لا تعرف شيئًا آخر غير هذه الحسابات. هكذا يتصرف الطائر أيضًا في إعداده لعشه أو طيرانه من الشمال للجنوب والعكس. هكذا يتصرف كل حيوان في كافة تصرفاته التي لا تنتج مباشرة عن ضرورة ملحة، بل تلك التي يحسب من أجلها النتائج المتوقعة لأفعاله. ولكن الأمر ليس كذلك مع الإنسان. يكمن الفارق بين الإنسان والحيوان في أن معرفة إمكانيات الأخير تحدها ما نطلق عليه «الغريزة»، بينما معرفة إمكانات الإنسان تتم عن طريق العقل. لا يمكن للنحلة التي تجمع الغذاء أن يساورها أي شك فيما إن كان فعل ذلك جيدًا أو سيئًا؛ أما الإنسان الذي يجمع الحصاد فلا يمكنه ألا يفكر فيما إن كان يُقلِّل من فرصة نمو محصوله في

المستقبل أو لا، وهل يحرم بهذا الشكل جاره من الغذاء أم لا؟ لا يمكنه ألا يفكر في مستقبل أطفاله الذين يطعمهم الآن، وأشياء أخرى كثيرة. إن أكثر الأسئلة أهمية في حياة الإنسان والخاصة بطريقة سلوكه في هذا العالم لا يمكن للإنسان أن يحسمها نهائيًّا بحساب عواقب سلوكه؛ لأنه لن يرى معظم هذه العواقب في حياته. يشعر كل إنسان عاقل -حتى وإن كان لا يعرف هذا- أنه في أكثر قضايا الحياة أهمية لا يمكنه أبدًا أن يسترشد بدوافعه الشخصية، ولا بحساب العواقب المباشرة لسلوكه؛ لأن هذه العواقب شديدة التباين والتناقض، حتى أنها قد تكون نافعة أو ضارة بالنسبة له وبالنسبة للآخرين أيضًا. ثمة أسطورة عن ملاك هبط إلى الأرض عند أُسرة تعيش في مخافة الله، وقتل طفلًا في مهده، وعندما سألوه لما فعلت ذلك، أجاب بأن الطفل كان سيصبح أكثر المخلوقات شرًّا، وكان ليدمر سعادة تلك الأُسرة. ولكن الأمر ليس كذلك مع التساؤل عن الحياة البشرية النافعة أو غير النافعة أو الشريرة، فكافة أسئلة الحياة الأكثر أهمية لا يمكن لإنسان عاقل أن يحسمها بحساب عواقبها المباشرة. لا يمكن لإنسان عاقل أن يرضى بهذه الحسابات التي تسترشد بها الحيوانات في سلوكياتها. يمكن للإنسان أن يعتبر نفسه حيوانًا بين بقية الحيوانات، ومن الممكن أن يعتبر نفْسه عضوًا في أُسرة أو مجتمع يحيا لقرون، ومن الممكن أن يعتبر نفْسه جزءًا من هذا العالم اللانهائي، يحيا إلى الأبد، بل وقطعًا لا بد له أن يفعل ذلك؛ فالعقل يدفعه لذلك بقوة. لذلك فعلى الإنسان العاقل أن يقوم فيما يخص أمور الحياة الصغيرة اللانهائية بما ندعوه في الرياضيات: (التكامل)، وهو قد

فعل ذلك دومًا، والتكامل هنا يعني أن يؤسس الإنسان لعلاقته مع العالم اللامتناهي الأبدي بالإضافة لعلاقته بقضايا الحياة المباشرة، معتبرًا إياه وحدة واحدة. تأسيس هذه العلاقة بين الإنسان وهذه الوحدة الكلية التي يشعر أنه جزء منها، وأن منها يسترشد في تصرفاته هو ما نطلق عليه «الدِّين». لذلك كان الدِّين دومًا شرطًا رئيسًا لا يمكن التخلص منه لحياة الإنسان العاقل، والبشرية العاقلة، ولا يمكن أن يتوقف عن ذلك أبدًا.

-٣-

هكذا فهم هؤلاء البشر دومًا الدِّين... أولئك مَن لم يُحرموا من الوعي السامي، أي الدِّيني، والذي يميز الإنسان عن الحيوان. يشير أقدم وأشهر تعريف لكلمة الدِّين، والذي منه خرجت كلمة: **religio** **(religare)** إلى أن الدِّين «هو الرابط الذي يربط بين الإنسان والإله، وواجبات الإنسان صوب الله.. هذا ما يعنيه الدِّين»[٦٩] (بروفانس)[٧٠]. نفْس المعنى أيضًا للدين نجده عند شليرماخر[٧١] وفويرباخ[٧٢]، اللذين يعتبران أن أساس الدِّين يتمركز في وعي الإنسان باتكاله على

(٦٩) بالفرنسية في الأصل: **Les obligations de l›homme envers Dieu voila la religion**.

(٧٠) **Luc de Clapiers, marquis de Vauvenargues**: كاتب فرنسي ولد في عام ١٧١٥، وتوفي في عام ١٧٤٧.

(٧١) فريدريك شليرماخر: لاهوتي وفيلسوف وعالم الكتاب المقدس، عُرِف عنه محاولته التوفيق بين الانتقادات الموجهة إلى التنوير مع المسيحية البروتستانتية التقليدية.

(٧٢) لودفيغ أندرياس فويرباخ: فيلسوف ألماني، ولد في ٢٨ يوليو ١٨٠٤ في مدينة لاندسهوت بولاية بافاريا الألمانية، وتوفي في رايخنبرغ في ١٣ سبتمبر ١٨٧٢. في البداية كان تلميذًا لهيغل، ثم أصبح من أبرز معارضيه.

الإله. «الدِّين أمر شخصي بين الإنسان والله»(٧٣) بايل (٧٤). «ينتج الدِّين عن احتياج النفوس وتأثير العقل»(٧٥) كونستانت (٧٦).

«الدِّين: هو الطريقة الشائعة التي يتمكن عن طريقها الإنسان من اكتشاف علاقته بما هو فوق البشري وبالقوى الغامضة التي يعتبر نفْسه متصلًا بها» جوبلت (٧٧).

«الدِّين هو تعريف للحياة الإنسانية عن طريقة علاقة الروح الإنسانية بالروح الغامضة التي يشعر بها الإنسان تهيمن على العالم وعليه هو شخصيًّا، والتي يشعر الإنسان أنه متوحد معها» ريفيل (٧٨).

هكذا فهم الناس الدِّين، وحتى الآن... أولئك مَن لم يُحرموا من سمة الإنسان العليا.. دائمًا ما أدركوا الدِّين على أنه العلاقة التي تتأسس بين الإنسان وبين الكائن أو الكائنات اللانهائية، والتي يشعر بسلطتها في نفْسه. هذه العلاقة التي لم تختلف أبدًا من وقت لآخر أو من مكان لآخر، دائمًا ما تُرشد البشر إلى دورهم في هذا العالم، والذي تنبع منه بشكل تلقائي محددات سلوكياتهم. فَهِمَ اليهودي علاقته بالكائن اللانهائي،

(٧٣) بالفرنسية في الأصل: La religion est une affaire entre chaque home et Dieu.

(٧٤) يير بايل: هو شخصية عامة، وفيلسوف الشكية، وممثل حركة التنوير الفرنسية. كان أستاذًا للفلسفة بكلية سيدان وجامعة روتردام، دخل في نزاع مع الكاثوليكية، وبعد ذلك تخلى عن الدِّين، ودعا إلى التسامح الديني، كان بايل أول مَن قام بدراسة نقدية للعقيدة المسيحية.

(٧٥) بالفرنسية في الأصل: La religion est la resultat des besoins de l›ame et de effets de l'intelligence.

(٧٦) بنجامين كونستانت: ناشط سياسي سويسري فرنسي. ولد عام ١٧٦٧، وتوفي في عام ١٨٣٠.

(٧٧) يوجيني جوبلت دي لافيلا: محامٍ وسيناتور ليبرالي بلجيكي شهير. ولد عام ١٨٤٦، وتوفي في عام ١٩٢٥.

(٧٨) ألبرت ريفيل: ولد عام ١٨٢٦، وتوفي عام ١٩٠٦، وهو لاهوتي فرنسي شهير.

على أنه عضو من الشعب الذي اصطفاه الله على كافة الشعوب الأخرى، لذا يتوجب عليه الحفاظ على عهده بالله أمام جميع الشعوب الأخرى. أما اليوناني، فقد فهم علاقته على أنه كائن أبدي مستقل عن ممثلي الأبدية.. أي الآلهة، وعليه أن يرضيهم دومًا. فَهِمَ البراهمي علاقته بالكائن اللانهائي على أنه تجلٍّ لبراهما اللانهائي، وعلى أنه عليه أن يتوحد به عن طريق نكران الذات. فَهِمَ البوذي علاقته -ولا يزال- باللانهائي على أنه سوف يعاني حتمًا بينما ينتقل من هيئة لأخرى بالحياة، وهذه المعاناة تنتج في الأساس عن الشهوات والرغبات، لذا فعليه أن يناضل من أجل القضاء على كافة الشهوات والرغبات حتى يصل إلى النيرفانا [٧٩]. تؤسس كل ديانة إذنْ لعلاقة الإنسان بالوجود اللانهائي، والذي يشعر أنه يشارك فيه، والذي يسترشد منه بمحددات سلوكياته. لذلك فإن لم يقم دِينٌ ما بتحديد علاقة الإنسان باللانهائي؛ كما نجد مثلًا في عبادة الأصنام والسحر والشعوذة، فهذا ليس بدِين، لكنه مجرد صورة منحطة منه. وإن حدد الدِّين علاقة الإنسان بالإله، ولكنه فعل ذلك بتأكيدات لا تتفق مع العقل والمعارف الإنسانية، فلا يستطيع الإنسان أن يثق في هذه التأكيدات، بالتالي فهذا ليس بدِينٍ، لكنه شيء يشبهه. إن لم يربط الدِّين حياة الإنسان بالوجود اللانهائي، فإنه أيضًا ليس بدِين. لا يمكن أن تشكل دِينيًّا متطلبات إيمان لا تُنتج

---

(٧٩) حالة الخلو من المعاناة: تعتبر الـ(نيرفانا) هي حالة الانطفاء الكامل التي يصل إليها الإنسان بعد فترة طويلة من التأمل العميق، فلا يشعر بالمؤثرات الخارجية المحيطة به على الإطلاق، أي أنه يصبح منفصلًا تمامًا بذهنه وجسده عن العالم الخارجي، والهدف من ذلك هو شحن طاقات الروح من أجل تحقيق النشوة والسعادة القصوى والقناعة وقتل الشهوات؛ ليبتعد الإنسان بهذه الحالة عن كل المشاعر السلبية من الاكتئاب والحزن والقلق وغيرها.

محددات واضحة لسلوك الإنسان. من المستحيل أيضًا أن نطلق كلمة دِين على وضعية أوجست كونت، والتي تحدد علاقة الإنسان بالإنسانية فقط، ولا تفعل ذلك مع اللانهائي، وينتج عن هذه العلاقة بشكل اعتباطي تمامًا نظام أخلاقي لا يرتكز على شيء على الإطلاق، مع أنه ذو مطالب سامية. لذا فالعلاقة الدِّينية عند أكثر المنتمين لكونت ثقافة، أدنى من مثيلتها عند أبسط إنسان يؤمن بالله اللا نهائي، ويسترشد بهذا الإيمان في سلوكياته. استنتاجات أولئك الكانتيين حول الـ **grand être**[٨٠] لا يمكنها أن تؤسس للإيمان بالله، أو حتى أن تستبدله.

إن الدِّين الحقيقي هو الذي يتوافق مع العقل ومعرفة الإنسان، ويحدد علاقته بالحياة اللانهائية من حوله.. إنه الدِّين الذي يربط حياته بهذه اللانهائية، ويرشد الإنسان في سلوكياته.

-٤-

بغضِّ النظر عن أنه لم يحدث في أي مكان أو زمان أن عاش الناس دون دِين، يقول مثقفو عصرنا مثل طبيب موليير الإلزامي[٨١] الواثق من أن الكبد موجود في الجانب الأيسر: لقد غيرنا كل هذا[٨٢]، ومن الممكن -بل من اللازم- أن نحيا دون دِين. ولكن الدِّين كما كان -ولا

(٨٠) وردت بالأصل بالفرنسية، وهي مصطلح فلسفي عند أتباع كانت، ويمكن ترجمته بـ: الكينونة العظيمة.

(٨١) يشير تولستوي إلى مسرحية موليير الشهيرة: **Le malade imaginaire**.

(٨٢) بالفرنسية في الأصل: **nous avons change tout cela**.

يزال- حتى الآن هو قلب المحرك الرئيس لحياة المجتمعات الإنسانية، ودونه -كما الأمر مع غياب القلب تمامًا- لا يمكن لحياة عاقلة أن تنشأ. تعددت الأديان منذ الماضي وحتى الآن؛ وذلك لأن التعبير عن طبيعة العلاقة التي تربط بين الإنسان واللانهائي -الله أو الآلهة- مختلفة من زمان لآخر، وحسب درجة تطور الشعوب المختلفة، ولكن لم يحدث أبدًا لأي شعب من الشعوب -منذ أن تمتع الإنسان بالعقل- أن عاش دون دِين.

صحيح حلت أزمنة في حياة بعض الشعوب -وما زالت- حيث بدا أن الدِّين الموجود قد تم تشويهه، وفارق الحياة ولم يعد يرشدها، ولكن هذا الانقطاع عن الحياة والذي حدث مع كافة الأديان كان مؤقتًا. مثل كل ما يتمتع بالحياة، لدى الأديان القدرة على الولادة والتطور والشيخوخة والموت، والولادة من جديد، والظهور في صيغة معاصرة عن صورتها السابقة. بعد فترات السمو والازدهار في حياة الأديان دائمًا ما تأتي فترات الضعف والانحطاط، والتي تتبعها فترات بعث للدِّين من جديد، وإعادة تأسيس لتعليم دِيني أكثر عقلانيةً ووضوحًا. هذه الفترات من التطور والذبول وإعادة البعث مرت بها جميع الأديان. في الدِّين البرهمي العميق -على سبيل المثال- بمجرد أن شاخ وبدأ في الذبول، مبتعدًا عن فكرته الرئيسة، متحولًا إلى عقائد متحجرة، ظهرت من إحدى الجوانب حركة إعادة بعث للبرهمية، ومن ناحية أخرى ظهرت تعاليم البوذية التي عملت على تقدم فهم الإنسانية في علاقتها باللانهائي. نفْس الانحطاط حدث مع الأديان اليونانية والرومانية، والذي تلاه

ظهور المسيحية. الأمر ذاته مع المسيحية الكنسية، والتي انحطت في بيزنطة إلى مستوى الوثنية وتعدُّد الآلهة، بينما على الجانب الآخر من هذه المسيحية المشوهة ظهرت من جانب الحركة البولسية[٨٣]، ومن جانب آخر، ظهر الإسلام بعقيدته التوحيدية الصارمة ردًّا على عقيدة التثليث وعبادة العذراء. الأمر ذاته مع مسيحية القرون الوسطى البابَاوية، وردًّا عليها ظهرت تعاليم الإصلاح الديني [٨٤]. لذا ففترات الضعف والانحدار التي تصاحب الدِّين في تأثيره على حياة الناس، تشكل شرطًا ضروريًّا لحياة وتطور كافة التعاليم الدِّينية. السبب في ذلك أن كل تعليم ديني في فكرته الأصيلة -مهما كانت بساطتها- دائمًا ما يؤسس لعلاقة بين الإنسان واللانهائي، وهي علاقة واحدة لكل البشر. يرى كل دِين ضعف كل إنسان أمام اللانهائية، لذا يحوي كل دِين مفهوم مساواة جميع البشر أمام مَن يدعونه إلهًا، سواء كان البرق أو الرعد أو الرياح أو شجرة أو حيوانًا أو بطلًا أو قيصرًا ميتًا أو حتى حيًّا، كما كان الأمر في روما. لذلك فمفهوم مساواة البشر يُشكِّل سمة رئيسة في كل دِين، ولكن في الواقع لم تحدث في أي وقت وفي أي مكان مساواة حقيقية بين البشر، وهي ليست موجودة الآن أيضًا، لذلك فكلما يظهر تعليم دِيني جديد يحوي في تعاليمه فكرة المساواة بين البشر، يحدث مثلما يحدث مع الناس في الواقع، يحاول المنتفعون من عدم مساواة البشر أن يخفوا

---

(٨٣) نسبة إلى بولس الرسول، والطائفة البولسية إحدى الطوائف المسيحية التي لعبت دورًا هامًّا في تاريخ المسيحية الشرقية من القرن السابع وحتى القرن الثاني عشر.

(٨٤) حركة شهدتها أوروبا خلال القرنين ١٥ و١٦ من خلال أسماء شهيرة على رأسها الراهب الألماني مارتن لوثر، ووجهت الحركة انتقادات عديدة للمسيحية الكاثوليكية.

هذه السمة الرئيسة للتعليم الدِّيني بتشويه أصل هذا التعليم. حدث هذا في كل زمان ومكان، كلما يظهر تعليم دِيني جديد. الجزء الأعظم من هذه العملية لا يحدث بوعي، لكنه ينتج فقط بسبب أن المستفيدين من لا مساواة البشر، المتواجدين في السلطة والأغنياء من جراء هذا، وحتى يبرروا موقفهم أمام أنفسهم دون أن يغيروا من أوضاعهم، يحاولون بكل ما لديهم من قوة أن يلصقوا بالدِّين تعليمًا يمكن أن تكون فيه عدم المساواة أمرًا ممكنًا. وينتج عن ذلك حتمًا أن دِينًا تم تحريفه يمكن لِمَن يتسلط فيه على الآخرين أن يجد نفْسه مُبررًا، ينتقل إلى العامة أيضًا، ويوحي إليهم بأن خضوعهم لِمَن يتسلطون عليهم أمرٌ من متطلبات الدِّين الأساسية.

-٥-

ثمة ثلاثة عوامل تحفز حركة التاريخ البشري بأكمله: الشعور، العقل، الإيحاء، الذي يطلق عليه الأطباء: التنويم المغناطيسي. أحيانًا ما يتصرف الإنسان تحت تأثير الشعور فقط، مكافحًا من أجل الوصول لما يرغب، وأحيانًا يتصرف بدافع العقل وحده، الذي يرشده إلى ما عليه فعله، وأحيانًا -بل في أغلب الوقت- يتصرف الإنسان بدافع من الإيحاء الذي تتعرض إليه نفْسه أو يعرضها إليه الآخرون للقيام بعمل ما، ويخضع دون وعي إلى هذا الإيحاء. في الظروف الطبيعية للحياة الإنسانية تشارك العوامل الثلاث في التأثير على النشاط الإنساني. يدفع الشعور الإنسان للقيام بعمل معين، في حين يفحص العقل مدى ملاءمة

هذا العمل للبيئة المحيطة بالإنسان طبقًا لخبرات الماضي وتوقعات المستقبل، ويجبر الإيحاء الإنسان على تنفيذ ما يثيره الشعور ويوافق عليه العقل، دون أن يشعر الإنساء بشيء أو يفكر فيه. إن لم يكن ثمة شعور، لم يكن الإنسان ليقوم بأي فعل. وإن لم يوجد العقل، لتملكت الإنسان على الفور مشاعر كثيرة متناقضة ضارة له وللآخرين. وإن لم تكن هناك إمكانية لخضوع الإنسان للتنويم الذاتي أو تنويم الآخرين، لتوجب على الإنسان ألا يتوقف عن الإحساس بما يحثه بداخله الشعور للقيام بفعل معين، ولقام عقله دومًا بتصحيح ما ترمي إليه مشاعره. لذلك، فتلك المحفزات الثلاثة ضرورية لكافة أفعال الإنسان حتى أبسط فعل منها. إن ذهب الإنسان من مكان لآخر، فإنه يقوم بذلك لأن الشعور أيقظ بداخله الرغبة في الانتقال من هذا المكان لذاك، وصدَّق العقل على هذه الرغبة، محددًا طريقة التنفيذ، وهي السير على الأقدام في طريق معين في هذه الحالة، وتطيع عضلات الجسد هذه الرغبة، ويسير الإنسان في الطريق المحدد. وبينما يسير يتحرر شعوره وعقله من هذا الفعل من أجل فعل آخر، لم يكن هناك إمكانية للقيام به إن لم تكن هناك فرصة للخضوع للإيحاء. ينطبق هذا على كافة النشاط البشري، بما فيه النشاط الأكثر أهمية؛ النشاط الدِّيني. يثير الشعور بداخل الإنسان الحاجة إلى إقامة علاقة مع الإله، ويحدد العقل طبيعة هذه العلاقة، ويحث الإيحاء الإنسان على النشاط الذي ينتج عن هذه العلاقة. ذلك يحدث فقط عندما لا يتعرض الدِّين للتشويه أو التحريف. ولكن فور أن يبدأ تحريفه، تزداد قوة الإيحاء أكثر فأكثر، ويضعف نشاط الشعور

والعقل. أما وسائل هذا الإيحاء فهي دائمًا وأبدًا واحدة في كل مكان، وتتلخص في التأثير على الإنسان في تلك اللحظات التي يكون فيها أكثر عرضة للخضوع للإيحاء مثل مرحلة الطفولة، والتعرُّض لحوادث شديدة الأهمية في حياته مثل الموت أو الولادة أو الزواج، وتؤثر عليه عن طريق الفنون مثل العمارة والنحت والرسم والموسيقى والعروض المسرحية، وفي هذه الحالة عندما يكون الإنسان شديد الحساسية لتلك المؤثرات، التي تشبه التأثير الذي يحدث على الأفراد عندما يكونون نصف نائمين، يُوحَى إليهم بما يريده الموحِي.

من الممكن أن نلاحظ هذه الظاهرة في كافة العقائد القديمة؛ في انحلال تعاليم البراهمانية السامية في وحل الوثنية وعبادة التصويرات المتعددة في المعابد المختلفة مع الرقص والتدخين. وفي الديانة اليهودية القديمة التي بشَّر بها الأنبياء، التي تحولت إلى عبادة الله في معبد عظيم مع أغانٍ احتفالية ومواكب حاشدة. وفي البوذية السامية، والتي انتهى بها الحال بأديرتها ورهبانها وعبادتها لبوذا وطقوسها الاحتفالية إلى لامية[٨٥] غامضة. وفي الطاوية بعرافتها وشعوذتها.

يحدث الأمر ذاته في كافة التعاليم الدينية المختلفة عندما يبدأ تحريفها، فيقوم حراسها ببذل كافة جهودهم إلى الإيحاء للجماهير بما يريده حراس العقيدة، ويقومون من أجل ذلك بإضعاف نشاط عقول

(٨٥) اللامية أو بوذية التيبت: هي مجموعة المبادئ والمؤسسات الدِّينية البوذية التي تميِّز بوذية التيبت، منغوليا، أقسام من الهيمالايا، شمال نيبال والهند، كما أنها الديانة الرسمية في مملكة بوتان. كذلك فهي تمارس في روسيا وشمال شرق الصين.

الجماهير. وفي كافة الأديان دائمًا ما وجد حراسها ثلاثة أمور أساسية من أجل القيام بتحريف الدين: الأول- أنه ثَم جنس خاص من البشر، من الممكن أن يصبحوا وسطاء أو شفعاء بين الجماهير وبين الإله أو الآلهة. الثاني- أن تكون قد حدثت وما زالت تحدث معجزات تثبت وتؤكد حقيقة ما يقوله أولئك الوسطاء بين الناس والإله. الثالث- أن ثمة كلمات معينة، تُكرَّر شفهيًا، أو مكتوبة في كتب معينة، تكشف عن إرادة الإله أو الآلهة الثابتة، ولذلك فهي مقدسة ومعصومة. وما إن يتم قبول هذه الأمور تحت تأثير التنويم، حتى يتم التعامل مع ما يقوله هؤلاء الوسطاء على أنه حقيقة مقدسة، ونصل إلى الهدف الرئيس من تحريف الدِّين، الذي لا يقتصر فقط على إخفاء حقيقة مساواة البشر، بل أيضًا تأسيس اللامساواة والتأكيد على أفضليتها، وانقسام البشر إلى طبقات، وتقسيم الناس بين مختارين وأمم[٨٦]، إلى مستقيمين وضالين، قديسين وخطاة. الأمر ذاته حدث -ولا يزال يحدث- مع المسيحية، فقد تم قبول اللامساواة الكاملة بين الناس وبعضها، ولم يتم التقسيم فقط من ناحية التعليم بين إكليروس[٨٧] وعلمانيين[٨٨]، ولكن من ناحية المكانة الاجتماعية أيضًا إلى هؤلاء مَن لديهم السلطة، وأولئك مَن يتحتم عليهم الخضوع لها، وهذا التقسيم قد أسسه الله بنفْسه طبقًا لتعاليم بولس.

---

(٨٦) يقصد بالأمم تسمية اليهود لكل مَن هم غير يهود؛ كعلامة على الكفر والابتعاد عن الله، فالعالم من منظور اليهودي القديم ينقسم إلى يهود مختارين وأمم ضالة.

(٨٧) الإكليروس: هم رجال الدين المسيحيين من كهنة وأساقفة وبطاركة.

(٨٨) تطلق الكنيسة لقب علمانيين على كل مَن هم غير رجال دِين، وغير مقصود العلمانية بمفهومها الواسع، بل العلمانيون هنا هم أي فرد من الجمهور الذي لا ينتمي إلى رجال الدِّين.

لقد أسَّست الديانة المسيحية الكنسية للامساواة بين الناس، ليس فقط بين إكليروس وعلمانيين، بل بين أغنياء وفقراء، سادة وعبيد، بهذه الشكل الحاد، كما في بقية الأديان. وإن حكمنا على الأمر طبقًا لما نعرفه عن منشأ المسيحية طبقًا للتعاليم التي وردت في الأناجيل، سيبدو لنا أنه قد تم التحذير بشدة من طرق التحريف التي قد تلحق بالمسيحية وهي التي قد تم استخدامها في تحريف الديانات الأخرى. فبالنسبة للكهنوت قيل بشكل مباشر: لا يمكن لأي إنسان أن يكون معلمًا لإنسان آخر (٨٩). وأمام قضية تقديس التعاليم المكتوبة قيل: الروح وحدها ما يهم، لا الحرف(٩٠)، وليس على البشر أن يؤمنوا بما يحكيه بشر آخرون، والناموس والأنبياء كله، أي جميع الكتب التي تعتبر مقدسة، تتلخص جميعها في أن تعامل قريبك كما تحب أن يعاملك الآخرون (٩١). وإن لم يكن قد قيل شيء ضد المعجزات، وإن كانت الأناجيل نفْسها قد وصفت تلك المعجزات التي نسبتها إلى المسيح، فإنَّ روح التعليم بالرغم من كل ذلك توضح بجلاء أن حقيقة تعاليم المسيح لم تتأسس

---

(٨٩) وأما أنتم فلا تُدعَوا سيدي؛ لأن معلمكم واحد المسيح وأنتم جميعًا إخوة. ولا تَدعُوا لكم أبًا على الأرض؛ لأن أباكم واحد الذي في السماوات. ولا تُدعَوا معلِّمين؛ لأن معلمكم واحد المسيح. متى ٢٣: ٨-٩-١٠.

(٩٠) ربما يقصد تلك الآية: لأن الحرف يقتل ولكن الروح يُحيي" ٢كورنثوس ٣: ٦.

(٩١) فقال له يسوع: تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والثانية مثلها: تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء. متى٢٢: ٣٧- ٤٠.

على المعجزات وإنما على جوهر التعاليم نفْسها: «إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفْسي» يو٧: ١٣. الأمر الرئيس هنا أن المسيحية قد أعلنت أن مساواة البشر لا تنتج فقط عن علاقة البشر بالله اللانهائي، بل إنها تعليم رئيس عن أُخُوَّة البشر جميعًا، كما أن البشر جميعًا أبناء لله. لذلك يبدو أنه من المستحيل تحريف المسيحية كي نزيل حالة مساواة البشر بينهم وبين أنفسهم.

ولكن العقل الإنساني مراوغ، وبلا وعي أو بنصف وعي تم ابتكار طريقة جديدة للمراوغة، عمل بارع كما يقول الفرنسيون[٩٢]، كي تجعل من التحذيرات الإنجيلية، والتصريحات الواضحة عن مساواة كافة البشر غير حقيقية. هذا العمل البارع يتأسس على نسبة العصمة من الخطأ ليس فقط لكتابات معينة، بل لبشر معينين أيضًا، تُعيِّنهم الكنيسة، ولديهم الحق في نقل هذه العصمة لأناس آخرين يقومون بدورهم باختيارهم.

ثم إضافة أخرى إلى الأناجيل كي يكتمل الأمر، تقول إن المسيح قبل أن يصعد إلى السماوات سلَّم مجموعة معينة من البشر حقًّا استثنائيًّا، ليس فقط ليعلموا البشر الحق الإلهي، فلن يقتصر الأمر قطعًا على منحهم إمكانية النجاة من لدغ الثعابين والسموم والنيران كما هو مدون بالأناجيل[٩٣]، ولكن أيضًا أن يقرروا خلاص الناس من عدم خلاصهم، والأكثر من ذلك إمكانية أن ينقلوا هذه الهبة لأناس آخرين.

---

(٩٢) Truc.

(٩٣) وَهذِهِ الآيَاتُ تَتْبَعُ الْمُؤْمِنِينَ: يُخْرِجُونَ الشَّيَاطِينَ بِاسْمِي، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ جَدِيدَةٍ. يَحْمِلُونَ حَيَّاتٍ، وَإِنْ شَرِبُوا شَيْئًا مُمِيتًا لاَ يَضُرُّهُمْ، وَيَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْمَرْضَى فَيَبْرَأُونَ. مرقص ١٦: ١٧ - ١٨.

وما إن تدعم مفهوم الكنيسة، حتى أصبحت كافة التحذيرات الإنجيلية بالتحريف غير فاعلة، فالكنيسة أصبحت أهم من العقل والكتابات الإنجيلية المدعوة مقدسة على السواء. أصبح العقل معروفًا على أنه مصدر الضلال، وأصبحت الكتابات الإنجيلية تفسر لا كما يراها الحس السليم، بل كما يريد رجال الكنيسة تفسيرها.

لذلك فكافة وسائل تحريف الدِّين الثلاث: الكهنوت والمعجزات وعصمة كتابات عن الخطأ، تم قبولها في المسيحية بقوة. تم الاعتراف بوجود وسطاء أو شفعاء بين الله والناس؛ لأن الكنيسة أقرت صحة وضرورة هذا، وقُبلت حقيقة المعجزات؛ لأن الكنيسة المعصومة عن الخطأ قد شهدت بها، وتم إقرار قداسة الأناجيل؛ لأن الكنيسة أقرت بذلك.

وتحرفت المسيحية -شأنها شأن كافة الأديان الأخرى- مع فارق وحيد، فلأن المسيحية تحديدًا أعلنت بوضوح تام قاعدتها الأساسية حول مساواة كافة البشر كأبناء لله، وجب تحريف كافة تعاليمها بقوة، لإخفاء ذلك الإعلان الصريح. وبمساعدة مفهوم الكنيسة حدث ذلك كما لم يحدث من قبل مع أي ديانة أخرى. وحقًّا، ما من ديانة واحدة قد وعظت بهذه التعاليم التي تخالف بوضوح العقل ومعارف الناس المعاصرة، تلك التعاليم غير الأخلاقية، كما فعلت الكنيسة المسيحية. ولن أتكلم عن كافة سخافات العهد القديم من قبيل خلق الضوء قبل الشمس، ونشأة الكون منذ ٦ آلاف عام فقط، ووضع كافة الحيوانات في الفلك، وعن كافة الكوارث الأخلاقية التي وصفها مثل ذبح الأطفال وكافة السكان بأمر من الرب، وعن كافة الألغاز السخيفة التي تحدث

عنها فولتير، فمع وجود تعاليم دينية سخيفة كثيرة، إلا أن واحدة منها لم تصل إلى حد أن يأكل الإنسان خالقه [٩٤]. ما الذي يمكن أن يكون أكثر هراءً من أن تكون والدة الإله: مريم أمًّا وعذراء في الوقت ذاته؟! وأن تنفتح السماء ويُسمع منها صوت يقول إن المسيح قد صعد إلى السماء، ويجلس الآن هناك عن يمين الآب، أو أن الله واحد وثلاثة، وليسوا ثلاثة آلهة مثلًا كبراهما وفيشنو وشيفا، لكنه واحد مع كونه ثلاثة؟! وما الذي يمكن أن يكون لا أخلاقيًّا أكثر من تلك التعاليم المريعة التي من خلالها نرى الله الشرير والمنتقم قد عاقب آدم، وكي ينقذ هؤلاء البشر يرسل ابنه إلى الأرض، عالمـًا من البداية أن البشر سيقتلونه، وأنهم سيُلعنون بسبب هذا، وأن تخليص الناس من خطاياهم يتم عن طريق معمودية البشر في الماء وإيمانهم بأن كل ذلك قد حدث فعلًا، ومَن لا يؤمن بهذا، سيعاقبه الله بالعذاب الأبدي؟! هذا بالإضافة إلى ما التصق بالعقيدة الأساسية لهذا الدِّين مثل الإيمان بالرفات[٩٥] المقدسة، وأيقونات والدة الإله المختلفة، والصلوات التوسلية لقديسين مختلفين، كل حسب اختصاصه... هذا غير تعاليم الحتمية والقضاء والقدر البروتستانتية، والتي سبق واعترف بها كافة مؤسسي هذه الديانة في نيقية[٩٦] ... كل

(٩٤) يقصد سر الأفخاريستيا في الكنيسة، حيث يشترك المؤمنون في تناول خبز وخمر، مع إيمانهم بتحوله إلى جسد المسيح ودمه، اللذين بذلهما المسيح على الصليب؛ من أجل غفران خطايا البشر، كما تعتقد أغلب الكنائس.

(٩٥) بقايا أجساد القديسين التي لم تتحلل كما تقول الكنيسة، فتُقدَّس، وتتبارك بها جموع الشعب.

(٩٦) سُمي مجمع نيقية بهذا الاسم نسبة إلى مدينة نيقية التي عُقد فيها، وهي العاصمة الثانية لولاية بيثينية، وتقع في الشمال الغربي لآسيا الصغرى. حضر افتتاح المجمع الإمبراطور قسطنطين الأول، وبدأ مجمع نيقية جلساته في ٢٠ مايو ٣٢٥.

هذه التعاليم سخيفة وغير أخلاقية، ولا تؤدي إلى شيء إلا لمتناقضات تضر بالعقل والشعور الإنساني، ولا يمكن للبشر أن يصدقوها. يمكن للبشر أن تنطق شفاههم بعبارات معينة، لكن لا يمكنهم أن يصدقوا في مثل هذه الأمور التي لا تُصدَّق. من الممكن أن يقول الإنسان بشفتيه: أؤمن بأن العالم قد بدأ منذ ستة آلاف عام، أو أن يقول إن المسيح قد طار إلى السماء وجلس عن يمين الآب، أو أن الله واحد وفي الوقت ذاته ثلاثة، ولكن تصديق كل هذا غير ممكن؛ لأن مثل هذه الكلمات ليس لها معنى على الإطلاق. لذلك فمعاصرونا معتنقو هذه المسيحية التي تم تحريفها، في واقع الأمر لا يؤمنون بشيء على الإطلاق، وهذا تحديدًا سمة عصرنا الحالي.

-٧-

إن معاصرينا لا يؤمنون بشيء، ومع هذا التعريف الكاذب للإيمان الذي أخذوه من الرسالة إلى العبرانيين التي كتبها بولس، يتصورون أن لديهم إيمانًا. الإيمان طبقًا لهذا التعريف هو تحقق ما يُرجى ὑπόστασις والإيقان بأمور لا ترى ἔλεγχος [٩٧]. وفضلًا عن أن الإيمان لا يمكنه أن يكون تحققًّا لما يُرجى لأنه حالة داخلية، بينما تحقق ما يرجى لأنه حدث خارجي، فهو لا يمكنه أن يكون أيضًا إيقانًا بما لا يُرى؛ لأن مثل هذا الإيقان كما قد أوضحت يتأسس على تصديق حقيقة معينة، والثقة والإيمان مفهومان مختلفان. الإيمان ليس ثقة أو أمل لكنه حالة

---

(٩٧) وَأَمَّا الإِيمَانُ فَهُوَ الثِّقَةُ بِمَا يُرْجَى وَالإِيقَانُ بِأُمُورٍ لَا تُرَى». الرسالة إلى العبرانيين ١١ : ١.

داخلية. يتأسس الإيمان على وعي الإنسان بموقعه في العالم، والذي يرشده صوب سلوكيات معينة. لا يتصرف الإنسان طبقًا لإيمانه بسبب أنه يصدق ما لا يُرى كما تقول التعاليم الشفاهية، ولا بسبب أنه يأمل في الحصول على ما يرجوه، لكن السبب الوحيد في ذلك أنه بعد أن عرف موضعه في العالم يتصرف طبقًا لهذه المعرفة. وكما يزرع الفلاح الأرض، ويبحر الربان في قاع البحر لا لأنهما يؤمنان بما لا يُرى أو يأملان في الحصول على ما يرجوانه؛ ولكن لأن في هذا النشاط وحده يجدان أنفسهم، وإن كان الأمل موجودًا إلا أنه لا يقودهم. الأمر ذاته ينطبق على المؤمن الديني، فهو يتصرف بنمط معين من التصرفات؛ لا لأنه يؤمن بما لا يُرى أو أنه ينتظر مكافأة ما على أفعاله، ولكنه بعد أن فهم موقعه في العالم، فإنه يتصرف بشكل يتسق مع هذا الفهم. إن رأى إنسان ما علاقته بالعالم على أنه عامل كادح أو حرفي ماهر أو موظف أو تاجر، فسيرى أنه من الضروري أن يعمل ككادح أو حرفي أو موظف أو تاجر. هكذا الأمر مع الإنسان بشكل عام، فبعد أن يحدد علاقته بالعالم، سيتصرف حتمًا بشكل يتسق مع هذه العلاقة، وأحيانًا لا يتعرف عليها بشكل واضح بل مجرد معرفة غير واضحة. على سبيل المثال: إنسان يرى علاقته بالعالم على أنه عضو بشعب الله المختار، والذي يتوجب عليه كي ينعم بحماية الرب، أن ينفذ متطلباته وأوامره، فيعيش من أجل هذه الغاية وهي تنفيذ هذه الوصايا والأوامر. وإنسان آخر حدَّد علاقته بالعالم على أنه قد مر وما زال يمر بصور مختلفة من الوجود، ويعتمد مصير مستقبله على أفعاله، سواء للأفضل أو للأسوأ. هذه الرؤية ستقود

أفعاله في العالم. أما سلوك إنسان ثالث، قد حدد علاقته بهذا العالم على أنه نتاج اتحاد ذرات عرضي، اشتعلت فيها مصادفة شعلة الوجود، ستنطفئ يومًا ما إلى الأبد، ستكون سلوكياته مختلفة تمامًا عن النمطين الأولين.

ستختلف تمامًا سلوكيات هذه النماذج؛ لأن كل منهم قد حدد علاقته بالعالم بشكل مختلف عن الآخر، أي أن لكل منهم إيمانًا مختلفًا. يشبه الإيمانُ الدِّينَ في كل شيء، ولكن ثَم فارق واحد، وهي أن كلمة دِين تشير إلى ظاهرة خارجية، أما كلمة إيمان فتشير إلى تلك الظاهرة التي يختبرها الإنسان بداخله. إن الإيمان هو معرفة الإنسان للعلاقة التي تربط الإنسان بالعالم اللانهائي، والتي ينبع منها الاتجاه الذي تسير سلوكياته وفقه. لذلك فالإيمان الحقيقي لا يمكنه ألا يكون عقلانيًّا، أو لا يتفق مع المعارف الإنسانية الموجودة، ولا يمكن أن تكون سماته خارقة للطبيعة أو سخيفة كما يفترض البعض، وكما عبر عنها أحد الآباء بالكنيسة حين قال: أؤمن لأنه مناف للعقل [٩٨]. بل على النقيض من ذلك، فتأكيدات الإيمان الحقيقي -على الرغم من أنه لا يمكن إثباتها- فلا يمكن أبدًا أن تحوي بداخلها أمرًا منافيًا للعقل أو غير متفق مع معارف الناس، بل إنها تشرح دائمًا أن الحياة دون إيمان ستكون متناقضة ولا عقلانية.

فلنأخذ مثالًا، كاليهودي القديم الذي يؤمن بوجود كائن أعلى

(٩٨) بالفرنسية في الأصل: credo quia absurdum: وهي من أقوال ترتليانوس في القرن الثالث، وهو أحد آباء الكنيسة.

أبدي كلي القدرة قد شكَّل السماء والأرض والحيوانات والإنسان... إلخ، وقد تعهد بحماية شعبه إن سار حسب ناموسه، ولم يؤمن بشيء غير عقلاني ولا يتفق مع معارفه، بل على العكس، فقد شرح له هذا الإيمان العديد من الأمور التي قد تبدو دونه ظواهر غير مفهومة بالحياة.

الأمر ذاته مع الهندوسي الذي يؤمن بأن نفوسنا قد سكنت من قبل أجساد حيوانات، وأنه على حسب صلاح أو طلاح حياتنا تنتقل إلى أجساد حيوانات أخرى أرقى أو أدنى، ويشرح له إيمانه هذا عديدًا من الأمور التي من دونها يجد أمامه كثيرًا من ظواهر الحياة غير مفهومة. الأمر ذاته مع إنسان يعتبر الحياة شرًّا، وأن هدفه في الحياة هو تهدئة الشهوات والقضاء عليها. ما من شيء يناقض العقل في إيمانه هذا، بل على العكس، فإنه يجعل منظوره للعالم أكثر عقلانية أكثر منه دون هذا الإيمان. نفْس الأمر مع المسيحي الحقيقي، الذي يؤمن بأن الله أب روحي لكافة البشر، وأن الإنسان يصل إلى الخير الأعظم عندما يدرك بنوته لله وأخوة البشر جميعًا. كل هذه الصيغ من الإيمان -وإن لم يكن باستطاعة أحد أن يثبتها- ليست مناقضة للعقل في حد ذاتها، بل على العكس، فإنها تمنح صاحبها فهمًا أكثر عقلانية لظواهر الحياة المختلفة التي تبدو غير عقلانية ومتناقضة دون هذه الصيغ من الإيمان. بالإضافة لذلك فإنها جميعًا بينما تحدد علاقة الإنسان بالعالم، فإنها تلزمه بنمط معين من السلوك يتوافق مع هذه الرؤية. ولذلك فإن أَسَّسَ التعليم الدِّيني لموقف غير عقلاني لا يفسر شيئًا، بل يربك أكثر من فهم الحياة، فإنه في هذه الحالة ليس إيمانًا، بل تحريفٌ له قد فَقَدَ السمات الرئيسة

للإيمان الحقيقي.

لا يقتصر الأمر على أن هذا النوع من الإيمان ليس موجودًا عند معاصرينا، لكنهم أيضًا لا يعلمون شيئًا عن ماهيته، ويعنون بكلمة إيمان إما ما ينطقونه بألسنتهم وقدمه له الناس على أنه الإيمان، أو تنفيذ الشعائر التي تساعد على تحقيق أهدافهم كما تُعلِّم الكنيسة المسيحية.

-٨-

يعيش معاصرونا دون أي إيمان. يشكل جزء منهم الأقلية المثقفة الغنية، المتحررة من سيطرة الكنيسة، وهم لا يؤمنون بشيء؛ لأنهم يعتبرون الإيمان محض حماقة، أو أنه أداة مفيدة من أجل السيطرة على الجماهير. أما الغالبية الفقيرة غير المتعلمة، وباستثناء عدد قليل جدًّا من المؤمنين الحقيقيين بينهم، بينما هي تحت تأثير الإيحاء، تظن أن الإيمان هو ما أُوحي به إليها على أنه الإيمان، لكنه في واقع الأمر ليس إيمانًا؛ ليس لأنه لا يوضح للإنسان فقط علاقته بالعالم، بل أيضًا يشوشها. هذا الوضع المتبادل بين زيف وكذب الأقلية من ناحية وأغلبية مُنوَّمة من ناحية أخرى، أدى إلى تشكيل حياة عالمنا المعاصر المدعو مسيحيًّا. إنها حياة مريعة تلك التي تمسك فيها الأقلية بكافة وسائل التنويم، والغالبية قد تم تنويمها.. إنها حياة مريعة بسبب قسوة ولا أخلاقية القائمين على السلطة، والاضطهاد والجور القائمين على غالبية الطبقة العاملة. لم يحدث أبدًا من قبل في أي فترة انحدار دِيني أن حدث هذا التجاهل التام والكامل للسمة الرئيسة لكل ديانة، وعلى

رأسها المسيحية، وهي مساواة البشر، إلى تلك الدرجة التي وصلت إليها في زماننا هذا. بالإضافة لغياب الدِّين، فإن التعقيد الحاد للحياة، والذي يخفي عن الناس عواقب أفعالهم، يعد سببًا رئيسًا لهذه القسوة المريعة التي يمارسها بشر على بشر آخرين. فمهما كانت قسوة أتيلا(٩٩) أو جانكيز خان وأتباعهما، إلا أنهم كانوا يقتلون الآخرين وجهًا لوجه، ولا بد أن عملية القتل كانت كريهة لهم، والأكثر منها عواقب أفعال القتل من نحيب الأقارب وحضور جثث القتلى أمام مرأى العين. لذلك فعواقب القتل قد تعمل على تخفيف حدته، أما في زماننا فنحن نقتل الناس عبر هذه التقنيات المعقدة، وتُخفي بعناية عواقب هذا القتل عنا، حتى أن كل ما يمكن أن يخفف من حدة هذا الفعل يختفي تمامًا، والآن فإن قسوة بعض البشر على الآخرين آخذة في الازدياد أكثر فأكثر، حتى وصلت في وقتنا هذا إلى حدود لم تصل إليها أبدًا من قبل.

أعتقد أنه في وقتنا هذا إن أراد موظف عادي جدًّا -ولن أقول شخصًا شريرًا مثل نيرون- أن يصنع بركة من دماء البشر يسبح فيها بعض المرضى الأغنياء كعلاج قد وصفه لهم أهل الخبرة من الأطباء للوقاية من أمراضهم، فإنه سيقوم بهذا العمل دون أي تردد إن استطاع فقط أن يقوم به بشكل مريح ومقبول، فلن يستخدم العنف مثلًا ليريق دماء الناس، بل يقودهم إلى هذا الوضع الذي لا يتمكنون فيه أن يفعلوا أي شيء سوى إراقة دمائهم، وبالإضافة لذلك سيقوم بدعوة رجال

(٩٩) ملك هوني عاش بين عامي (٣٩٥-٤٥٣ م)، كان آخر حكام الهون وأقواهم، أسس في إقليم روسيا وأوروبا إمبراطورية كبيرة الاتساع، عاصمتها في ما يسمى هنغاريا اليوم.

الدِّين والعلماء ليقوموا بتدشين هذه البركة الجديدة، كما يباركون المدافع والأسلحة والسجون والمشانق، ثم يبحثون عن دلائل ضرورة وشرعية هذه المؤسسات كما قد بحثوا عن دلائل ضرورة الحرب وبيوت الدعارة. إن المبدأ الرئيس لكل ديانة هو المساواة بين البشر، وقد نسيناه وأهملناه إلى هذا الحد الذي عادت فيه مختلف العقائد الغبية للسيطرة على الأديان، والأمر ذاته في العلم حتى أصبح الصراع من أجل البقاء، والبقاء للأصلح، ضرورات للحياة، فأصبح تدمير حيوات ملايين البشر من أجل مصالح الأقلية المسيطرة ظاهرة طبيعية وضرورية تمامًا في الحياة، وتحدث باستمرار.

إن معاصرينا لا يمكنهم أن يشعروا بالسعادة من هذه الإنجازات الجبارة اللامعة المستمرة التي حدثت بفضل تكنولوجيا القرن التاسع عشر.

ما من شك أنه لم يحدث في التاريخ من قبل نجاح مادي مَكَّن الإنسان من السيطرة على قوى الطبيعة، مثلما حدث في القرن التاسع عشر. ولكن ما من شك أيضًا أنه لم يظهر من قبل نموذج لحياة لا أخلاقية تحررت تمامًا من أي كابح لقوى الإنسان الحيوانية المعتملة بداخله، كتلك الحياة التي يحياها مجتمعنا المسيحي المتحولة للبهيمية أكثر فأكثر. النجاح المادي الذي وصل إليه البشر في القرن التاسع عشر عظيم جدًّا، ولكن ثمن هذا النجاح كان التجاهل التام لأكثر المتطلبات الأخلاقية أهمية، بدرجة لم يصل إليها الإنسان من قبل حتى في عصر جانكيز خان أو أتيلا أو نيرون.

لا جدال في أن السفن القوية، والسكك الحديدية، ومطابع الكتب، والأنفاق والتصوير الفوتوغرافي والأشعة السينية.. كل هذه المخترعات جيدة بالطبع، ولكن ما هو جيد أيضًا وخارج أي مقارنة مع أي شيء هي الحياة الإنسانية، كما يقول راسكن[١٠٠]، والتي يعيشها ملايين البشر الآن بشكل وحشي، ويكدحون من أجل صناعة هذه السفن وشق الطرق والأنفاق.. إنهم لا يحيون حياة حسنة، بل مريعة. وعادة ما تكون الإجابة الشائعة عن ذلك: إن هذه المخترعات قد اختُرعت بالفعل، وستُخترع مع الوقت وسائل لن تبقى معها الحياة البشرية بهذا الشكل كما هي الآن، ولكن هذا غير حقيقي. إن لم يعتبر البشر أنفسهم أخوة، فلن تُعتبر الحياة البشرية أبدًا مقدسة لا يمكن حرمان أحد منها، ولن تكون مساندتها واجبًا ضروريًا. هذا يعني أنه إن لم يتعامل البشر بشكل دِيني مع بعضهم البعض، فسيظل تحقيق الصالح الشخصي لكل منهم مدعاة لشقاء حياة الآخرين. ما من أحمق يمكنه أن يُبدِّد الآلاف إن كان بإمكانه الوصول إلى هدفه بإنفاق مئات، مع القضاء على قليل من النفوس البشرية الرازحة تحت نير سلطته. في شيكاغو يموت العدد نفْسه من البشر كل عام في بناء السكك الحديدية، ولا يقتني أصحاب هذه المشاريع الآلات المناسبة التي تمنع هلاك هؤلاء البشر، بعد أن حسبوا أن المرتب السنوي للهالكين في هذه المشاريع هم وأُسرهم أقل تكلفة من توفير هذه المعدات.

---

(١٠٠) جون راسكن: شاعر إنجليزي، وناقد فني، ومفكر اجتماعي، وله العديد من المؤلفات والأعمال الأدبية والفنية، وقد كان لكتاباته وفنه أثر كبير في العصر الفكتوري والعصر الإدواردي.

من الجائز جدًّا أن يشعر أولئك مَن يدمرون حيوات بشر آخرين من أجل صالحهم الخاص بالخجل من الرأي العام، أو يتم إجبارهم على تزويد المشاريع بالمعدات اللازمة لمنع هذه الحوادث، ولكن طالما ظل البشر غير دِينيين، يقومون بأفعالهم أمام الناس لا أمام الله، فبعد أن يقوموا بتزويد المشاريع بهذه المعدات اللازمة، ويحافظوا على حياة البشر في مكان ما، سيعاودون فعل ما يصب في صالح مصالحهم المادية مجددًا في مكان آخر، وامتصاص حيوات البشر حتى آخر قطرة.

من السهل أن تقاتل الطبيعة، وتقيم السكك الحديدية، والبواخر والمتاحف... إلخ، طالما لا تشفق على البشر. يفخر الفراعنة المصريون بأهراماتهم، ونحن نعجب بتاريخ أولئك الفراعنة، ناسيين حيوات ملايين العبيد الذين هلكوا لتشييد هذه المنشآت. كما نفخر نحن أيضًا بقصورنا ومعارضنا وسفننا، ونظام التلغراف خاصتنا العابر للمحيطات، متجاهلين تمامًا الثمن الذي دفعناه مقابل إنشاء كل هذا. يمكننا أن نفخر بكل هذه الإنجازات في حالة واحدة فقط، عندما يكون كل هذا قد أنشئ بعمل الناس طواعية، لا بالعبودية.

غزت الشعوب المسيحية الهنود الأمريكيين، والهنود، والأفارقة، والآن يقاتلون ويغزون الصينيين ويفخرون بكل هذا. ولكن كل هذا الغزو والاستعمار لا يحدث بسبب أن الشعوب المسيحية أسمى روحيًّا من الشعوب الأخرى التي يغزونها، بل على العكس من ذلك؛ لأنهم أدنى روحيًّا منهم. وبعيدًا عن الهنود والصينيين، فحتى بين أبناء قبيلة

الزولو[١٠١]، ثمة بعض الالتزامات الدينية الأخلاقية التي تبيح أفعالًا معينة وتحرم أخرى، أما شعوبنا المسيحية فليست لديها أية التزامات أخلاقية. غزت روما العالم كله عندما تحررت فقط من أية ديانة، والأمر ذاته الآن يحدث مع الشعوب المسيحية ولكن بدرجة أقوى. جميعهم في الوضع ذاته، فقد غاب الدِّين عندهم تمامًا، لذلك وبغض النظر عن الخلاف الخارجي، فقد توحدوا جميعًا داخل عصابة غازية واحدة، يمكنها أن تقوم بالسرقة والنهب والفسق والقتل صوب أشخاص معينين أو جماعات بأكملها، ليس فقط دون أن يشعروا بأي وخذ من ضمائرهم، بل أيضًا بشعور كامل بالرضى، كما يحدث الآن في الصين. البعض لا يؤمن بشيء ويفخر بذلك، وآخرون يتظاهرون بأنهم يؤمنون، ولكنهم يسعون لمصالحهم الخاصة تحت ادعاء الإيمان الذي ينوِّمون به الشعوب، أما الفئة الثالثة وهي التي تشكل غالبية البشر، فيقبلون هذا الإيحاء على أنه الإيمان، ويخضعون للعبودية وينفذون كل ما يطلبه منهم مَن يتسلطون عليهم، الذين لا يؤمنون بشيء وينوِّمونهم.

ويطالب أولئك المنوِّمون بما يطالب به كل مَن على شاكلة نيرون، الذين يحاولون دومًا ملء فراغ حيواتهم، يطالبون جميعًا بالرضى بجنونهم وترفهم غير الطبيعي. ولا يمكن الوصول إلى هذا الترف إلا باستعباد الناس، ولا يزداد الترف إلا بوجود العبودية، ولا يمكن لهذا الترف أن يزداد بأي طريقة أخرى سوى بدعم العبودية؛ لأن وحدهم

(١٠١) مجموعة من القبائل الإفريقية، اشتهرت بخصائصها القتالية الباسلة وولعها بالحرب، وخلال عشرينات القرن الثامن عشر بدأت بقيادة زعيمها الشهير شاكا بمهاجمة الشعوب المجاورة بوحشية ضارية.

الجوعى والبردانين والمستعبدين للضرورة مَن يمكنهم صنع هذه الحياة التي لا يحتاجونها، بل يرغب فيها مَن في السلطة من أجل اللهو.

-٩-

في الإصحاح السادس من سفر التكوين يَرِدُ مقطع غامض يقول فيه الكاتب إن الله قبل الطوفان -وحينما رأى أن الروح التي منحها للبشر ليخدموه- قام البشر باستخدامها من أجل خدمة رغباتهم، احتد غضبًا على البشر، وندم على خلقه لهم، وقرر قبل أن يبيد الجنس البشري كاملًا أن يُقصِّر العمر البشري إلى ١٢٠ عامًا فقط [١٠٢]. طبقًا لسفر التكوين إذنْ غضب الله من هذا، وقرر تقصير العمر البشري إلى ١٢٠ عامًا، وهو ما يحدث الآن مع أبناء عالمنا المسيحي.

العقل هو القوة التي تُمكِّن البشر من تحديد علاقتهم بالعالم، وكما أن البشر جميعهم في مصاف واحد من ناحية وجود علاقة تربطهم بالعالم، فكذلك الدِّين الذي يؤسس لهذه العلاقة يُوحِّد البشر، وتؤدي هذه الوحدة إلى رخاء البشر روحيًّا وماديًّا.

يمكن للوحدة الكاملة أن تتم في العقل الكامل السامي، لذلك فالخير الأسمى مثال تسعى إليه الإنسانية، لذا فكل ديانة تمنح سكان مجتمع معين إجابة واحدة عن سؤال: «ما العالم؟ وما دور البشر فيه؟»

---

(١٠٢) وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات، ٢ أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. ٣ فقال الرب: «لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد، لزيغانه، هو بشر. وتكون أيامه مئة وعشرين سنة» تك٦: ١ - ٣.

تُوحِّد أبناء هذا المجتمع، ومن ثَم تحقق رخاءه. بينما إن حاد العقل عن دوره الطبيعي في تأسيس العلاقة مع الله، والنشاط الذي يتلاءم مع هذه العلاقة، لا يُوجِّه البشر فقط لخدمة أهوائهم، ولا حتى حرب شريرة بين البشر بعضهم وبعض، بل يُبرِّر أيضًا هذه الحياة الشريرة المناقضة لسمات ودور الإنسان، فتحدث هذه المجاعات المريعة التي يعاني منها الآن معظم البشر، وتصبح العودة إلى هذه الحالة من الحياة العاقلة والصالحة مستحيلة تقريبًا. يتوحد الوثنيون جميعًا عبر تعاليم دينية فظة، لكنها أقرب كثيرًا للحقيقة من الشعوب المفترض أنها مسيحية في زماننا هذا، والتي تعيش دون أية ديانة، والتي يثق أكثر أبنائها المثقفين بأن الدِّين لا حاجة لنا إليه، وأنه من الأفضل أن نحيا دون دِين على الإطلاق، ويوحون للآخرين بذلك أيضًا.

من الممكن أن نجد بين الوثنيين قومًا بعد أن عرفوا عدم تطابق إيمانهم مع معارفهم الإنسانية وأسئلة عقولهم، أنتجوا تعليمًا دينيًّا أكثر ملائمة لحالتهم الروحية هم وأبناء شعبهم، أما معاصرونا الذين ينظرون للدِّين كأداة للسيطرة على البشر، وأولئك مَن ينظرون إلى الدِّين على أنه مجرد حماقات، والفئة الثالثة التي تُشكِّل الغالبية الرازحة تحت تأثير تنويم أو إيحاء من في السُّلطة، والذين يعتقدون أنهم يؤمنون بالدِّين الحقيقي، فجميعهم أصبحوا محصنين ضد أي حركة يمكن أن تقترب من الحقيقة.

وبشعورهم بالفخر بإنجازاتهم الخاصة بحياتهم المادية، وبفلسفاتهم المنمقة التافهة التي لا تهدف فقط لإثبات صحة موقفهم

فقط، بل أفضليتهم أيضًا على كافة الشعوب في التاريخ البشري بأكمله، ظلوا كامنين في بربريتهم ولا أخلاقيتهم، وهم على ثقة كاملة أنهم في هذا الوضع السامي الذي لم يصل إليه إنسان من قبل، وأن كل خطوة في طريق البربرية واللاأخلاقية تُقرِّبهم أكثر فأكثر من التنوير والتقدم السامي.

-١٠-

يود الإنسان لو يجلب التناغم بين نشاط قواه المادية الجسدية، والعقلية الروحية. ولا يشعر بالهدوء إلا بحضور هذا التناغم، ولكن إقامة هذا الاتساق بين قواه يحدث بطريقتين؛ الأولى- عندما يقرر الإنسان بعقله ضرورة القيام بفعل معين أو الرغبة فيه، ومن ثَم يتصرف بشكل يتسق مع العقل. الطريقة الأخرى- عندما يقوم بفعل ما تحت تأثير الشعور، وبعدها يبحث عن تبرير أو تفسير عقلي لهذا التصرف.

الطريقة الأولى التي تعمل على موافقة الأفعال مع العقل يقوم بها أولئك مَن يؤمنون بديانة ما، وعلى أساس الموقف الذي توضحه الديانة يقومون بأفعال معينة، ويمتنعون عن أخرى. أما الطريقة الأخرى فيقوم بها غير الدينيين، الذين ليست لديهم قاعدة عامة لتحديد مدى جدارة أفعالهم، لذلك فهم دائمًا ما يحاولون جلب التناغم بين أفعالهم والعقل، لا على أساس خضوع أفعالهم للعقل، بل يقومون بأفعالهم بوحي من الشعور، ثم يستخدمون العقل بعدها في تبرير هذه الأفعال.

ولأن الإنسان الدِّيني يعلم ما في تصرفاته وتصرفات الآخرين من طيِّب وشرير، ولما هو طيب أو شرير، فإن وجد تناقضًا بين متطلبات عقله وتصرفاته أو تصرفات الآخرين، يبذل كافة قواه العقلية كي يجد وسيلة لإزالة هذا التناقض، فيتعلم أفضل السبل لتوافق أفعاله متطلبات عقله. بينما غير الدِّيني، وبينما ليست لديه أي أداة ترشده لتحديد مدى جدارة الأفعال المختلفة بشكل منفصل عن السرور الذي تجلبه هذه الأفعال، وبينما يتبني ما تقدمه مشاعره إليه، وهي غالبًا مشاعر متناقضة ومختلفة تمامًا، فإنه يسقط في التناقض لا محالة، وبعدها يحاول أن يحل هذه التناقضات أو يخفيها بذكاء سواء أكثر أو أقل تعقيدًا، ولكن دائمًا ما يحدث هذا عبر حجج وبراهين مزيفة. وبينما حجج الدِّينيين دائمًا ما تكون بسيطة غير معقدة، وحقيقية، فالنشاط العقلي لغير الدِّينيين يكون صعبًا ومعقدًا وكاذبًا.

لنتناول أكثر الأمثلة انتشارًا: إنسان اعتاد الفسق، غير طاهر، يخون زوجته أو لم يتزوج تاركًا لنفْسه العنان في الفسق والمجون. إن كان هذا الإنسان مؤمنًا بدِين فسيعلم أن هذا شر، وسيعمل نشاطه العقلي بأكمله على توجيهه إلى وسيلة يتحرر بها من رذائله، ويقطع بها أي اتصال مع الزواني والزانيات، ويزيد بها من عمله ويعيش حياة صارمة، ولا يسمح لنفْسه أن ينظر إلى النساء كموضع للشهوة.. كل هذا بسيط ومنطقي تمامًا. ولكن إن كان هذا الرجل لا دِينيًّا، فسيجتهد في إيجاد كافة التبريرات الممكنة لتبرير حبه للنساء، وهنا تبدأ أكثر التعبيرات تعقيدًا ومكرًا عن انصهار الأرواح والجمال وحرية الحب... إلخ، وكلما تنتشر

هذه الادعاءات يزداد الأمر إعتامًا، ويُخفي ما نحن في حاجة إليه.

الأمر ذاته يحدث مع غير الدِّينيين في كافة مجالات النشاط الإنساني والفكر. فمن أجل إخفاء التناقضات الداخلية يسوق معاصرونا حججًا وبراهينَ مزخرفة معقدة، تملأ العقل بكافة أنواع التفاهات غير الضرورية، وتبعد ذهن الناس عما هو ضروري وهام، وتعطيهم الفرصة كي يظلوا في هذا الكذب الذي يعيشون داخله دون أن يلاحظوه.

«أحب الناس الظلمة أكثر من النور؛ لأن أعمالهم كانت شريرة. لأن كل مَن يعمل السيئات يبغض النور، ولا يأتي إلى النور لئلا توبخ أعماله» يو ٣: ١٩ ٢٠.

ونتيجة لغياب أي دِين بين معاصرينا، فبعد أن عاشوا حياة قاسية بربرية لا أخلاقية، قاموا بنشاط عقلي معقد مزخرف بطَّال لإخفاء شر الحياة التي يحيونها، إلى درجة من التعقيد جعلت معظم الناس يفقدون تمامًا أي فرصة في رؤية أي فارق بين الفضيلة والرذيلة؛ الحق والكذب.

ما من سؤال يمكن أن يجيبه معاصرونا ببساطة ووضوح؛ فكل الأسئلة التي تختص بالاقتصاد أو السياسة الخارجية والداخلية، السياسية، الدبلوماسية، العلمية، ولن أتحدث عن الفلسفية والدِّينية، جميعها تُعالج بشكل مزيف وغير صحيح، لذلك تُغلَّف بطبقة سميكة من الحجج المعقدة، والمفاهيم والمصطلحات المزيفة، والسفسطة والمجادلات، حتى يصبح من العصي الوصول إلى أي إجابة بشأنها، فتصبح مثل إطار سيارة دون عجلة قيادة أو سائق، وكل هذا له هدف واحد فقط، وهو إخفاء هذا الشر الذي يحيون بداخله عن أنفسهم وعن الآخرين.

نجد دائمًا سمة رئيسة في كافة مجالات ما يُدعى الآن «عِلمًا»، تعمل على تبديد كافة قوى الناس العقلية في جميع مجالات المعارف الإنسانية. تتلخص هذه السمة في أن جميع مجالات بحث علمنا المعاصر تتجنب التعامل مع السؤال الحقيقي الذي نحن في حاجة إلى إجابة عنه، وتتعامل مع أمور أخرى ثانوية، لا تؤدي لنتيجة معينة، وكلما تتقدم فيها كلما تزداد تشابكًا وتعقيدًا. لا يمكن أن يكون الأمر مختلفًا مع عِلم تقوم الصدفة وحدها على اختيار مجالات بحثه، ولا تتدخل مطالب المنظور الدِّيني فيه بشيء، لتحدد ما الذي يجب دراسته ولماذا، وأي الأمور يجب دراستها أولًا، وأيها يُدرس لاحقًا. على سبيل المثال فالسؤال المناسب الآن لعلم الاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد يبدو أنه سؤال واحد: لماذا لا يعمل أحدهم، والآخر عليه أن يعمل؟ إن كان ثَم سؤال آخر مثل: «لماذا يعمل الناس فرادى، ويعوق أحدهم الآخر، ولا يعملون سويًّا مما يحقق مكسبًا أكبر؟» فهو مُتضمن بطبيعة الحال في السؤال الأول، فعندما تختفي اللامساواة، تختفي الحروب. يبدو أمامنا سؤال واحد، الذي طرحته، ولكن العِلم لا يفكر في طرحه أو البحث عن إجابة عنه، لكنه يجري براهينه وحججه بعيدًا، فيصبح من المستحيل أن يتمكن أحدهم من حل المشكلة الرئيسة. تبدأ الجدالات عما كان، وعما هو كائن الآن، ويتعاملون مع الماضي والحاضر وكأنهما ثابتان لا يتغيران، وكأنه تيار ينير السماء، ويبتكرون مفاهيمَ مجردة عن

القيمة ورأس المال والأرباح والنسب، لتبدو معقدة، ومنذ مئة عام وهم يتجادلون في هذه الأمور، بينما السؤال الحقيقي سهل وبسيط.

والإجابة عن السؤال تتلخص في أنه كما أن كافة البشر إخوة ومتساوون، فعلى كل منهم أن يتصرف مع الآخرين كما يريد أن يتصرف الآخرون معه، لذا فالأمر كله يعتمد على ترك القانون الدِّيني الكاذب، واعتناق الحقيقي. ولكن الأمر لا يقتصر على أن مثقفي العالم المسيحي لم يفعلوا ذلك، بل على النقيض من ذلك، يحاولون أيضًا إخفاء إمكانية هذا الحل عن الناس، ومن أجل القيام بذلك يقومون بكل هذه الجهود العقلية البطَّالة التي يطلقون عليها «عِلم».

يحدث الأمر ذاته في قطاع القانون، فيبدو أمامنا سؤال واحد حقيقي: «لماذا هناك من الناس مَن يسمحون لأنفسهم بارتكاب العنف ضد آخرين، وسلبهم وسجنهم وقتلهم وإرسالهم إلى الحرب هم وكثيرون آخرون؟ الإجابة عن السؤال شديدة البساطة إن فحصناه من وجهة النظر الوحيدة المناسبة؛ الدِّينية. من وجهة النظر الدِّينية لا يمكن للإنسان ولا يتوجب عليه ممارسة أفعال العنف على آخرين، لذلك فثمة أمر واحد يتوجب علينا فعله كي نحل المشكلة؛ تحطيم كافة الخرافات والسفسطات التي تبيح العنف، وأن نُلهم الناس بالمبادئ الدِّينية التي تحرِّم العنف بوضوح.

ولكنَّ مثقفي عصرنا لا يفعلون ذلك، ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إنهم أيضًا يستخدمون كافة ألاعيبهم العقلية كي يخفوا عن الناس إمكانية وضرورة هذا الجواب عن السؤال. يكتبون مئات الكتب عن

المبادئ المختلفة: المدنية والجنائية، الشرطية، والكنسية والمالية.. إلخ، ويتحدثون ويتجادلون في هذه المواضيع، وهم على ثقة كاملة أن ما يفعلونه مفيدٌ، بل وشديد الأهمية أيضًا. ولكن التساؤل عن سبب إمكانية إدانة وإجبار بشر متساويين بالطبيعة، وسلبهم وإعدامهم، لا يجيبون عنه أبدًا، بل ولم يسمعوا عنه إطلاقًا! طبقًا لعلمهم فإن هذا العنف لا يقوم به الناس، بل كائن مُجرَّد يُدعى الدولة. وهكذا يراوغ علماء عصرنا ويتفادون الأسئلة الحقيقية، ويخفون التناقضات الداخلية في كافة مجالات المعرفة. في المعارف التاريخية مثلًا ثمة سؤال واحد: كيف عاش الشعب الشغيل والذي يمثل ٩٩٩ من ١٠٠٠ من البشرية؟ وما من إجابة عن سؤال كهذا، فهو غير موجود بكتب التاريخ، رغم أن المؤرخين يكتبون أطنانًا من الكتب التاريخية، إلا أنها تتركز في الأساس على أمور من قبيل: كيف شعر لويس التاسع بألم في معدته؟ وما الأفعال الشائنة التي قامت بها إليزابيث ملكة إنجلترا[١٠٣] وإيفان الرابع [١٠٤]؟ ومَن كانوا وزراء؟ وما القصائد والأعمال الكوميدية التي كُتِبت من أجل إمتاع هؤلاء الملوك وعُشَّاقهم ووزرائهم؟ بينما يعمد مؤرخو مدرسة أخرى إلى الكتابة عن المكان الجغرافي الذي عاشت فيه مجموعة من البشر، وماذا كان طعامهم، وبما تاجروا، وكيف كانت

---

(١٠٣) إليزابيث الأولى ٧ سبتمبر ١٥٣٣م -٢٤ مارس . كانت الملكة الحاكمة لإنجلترا وأيرلندا من ١٧ نوفمبر ١٥٥٨م حتى وفاتها.

(١٠٤) إيفان الرابع ١٥٣٠ - ١٥٨٤، موسكو) المعروف باسم إيفان الرهيب أمير موسكو العظيم وقيصر عموم روسيا الأول، تُوِّج أميرًا لموسكو عام ١٥٣٣ في سن الثلاث سنوات، وتُوِّج كأول قياصرة روسيا في العام ١٥٤٧ وهو في السادسة عشرة من عمره، مما يجعله حاكمًا من عام ١٥٣٣ وحتى وفاته.

أشكال الفساتين التي ارتدتها النساء... باختصار.. يكتبون عن كل ما ليس بإمكانه أن يكون لديه أي تأثير على حياة الشعب، ولكن ذلك كان نتاج ديانتهم، والتي اعتقد المؤرخون أنها هي التي نتجت عن الطعام والثياب.

وأثناء ذلك، فالإجابة عن سؤال: كيف عاش الشعب الشغيل؟ لا يمكن أن نصل إليها إن لم نتعامل مع الدِّين بوصفه شرطًا ضروريًّا لحياة الشعب، لذا فالإجابة ممكن الوصول إليها بدراسة هذه الأديان التي آمنت بها هذه الشعوب، والتي وضعتهم في هذه الأوضاع التي هم فيها الآن.

من الممكن أن يبدو من دراسة التاريخ الطبيعي أنه لم تكن هناك حاجة لإفساد منطق الناس السليم، ولكن حتى هنا مع منبع الفكرة التي قادت العِلم المعاصر بدلًا من أكثر الإجابات منطقية على سؤال: «ما طبيعة عالم البشر والحيوانات والنباتات، وكيف انقسم؟» اندلعت مجادلات تافهة وغير واضحة، مجرد ثرثرة بطالة، اهتمت في الأساس بمناقضة قصة خلق العالم بسفر التكوين، لتوضح كيف ظهرت الكائنات الحية إلى سطح الوجود، وهو الأمر الذي لا يهم أحدًا بشكل خاص، بل ولا يمكن معرفته على أي حال؛ لأن أصل هذه العملية مهما حاولنا تفسيره سيظل محجوبًا عنا في فضاء المكان والزمان اللانهائيين. وحول هذه الأمور أنشأوا النظريات وقاموا بمجادلات، وألفوا ملايين الكتب، حتى خرجوا إلينا بهذه النتيجة غير المتوقعة، وهي أن قانون الحياة الذي على الإنسان أن يحيا به هو: الصراع من أجل البقاء.

الأكثر من ذلك، فإن التطبيقات العلمية مثل التكنولوجيا والطب قد بدأت في غياب الإرشاد الدِّيني في الانحراف بشكل عفوي عن أدوراها المنطقية وتبنت اتجاهات كاذبة، فبدلًا من أن تتوجه التكنولوجيا مثلًا لإيقاف عمل الشعب الشغيل القاسي، عملت على زيادته، وهو الأمر اللازم للطبقات الغنية وحدها، ويزيد من الهوة بين الأغنياء والفقراء، والسيد والعبد. إن كانت هناك فائدة من هذه المخترعات والإنجازات، أو بعض الفتات منها سقطت لجموع الشعب؛ فذلك ليس لأنها صُنعت خصيصًا من أجلهم، بل لأن طبيعتها الخاصة تحول دون منع الشعب من الاستفادة منها.

الأمر ذاته مع علم الطب الذي يسير في اتجاهه المزيف بما يوافق مصالح الأغنياء وحدهم، ولا يمكن لجموع الشعب التي تحيا هذه الحياة الفقيرة، مع تفادي هذه الأسئلة الأساسية لتحسين حياة الفقراء، أن تستفيد من الطب في هذه الظروف، بل يوضح هذا كيف انحرف علم الطب عن طريقه الأصيل.

المذهل في هذا الانحراف عن الأسئلة الجوهرية وتحريفها يكمن فيما ندعوه اليوم: «فلسفة». يبدو أن ثَم سؤالًا واحدًا يجب على الفلسفة أن تتعامل معه: ماذا عليَّ أن أفعل؟ وفي فلسفات الشعوب المسيحية ثمة إجابة بدرجة ما عن هذا السؤال، حتى وإن اختلطت بكثير من العقم والفوضى، مثلما نجد عند إسبينوزا وكانط في كتابه: نقد العقل العملي، وشوبنهاور، وخاصة عند روسو، إلا أنه كانت ثمة إجابة على أي حال، ولكن في الفترة الأخيرة، ومع ظهور هيجل الذي قال إن كل

ما هو موجود فهو عقلي، انسحب سؤال: «ما العمل؟» إلى الخلف، ووجهت الفلسفة كامل انتباهها إلى بحث الأمور كما هي موجودة بالفعل، وتكييف النظريات على هذا الوضع. كان هذا أول انحدار في الفلسفة. أما الخطوة الثانية، فكانت توجيه الفكر الإنساني إلى درجة أكثر انحطاطًا، وهي التعرف على القانون الجوهري: الصراع من أجل البقاء؛ فقط لأن هذا الصراع من الممكن أن نلاحظه في عالم الحيوانات والنباتات. طبقًا لهذه النظرية فهلاك الضعفاء يعد قانونًا لا يجب علينا أن نخرقه. وأخيرًا تأتي المرحلة الثالثة مع المحاولات الصبيانية لنصف مجنون يُدعى نيتشه، والتي لا تقدم حتى أي فكرة كاملة أو متماسكة، بل مجرد مخططات منقوصة لا أخلاقية غير مؤسسة على أي فكرة، والتي يعتبرها المثقفون المعاصرون عِلمًا فلسفيًّا. كإجابة عن سؤال: «ما العمل؟» فالإجابة الآن مباشرة: «عش كما تشاء، ولا تلقِ بالًا بحياة الآخرين بتاتًا».

وفضلًا عن الجرائم المرتكبة في جنوب أفريقيا والصين، والتي يدافع عنها رجال الدِّين، بل واعتُبرت كإنجازات عظيمة من كثير من المرموقين في كل أنحاء العالم، فإن كان ثَم شك في وصول المجتمع المسيحي اليوم إلى هذه الدرجة المريعة من الغباء وفقدان السيطرة، فالنجاح الساحق الذي حققته كتابات نيتشه وحدها يعد دليلًا كافيًا على ذلك. كتابات غير مترابطة، شديدة السوقية، كاتبها مصاب بجنون العظمة، جريئة لكن ضيقة الأفق، وشديدة الألمانية. ومن ناحية الموهبة والقوة فليست لهذه الكتابات أي فرصة كي تُنشر. وإن عدنا لزمن كانط

وليبنتز وهيوم، بل حتى منذ خمسين عامًا فقط،لم يكن الأمر ليتوقف على عدم الانتباه لهذه الكتابات فقط؛ لكن لم تكن لتظهر إلى النور من الأساس. أما في زماننا فكافة مَن ندعوهم مثقفين يُعجبون بهذيان نيتشه ويتجادلون بشأنه ويفسرون كلماته، وتُنشر مقالاته بكافة اللغات في عدد لانهائي من النسخ.

قال تورجينيف ذات مرة بسخرية إن ثَم أمورًا عامة معكوسة يستخدمها من الناس فقراء الموهبة كي يلفتوا إليهم الأنظار. على سبيل المثال يعرف الجميع أن الماء سائل، ثم يظهر فجأة أحدهم ويقول -وهو في كامل الجدية-: إن الماء صلب، ولا يقصد الثلج، بل الماء نفْسه، ويلفت إليه الأنظار بهذه الثقة التي يُعرب بها عن رأيه.

كذلك يعلم العالم بأجمعه أن الفضيلة هي ضبط الشهوات وإنكار الذات. هذا ليس معروفًا فقط في العالم المسيحي الذي خرج منه نيتشه، لكنه قانون أبدي عرفته كافة الإنسانية، في البراهمية والبوذية والكونفوشيوسية، وفي الدِّيانة الفارسية القديمة. وفجأة يظهر أحدهم ويقول إنه على قناعة بأن إنكار الذات يُعد خنوعًا، وأن التواضع والحب كلها محض رذائل تدمر الإنسانية، وهو يتحدث عن المسيحية متناسيًا وضع هذه الفضائل في الأديان الأخرى. من الممكن فهم الارتباك الذي سببته هذه الكتابات في البداية، ولكن بعد أن يفكر المرء قليلًا، وعندما لا يجد أية دلائل على هذه الآراء المريعة في مقالاته المختلفة، فعلى أي إنسان عاقل أي يُنحي هذه الكتب، ويتعجب كيف ظهرت مثل هذه الحماقات في زماننا. لكن ذلك لم يحدث مع نيتشه، فغالبية الناس

-بما فيهم المتنورون- يتجادلون حول نظرية الإنسان الأعلى، واصفين مؤلفها بالفيلسوف العظيم، سليل ديكارت وليبينتز وكانط.

كل هذا قد ظهر بسبب أن غالبية الطبقة التي نعتقدها مثقفة في زماننا لا تود لأي شيء أن يُذكِّرها بالفضائل، والأساس الذي ترتكز عليه وهو إنكار الذات والحب اللذين يحاصران ويحاربان نمط حياتهم الحيواني، ويقبلون في فرح أية حماقات تُدعِّم تعاليم الأنانية والقسوة، وتهدف إلى سعادتهم وهنائهم، حتى وإن كانت على حساب حياة الآخرين.

-١٢-

وبَّخ المسيح الفريسيين والكتبة لاستيلائهم على مفاتيح ملكوت السماوات، ولم يدخلوا هم أو يسمحوا لغيرهم بالدخول [١٠٥].

هكذا يفعل الآن كتبة العلماء في عالمنا المعاصر، فلديهم المفاتيح، ولا أقصد مفاتيح الملكوت، بل مفاتيح التنوير، فلا يدخلون ولا يسمحون لغيرهم بالدخول. يخدع الكهنة والإكليروس الناس بكل وسيلة ممكنة، ويوحون للناس أن المسيحية ليست تعاليمَ عن مساواة الناس من شأنها أن تُدمِّر كافة النظام الوثني القائم في حياتنا الآن، بل إنها على النقيض من ذلك تؤيد النظام الحالي، وتدعو للتمييز بين الناس كما تختلف النجوم بعضها عن بعض، وأنها تعترف بأن كل السلطات هي من عند الله، ويجب طاعتها طاعة تامة دون مساءلة، كما أنهم

(١٠٥) لكِنْ وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تُغْلِقُونَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ قُدَّامَ النَّاسِ، فَلاَ تَدْخُلُونَ أَنْتُمْ وَلاَ تَدَعُونَ الدَّاخِلِينَ يَدْخُلُونَ. مت٢٣: ١٣.

يخدعون المظلومين على هذه الأرض قائلين لهم إن هذه الأوضاع من الله، وعليهم تحملها بوداعة وخنوع، وأن يخضعوا للظالمين، الذين ليس عليهم بالطبع أن يكونوا متواضعين أو خنوعين؛ بل عليهم أن يُقوِّموا الآخرين ويعلموهم ويعاقبوهم كالأباطرة والملوك والباباوات والأساقفة، وكافة السلطات المدنية والدِّينية، الذين يعيشون في ترف وعظمة، على الخاضعين لهم أن يقوموا بصنعها من أجلهم.

بفضل هذه التعاليم الكاذبة التي يدعمونها بقوة، فإن الطبقات الحاكمة تتسلط على الشعب أكثر فأكثر، ويجبرونهم على خدمة حياتهم البطالة وترفهم ورذائلهم. أما الطبقة الوحيدة من العلماء والتي تحررت من هذا التنويم، والتي بإمكانها وحدها أن تحرر الشعب من خضوعه، والتي تقول إنها تود أن تفعل ذلك، يفعلون كل ما يناقض ذلك، ولا يمكن أن يصل بالشعب إلى هذه الغاية، وهم متصورون أنهم يخدمون الشعب بهذا.

قد يعتقد المرء أن هؤلاء البشر بعد أن عرفوا أكثر ما تخاف منه السلطات التي تُخضع الشعب، قد يدركون ما يمكنه أن يحرك الشعب فعلًا، وما الذي يبقيهم حتى الآن في أماكنهم دون أن يفعلوا شيئًا، وأنهم سوف يُوجِّهون كافة قواهم للوصول إلى مصدر القوة هذا، لكنهم لم يفعلوا هذا أبدًا، بل ويعتبرون أن مثل هذا الفعل بلا فائدة.

وكما لو أن هؤلاء البشر لا يودون رؤية ذلك أبدًا، ويفعلون أمورًا كثيرة للشعب، لكنهم لا يقومون بالفعل الوحيد المطلوب فعله قبل كل شيء من أجل الشعب. تشبه جهودهم جهود رجل يبذل كافة قواه من

أجل تحريك قطار بقوة عضلاته، بينما عليه فقط أن يدخل إلى غرفة المحرك، ويقوم بما يقوم به المسئول عن المحرك؛ أن يحرك الرافعة كي يسمح للبخار بالدخول إليه. هذا البخار هو مفاهيم الإنسان الدِّينية للحياة. عليهم فقط أن يتأملوا بأية غيرة وحرص يحمي مَن في السلطة هذه الماكينة التي يتسلطون بها على الشعب؛ كي يفهموا أين يجب توجيه جهودهم من أجل تحرير الشعب من هذه العبودية.

مَن يدافع عن سلطان الترك، وما أكثر ما يتمسك به؟ ولمَ يُقبِّل الإمبراطور الروسي أيقونات أو رفات مقدسة فور أن يصل إلى أية مدينة؟ ولماذا رغم السمو الثقافي الذي يدعيه، يتحدث الإمبراطور الألماني في كل أحاديثه -بمناسبة أو دون مناسبة- عن الله والمسيح وقداسة الدِّين، ويُقسِم... إلخ؟ ذلك لأن جميعهم يعرفون جيدًا أن سلطتهم ترتكز على القوة العسكرية، وما من إمكانية لوجود القوة العسكرية إلا على أساس الدِّين. وإن ادعى الأغنياء التقوى وتظاهروا بكونهم مؤمنين، يذهبون إلى الكنائس، ويحافظون على يوم السبت، فكل ذلك محض رياء، تحضهم عليه غريزة الحفاظ على الذات، فيعرفون أن الدِّين الذي يؤمنون به يرتبط بمصالحهم في المجتمع بشكل لا مثيل له.

كثيرًا ما يجهل كل هؤلاء الناس شكل السُّلطة التي يحافظون عليها بريائهم الدِّيني، ولكن غريزة الحفاظ على الذات لديهم تحذرهم من نقطة الضعف الكامنة في مركز قوتهم، وهم يدافعون عن هذا المركز بكل قواهم. في حدود معينة يسمح دائمًا هؤلاء البشر للدعاية الاشتراكية بالظهور، بل وحتى الثورية، لكنهم لا يمكن أن يسمحوا لأحد بالمساس

بقواعد الدِّين.

لذلك، فإن لم يفهم مثقفونا المعاصرون -من علماء وليبراليين واشتراكيين وثوريين وأناركيين من التاريخ وعلم النفْس- ما الذي يمكنه أن يحرك الشعوب أكثر من أي شيء، فعليهم أن يقنعوا بهذه الخبرة التي تفسر كيف أن الظروف المادية ليست هي المحرك الرئيس، بل الدِّينية.

ولكن أكثر ما يثير التعجب أن العلماء والمثقفين المعاصرين يمكنهم أن يقوموا بفهم وتشريح الظروف المختلفة لحياة الشعوب، لكنهم لا يرون ما يلتمع أمام العين مباشرة. إن كان هؤلاء البشر يقومون عن عمد بترك الشعب في وحل بربريته الدِّينية من أجل الحفاظ على مصالحهم مع الأقلية الغنية، فإن هذا يعد خداعًا مريعًا ومقززًا. إنهم في جوهرهم أكثر الناس رياءً، أكثر حتى ممَّن أدانهم المسيح، فما من وحش أو شرير يمكنه أن يقوم بكل هذا الشر في حياة البشر كما يفعلون.

إن كانوا حقًّا مخلصين، فالتفسير الوحيد الممكن لهذا الموقف، هو أنه كما وقعت عامة الجموع تحت التأثير الخادع للدِّين المزيف، فكذلك هؤلاء العلماء وقعوا تحت التأثير الخادع للعلم المزيف، واعتقدوا أنه عصب حياة البشرية الحقيقي الذي عاش ولا يزال يعيش عليه البشر، ولا يمكن استبداله بأي شيء آخر.

يشكل هذا الخداع والمكر للكتبة (المثقفين)[١٠٦] سمة عالمنا المعاصر، وهذا سبب الأوضاع الكارثية التي يحيا فيها المجتمع المسيحي اليوم، والوحشية التي ينغمس فيها أكثر فأكثر.

يؤكد المثقفون والصفوة في عالمنا المعاصر بشكل تلقائي على أن هذه العقائد الدينية الكاذبة -التي يعتنقها عامة الشعب- ليست لها أية أهمية، وأنه ما من داعٍ أو حاجة لمقاتلتها... هكذا فعل هيوم وفولتير وروسو وآخرون. والعِلم من وجهة نظرهم.. هذه المعارف المتبعثرة الاعتباطية التي ينشرونها بين أبناء الشعب، وحدها تستحق الكفاح من أجلها، وأن الإنسان بعد أن علم أن المسافة بين الأرض والشمس تصل إلى عدة ملايين من الأميال، وماهية المعادن الموجودة في الشمس والنجوم، توقف عن الإيمان بتعاليم الكنيسة.

هذا التأكيد سواء كان مخلصًا أو لا، فهو يعد خداعًا رهيبًا ومكرًا مريعًا. من لحظات نمو الطفل الأولى، وهي اللحظات الأكثر عرضة لقبول الإيحاء، لا يتمتع القائمون على تعليم الطفل بأي حذر على الإطلاق في الإيحاء له بأمور مناقضة للعقل والمعرفة، وعقائد حمقاء ولا أخلاقية كتلك التي يطلقون عليها الآن «الدِّين المسيحي». يلقنون الطفل عقيدة التثليث التي لا يمكن للعقل السليم أن يقبلها، ونزول أحد هذه الآلهة الثلاثة على سطح الأرض من أجل إنقاذ الجنس البشري،

(١٠٦) يشبه المثقفون بالكتبة الدِّينيين الذين أدانهم المسيح، وغير مقصود الكُتَّاب.

وقيامته وصعوده إلى السماوات، ويعلمونه عن مجيئه الثاني، وعقابه لكل مَن لم يؤمن بهذه العقيدة بالعذاب الأبدي، ويعلمونه أن يصلي من أجل احتياجاته وأشياء أخرى كثيرة، وعندما تتخلل هذه التعاليم المناقضة للعقل والمعرفة والضمير الإنساني بين ثنايا عقل الطفل، يتركونه لحال سبيله كي يشق طريق بين هذه المتناقضات الموجودة بالعقيدة المقبولة من قبلهم والتي يعتبرونها حقيقة خالصة لا تقبل الشك. ولا يخبره أحد كيف يمكن أن يُوفِّق بين هذه المتناقضات، وإن حاولوا القيام بهذا يزداد الأمر تعقيدًا. ويعتاد الإنسان تدريجيًّا على أن العقل تستحيل الثقة فيه، وهذا ما يُشدِّد عليه اللاهوتيون بقوة، لذلك فكل شيء ممكن، وما من وسيلة داخل الإنسان يمكنه بها أن يميز بها بين الفضيلة والرذيلة، بين الحقيقة والكذب، وعليه ألا يسترشد في سلوكياته بالعقل، الأمر الذي يشكل أهمية قصوى له، بل يسترشد في سلوكياته بما يخبره به الآخرون. من الواضح بالطبع حجم التشوه الذي يحدث في العالم الروحي للإنسان إثر هذه التربية، والتي تدعمها كافة وسائل الإيحاء الممكنة في هذا العمر، وبمساعدة الكهنة والإكليروس تُمارس على كافة الشعب. إن نجح إنسان ذو روح قوية وصاحب أعمال ومعاناة عظيمة في تحرير نفْسه من هذا التنويم الذي تربى عليه منذ الطفولة واستمر معه حتى البلوغ، والذي يحوي كل ما يخالف العقل، فلن يمر الأمر دون آثار وخيمة، كما لا يمكن في عالم المادة أن يفلت عضو قوي من آثار سم قوي دون أي أثر. من الطبيعي جدًّا لهذا الإنسان الذي تحرر من خداع التنويم، ويُكِنُّ كراهية للكذب الذي تحرر

منه، أن يعتنق وجهات نظر المثقفين المعاصرين، الذين يعتبرون الدِّين بأكمله أحد المعوقات الرئيسة لطريق التقدم. وبعد أن يعتنق وجهة نظر المثقفين يصبح هذا الإنسان بلا مبادئ أو ضمير، يسترشد في حياته بإرضاء شهواته فقط، ولا يدين نفْسه على ذلك، بل يعتبر نفْسه قد وصل إلى أعلى مراحل التطور الروحي الممكنة للإنسان.

هذا ما يحدث مع أصحاب القوة الروحية الكبيرة من البشر. أما الأقل منهم قوة، بالرغم من تنامي الشكوك إلى قلوبهم، إلا أنهم لا يتحررون كاملًا من هذا الخداع الذي تربوا عليه، ويعتنقون نظريات ماكرة مغلفة بالخداع تمكنهم من تبرير هذه العقائد الحمقاء التي يقبلونها. ومع التعايش مع الشكوك والسفسطة والغموض والخداع الذاتي سيشاركون في تجهيل الشعب ومعارضة تنويره.

غالبية الناس لا تملك القوة أو الفرصة لمواجهة الإيحاء المفروض عليهم، وستأتي أجيال وترحل لتعيش كما يعيش المعاصرون الآن، محرومة من نعمة الإنسان السامية، وهي الفهم الدِّيني الحقيقي للحياة، وسيظل هذا الفهم سلاحًا مناسبًا فقط للطبقات التي تتسلط عليهم وتخدعهم.

وفيما يخص هذا الخداع المريع يقول العلماء والمثقفون إنه ما من حاجة أو ضرورة لمواجهته. التفسير الطبيعي لهذا الرأي إن كانوا يعتقدون فيه بصدق، أنهم هم أيضًا واقعون تحت تأثير تنويم العِلم الكاذب، وإن كانوا غير مخلصين فالتفسير إذنْ يمكن تلخيصه في أن أي هجوم على المعتقدات الدِّينية الراسخة لا يفيدهم بشيء، بل هو

أمر خطير أيضًا. سواء كان هذا عن صدق أو لا، فالتأكيد على أن اعتناق دِين كاذب ليس له ضرر، أو أنه أمر غير هام، ومن الممكن إذنْ أن ينتشر التنوير دون أي مضايقة من الدِّين الكاذب، أمر غير حقيقي تمامًا.

إن تخليص الإنسانية من مصائبها ينحصر فقط في تحريرها من هذا التنويم الذي يمارسه الإكليروس، والمثقفون على حد سواء. فإن أردت أن تملأ وعاءً بشيء ما عليك أن تفرغه أولًا ممَّا بداخله، كذلك يجب تحرير الناس من الخداع الذي يسيطر عليهم حتى يتمكنوا من اعتناق الدِّين الحقيقي الصحيح والمناسب لتطوير علاقة الإنسان بمصدره؛ أي الله، لينشأ عن هذه العلاقة ما يرشد الإنسان في سلوكه.

-١٤-

«ولكن أثَم دِين حقيقي؟ كافة الأديان مختلفة تمامًا، وليس لدينا الحق كي ندعوا أحدها حقيقيًّا لأنها تروق لنا أكثر فحسب». هكذا يقول الناس الذين يفحصون الأديان من ظاهرها الخارجي، كمرض ما قد تحرروا منه، ولكن لا يزال آخرون يعانون منه. ولكن هذا غير حقيقي، فالأديان تختلف في أطرها الشكلية، لكنها جميعًا واحدة في قواعدها الأساسية. تُشكِّل هذه القواعد الأساسية في كافة الأديان الديانةَ الحقيقيةَ، التي تناسب جميع البشر في زماننا، واعتناقها وحده يمكن أن يُخلِّص البشر من الكوارث التي حلت بهم.

عاشت البشرية من زمن بعيد، وكما نجحت في ابتكار أدواتها

العملية التي تحتاجها، فلا يمكن أن تفشل في التوصل إلى هذه الأسس الروحية التي تشكل أساسيات حياتها، وتنتج بدورها قواعد السلوك. إن لم يستطع الأعمى رؤية هذه الحقيقة، فهذا لا يعني أنها ليست موجودة. إنها ديانة عامة لكافة البشر في زماننا، وليست ديانة محددة بسماتها والتحريفات التي لحقت بها، لكنها ديانة تتألف من هذه الشروط الدِّينية الثابتة في كافة الديانات المعروفة والتي يتبعها أكثر من تسعة أعشار البشرية. لم يفقد البشر سيطرتهم كاملةً على الموقف لسبب واحد فقط، وهو أن أفضل مَن فيهم، ورغم عدم وعيهم بهذا، إلا إنهم يتمسكون بهذه الديانة ويتبعونها، ولكن الخداع وحده الذي يتعرضون له بمعاونة رجال الدِّين والمثقفين، وحده يعوقهم عن قبولها بوعي.

تلائم أساسيات هذه الديانة كافة البشر، حتى أنه فور أن يعرفها الناس حتى يقبلونها ويشعرون أنهم يعرفونها منذ زمن بعيد، وقد تخلوا عنها فقط. بالنسبة لنا فهذه الديانة الحقيقية هي المسيحية بهذه الأساسيات التي تشبه في جوهرها -لا في مظهرها الخارجي- أساسيات البراهمانية والكونفوشيوسية والطاوية واليهودية والبوذية، بل وحتى الإسلام. الأمر ذاته بالنسبة لأتباع الكونفوشيوسية والديانات الأخرى. الديانة الحقيقية هي تلك التي تتفق مبادؤها الأساسية مع كافة المبادئ الأساسية لغالبية الديانات الأخرى، وهذه المبادئ شديدة البساطة ومفهومة وغير معقدة.

تتلخص هذه المبادئ في أنَّ ثَم إلهًا، وهو أصل كافة المخلوقات، وأن في الإنسان قبس منه، من الممكن أن يزيد الإنسان هذه الشرارة الإلهية بداخله، أو يهملها ويطفئها في حياته. كي يزيد من وهجها عليه

أن يقمع شهواته ويزيد من طاقة الحب بداخله، والوسيلة العملية التي تمكنه من تحقيق هذا، أن يعامل البشر بمثل ما يريدهم أن يعاملوه. كافة هذه المبادئ معروفة وعامة بالنسبة للبراهمانية واليهودية والكونفوشيوسية والبوذية والمسيحية والإسلام. وإن لم تعترف البوذية بالله بشكل واضح، إلا أنها على أي حال تعترف بما يمتزج به الإنسان عندما يصل إلى النيرفانا، وهو ما تدعوه اليهودية «الله»، وكذلك المسيحية والإسلام.

ولكنَّ معاصرينا يقولون: «ولكن هذه ليست ديانة»، وقد اعتادوا على أن يميزوا سمات الأديان الرئيسة بالخرافات والأمور غير المعقولة. يقولون: «أطلقْ عليها ما تشاء.. إنها فلسفة أو أخلاق أو حديث ما، لكنها لا يمكن أن تكون ديانة». الديانة من وجهة نظرهم عليها أن تكون حمقاء وغير مفهومة. أؤمن؛ لأنه مناف للعقل»[(١٠٧)]. وبسبب هذه المبادئ وما تمخض عن الوعظ بها على أنه التعليم الدِّيني، حدثت عملية طويلة من التحريف مع كل هذه الأعاجيب والخوارق الخرافية والتي تعد أساسًا مهمًّا الآن في كل ديانة. التأكيد على أن الخرافة ومناقضة العقل يشكلان أساسيات الدِّين، يشبه تمامًا رؤية التفاح المتعفن وحده، والتأكيد على أن الترهل والمرارة والتأثير السيئ على المعدة سمات أساسية لثمرة التفاح.

تشكل الديانة علاقة محددة بين الإنسان بخالق الكون، وعن هذه العلاقة يتعرف الإنسان على دوره، وبهذا يتحدد سلوكه. الديانة العامة

(١٠٧) credo quia absurdum بالفرنسية في الأصل، وكما ذكرنا سابقًا فهي مقولة لترتليانوس.

التي تتشابه قواعدها الأساسية في كافة الديانات، تلبي كاملًا هذه الاحتياجات. إنها تحدد علاقة الإنسان بالإله كجزء من الكل، ومن هذه العلاقة تتحدد وظيفة الإنسان التي تتلخص في زيادة السمات الإلهية بداخله، وتقود معرفة الإنسان بدوره إلى السلوك وفق قاعدة عملية وهي: عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك.

كثير من الناس يشكون في أن قاعدة مجردة مثل هذه القاعدة من الممكن أن تشكل إرشادًا حقيقيًّا للسلوك، أكثر من قواعد أكثر بساطة مثل الصلاة والصوم والقربان وغيرها، وقد ساورني أنا أيضًا الشك في هذا في وقت ما، ولكن ثمة إجابة لا ترقى للشك عن هذه الشكوك، يمكن أن نجدها في الفلّاح الروسي البسيط الذي يفضل الموت على أن يبصق القربان المقدس في قلب الروث، لكنه في تمام الاستعداد لقتل إخوته عندما يأمرونه بذلك [١٠٨].

فلماذا إذنْ لا يمكن للمتطلبات التي تفرضها قواعد مثل: «عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك» - «لا تقتل إخوتك» - «لا تشتم» - «لا تزنِ» - «لا تنتقم» - «لا تستغل احتياجات إخوتك من أجل تلبية رغباتك أو رغبات آخرين»، أن تكون موحية بقوة شديدة وملزمة للبشر، مثل الإيمان بقداسة القربان والأيقونات عند الناس الذين يتأسس إيمانهم أكثر على الثقة أكثر من الوعي الداخلي الواضح؟

---

(١٠٨) أعتقد أن تولستوي لا يقصد الإخوة بالدم، لكنه يقصد إخوته في البشرية عندما يقتلهم في الحرب بأوامر من القيادة.

إن حقائق الدِّين العامة لكافة البشر في عالمنا المعاصر شديدة البساطة، وواضحة وقريبة إلى قلب كل إنسان، حتى أنه يكفي فقط أن يقوم الوالدان والحكَّام والمربون بدلًا من تعليم عقائد حمقاء مثل التثليث والسيدة العذراء والفداء والإندرا(١٠٩) والتريمورتي(١١٠)، والطائرين إلى السماء مثل بوذا ومحمد، وهي عقائد هم لا يصدقونها على أي حال، أن يقوموا بتعليم الأطفال والبالغين هذه الحقائق الدِّينية العامة لكافة البشر، الواضحة البسيطة، والتي يتأسس جوهرها الميتافيزيقي على أن الإنسان يحمل قبسًا من روح الله، وقاعدتها الأخلاقية أن يعامل الإنسان الآخرين كما يحب أن يعاملوه، وهي كافية تمامًا لتغيير حياة الإنسان بأكملها. فليفعلوا هذا كما يعلمون الأطفال والبالغين الآن أن يؤمنوا بأن الله أرسل ابنه الوحيد كي يُكفِّر عن خطية آدم، ويؤسس كنيسته التي يجب أن تُطاع، ليتحدد متى وأين يجب أن نصلي ونتناول القربان المقدس، وما الطعام الذي يجب أن نمتنع عنه ومتى نتوقف عن العمل... بدلًا من كل ذلك علموهم أن الله روح، تعيش تجلياته بداخلنا، ومن الممكن أن نشعل قواه بداخلنا. فلنعلمهم هذا فقط، وكل ما يتأسس على هذه القواعد، بدلًا من الإيحاء لهم الآن بكل القصص التي لا يحتاجونها والأحداث المستحيلة، والقواعد الناجمة

---

(١٠٩) إله فيدي في الديانة الهندوسية وهو ملك السماوات الأولى، ويشبه زيوس وجوبيتر في الأساطير الأوروبية القديمة.

(١١٠) **Trimurti**: مجموعة من ثلاثة آلهة هندوسية: براهما- فيشنو- شيفا.

عنها جميعًا، والطقوس العبثية... وبدلًا من الحرب العبثية والانفصال السريع دون مساعدة الدبلوماسيين والحقوق الدولية ومجلس السلام والاقتصاديين والسياسيين والاشتراكيين وكافة التقسيمات سنرى البشرية بأكملها تعيش في سلام ووفاق حياة سعيدة تحت إرشاد ديانة واحدة حقيقية.

ولكن ما من شيء يشبه هذا يحدث الآن، فلا يقتصر الأمر على السماح لخداع الدِّين الكاذب وعدم تعليم الحقيقي، ولكن الناس على النقيض من ذلك، يبتعدون أكثر فأكثر عن إمكانية قبول الحقيقة.

السبب الرئيس في أن الناس لا يفعلون ما هو طبيعي وضروري وممكن يتلخص في أن معاصرينا قد تعودوا طويلًا على حياة دون دِين، وأسسوا حياتهم ورتبوها على العنف والسيوف والرصاص والسجون والمشانق، حتى بدا لهم أن هذه الحياة ليست فقط طبيعية، بل إن أي حياة أخرى غير ممكنة. لا يقتصر الأمر كما يعتقد كثيرون على أولئك المستفيدين من الوضع القائم، بل أيضًا مَن يعانون منه، الـمُخدَّرين بالإيحاء، جميعهم يعتقدون أن العنف هو الوسيلة الوحيدة لتحسين حياة المجتمع الإنساني. وبينما تتوطد أسس المجتمع وتترسخ على العنف، يبتعد الناس أكثر فأكثر عن فهم سبب معاناتهم وإمكانية حدوث تقدم حقيقي في حياتهم.

ما من شيء يشبه ما يحدث الآن سوى طبيب شرير يزرع مرضًا شريرًا كالحصبة داخل جسد المريض دون أن يعلم، فتزداد حدة المرض وتستحيل إمكانية الشفاء منه.

بالنسبة لِمَن في السُّلطة الذين يستعبدون الجموع، والذين يقولون في قرارة أنفسهم: «نحن، ومن بعدنا الطوفان»[111]، يبدو من الملائم جدًّا التزود بالجيوش والكهنة والمقاتلين والشرطة، وتهديد الرصاص والحراب والسجون والإصلاحيات والمشانق لإجبار الشعب الكادح على العيش في هذا الخداع وتلك العبودية حتى لا يعوق شيءٌ مَن في السُّلطة من الاستفادة من هذه الأوضاع. وتقوم السُّلطة بما تدعوه «إصلاحًا»، بينما لا يحول دون الإصلاح سوى ما يفعلونه. ففي جوهره ليس إصلاحًا، بل هو عمل شرير.

إن كان لدى النَّاس في مجتمعاتنا بقية قليلة من الأسس الدينية التي تعيش بين الجموع، بدلًا من هذا النموذج من الجرائم المرتكبة في حقوق البشر بواسطة أولئك مَن أخذوا على عاتقهم حماية النظام والأخلاق في حياة البشر بالحروب والإعدامات وبيع الخمور والأفيون، لم يكونوا ليفكروا في فعل واحد شرير من هذه الأفعال كالخداع والعنف والقتل.. تلك الأفعال التي يقومون بها الآن وهم على يقين كامل أنها أفعال حسنة وتصب في مصلحة البشر.

لا يمكن تحسين قانون الحياة الإنسانية -سواء للفرد أو المجموعة- إلا عن طريق تقدم أخلاقي داخلي. كل معاناة الناس من أجل تحسين الحياة الخارجية لبعضهم البعض عن طريق العنف، تخدم انتشار أكثر نماذج العنف فاعلية، والأمر لا يقتصر على أنها لا تحسن الحياة فقط، بل على النقيض من ذلك؛ تُزيد الشر، الذي يتزايد أكثر فأكثر ككرة

(١١١) بالفرنسية في الأصل: **après nous le deluge** .

ثلجية، ويُبعد الناس عن الفرصة الوحيدة لتحسين حياتهمـ فعلًا.

كلما يزداد العنف وتزيد الجرائم الـمُرتكبة تحت غطاء القانون بواسطة حراس النظام والأخلاق، تزداد قسوته أكثر فأكثر، ويتم تبريره أكثر فأكثر بخداع التنويم القائم على الدِّين، ويتمسك الناس أكثر فأكثر بفكرة أن قانون حياتهم لا يتأسس على الحب وخدمة الآخر، بل في الصراع والقضاء على بعضهم البعض.

وكلما يتمسكون بهذه الفكرة التي تهبط بهم إلى درجة الحيوانية، كلما يزداد تحررهم من هذا التنويم الذين يرزحون تحته أكثر صعوبة، ويصعب قبولهم لقاعدة الحياة الحقيقية الدِّينية الصالح لكافة البشرية في زماننا.

تتأسس حلقة جهنمية، ويمنح غياب الدِّين فرصة للحياة الحيوانية المؤسسة على العنف، وهي بدورها تزداد أكثر من لا إمكانية التحرر من التنويم واعتناق الدِّين الحقيقي. لذلك لا يقوم الناس بما هو طبيعي وممكن وضروري في زماننا، ولا يفكون أسر هذا الخداع الذي يتخذ مظهر الدِّين، ولا يتبنون أو يعظون بالدِّين الحقيقي.

-١٦-

هل من مخرج إذنْ من هذه الحلقة الجهنمية؟ وإن كان ثَم مخرج، فأين هو؟

في البداية، أخبرونا أن إخراج الناس من هذه الحلقة ممكن فقط

عن طريق النظام، الذي يأخذ على عاتقه واجب إرشاد الشعب صوب الصالح لحياتهم. طالما فكر كثيرون بهذه الطريقة، وحاولوا تغيير نظام الحياة القائم على العنف بالتعقل والخدمة المشتركة والحب. هكذا فكر المصلحون المسيحيون ومؤسسو نظريات الشيوعية الأوروبية المختلفة، وكذلك المصلح الصيني ميه تيه الذي اقترح حكومة تهدف لخير الشعب، وتعلم الأطفال في المدارس علومًا غير عسكرية، ولا تدربهم تدريبات عسكرية، وتمنح البالغين مكافآت، لا على المآثر العسكرية، بل تعلم الأطفال والبالغين الاحترام والحب، وتمنح المكافآت على هذه الدوافع وتمتدحها. هكذا فكر ولا يزال يفكر كثير من المصلحين الدِّينيين الروس، والذين أعرفهم، وأعرف كثيرين الآن بدءًا من سوتايف[١١٢]، وانتهاء بشيخ تقدم خمس مرات بالتماس للإمبراطور حتى يُمنع الدِّين الكاذب ويتم الوعظ بالمسيحية الحقيقية.

يبدو للناس بشكل طبيعي أن النظام الذي يؤسس وجوده على العناية بالشعب والبحث عن الخير لحياته، عليه كي يؤسس لهذا الخير أن يستخدم الوسيلة الوحيدة التي لا يمكنها أبدًا أن تكون ضارة بالشعب، بل يمكنها فقط أن تؤدي لنتائج جيدة. ولكن النظام لم يقم في أي وقت من الأوقات أو في أي زمن من الأزمنة بأخذ هذا الواجب على عاتقه، بل على العكس، يدافع دائمًا وفي كل مكان، بكل قوة عن الديانة الكاذبة الموجودة، ويبذل كافة قواه كي لا يعرف الشعب أسس الديانة الحقيقية. وفي الواقع لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، فأن يكشف

(١١٢) فاسيلي كيريللوفيتش سوتايف (١٨٢٤– ١٨٩٢): فلاح روسي ولد في مقاطعة تفير.

النظام عن زيف الديانة السائدة ويعظ بالحقيقية، فهذا يعني أن يحطم الإنسان هذه الحلقة التي يستند وجود النظام عليها.

ولكن إن لم يقم النظام بهذا، فبلا شك يتوجب على المثقفين القيام به، وهم قد تحرروا من خداع الدِّين الكاذب، ويأملون -على حد قولهم- أن يخدموا الشعب الذي نشأوا في كنفه. لكنهم مثل النظام تمامًا، لا يفعلون هذا. السبب الأول- في ذلك أنهم يرون أنه من غير المستحسن أن يعرضوا أنفسهم للخطر أو الملاحقة من قبل النظام من أجل كشف هذا الخداع الذي يدافع عنه النظام، والذي سوف يدمر نفْسه بنفْسه كما يعتقدون. السبب الثاني- أنه باعتبارهم الدِّين بأكمله أمرًا مضللًا قد عفا عليه الزمن، فهم لا يعرضون على الشعب شيئًا بديلًا له يمكن أن يسمحوا به.

تبقى إذنْ جموع الشعب غير المثقف، والرازحين تحت سلطان خداع هذا التنويم الذي يقدمه كل من النظام والكنيسة، والذين يعتبرون هذا الشيء الذي يشبه الدِّين، الذي أوحى به إليهم هو الديانة الحقيقية، ولا يمكن أن تكون ثمة ديانة أخرى. إنهم يعانون تحت وطأة تنويم مستمر وعنيف، وتأتي أجيال، وتمضي أخرى في نفْس الخداع الذي يرعاه رجال الدِّين والنظام، وإن تحرروا منه فلا محالة أنهم سينضمون إلى مدارس العلماء والمثقفين الرافضين للدِّين، ويصبح تأثيرهم ضارًّا وقاتلًا مثل تأثير معلميهم تمامًا.

إذنْ فالأمر غير نافع لبعضهم، وغير ممكن للآخرين.

وكأنه ما من مخرج!

بالفعل ما من مخرج، ومن غير الممكن أن يكون بالنسبة لغير الدينيين ثمة مخرج من هذا الوضع، فالمنتمون للطبقات العليا المثقفة -حتى وإن تظاهروا أنهم مهتمون بخير جموع الشعب- لن يمكنهم أبدًا أن يدمروا حقًّا هذا الخداع وتلك العبودية التي تعيش فيها جموع الشعب، بينما يسترشدون بأهداف دنيوية، فتلك الظروف تمنحهم فرصة أن يتسلطوا على الجموع. الأمر ذاته مع المستعبدين، فباسترشادهم بأهداف دنيوية لا يمكنهم أن يزيدوا هذا الوضع البائس بالدخول في صراع مع الطبقة العليا من أجل كشف كذب التعليم، ونشر الحقيقة. لا هذه المجموعة ولا تلك لديها حافز حقيقي لفعل هذا، وإن كانوا أذكياء لن يفعلوا هذا أبدًا.

ولكن الأمر مختلف مع الدِّينيين، فهؤلاء البشر حتى مع فساد المجتمع، تتوقد نار الدِّين المقدسة في حياتهم، والتي من غيرها لا يمكن لحياة بشرية أن توجد. يأتي وقت -وهو الآن- عندما لا نرى هؤلاء البشر، ويُحتقرون من الجميع ويتم إذلالهم بشكل معيب، ويقضون حياتهم في المنفى والسجون وفي عقوبات تأديبية في الجيش، وهو ما يحدث عندنا الآن، لكنهم موجودون، وعليهم تعتمد الحياة الإنسانية العقلانية. ومهما كان عدد هؤلاء الدِّينيين قليلًا، فبإمكانهم هدم هذه الحلقة الجهنمية التي تُقيِّد الناس. يمكنهم أن يفعلوا هذا بالرغم؛ لأن

كل ما هو غير نافع وخطير للإنسان الدنيوي، وما يعوقه عن السير ضد تيار الحياة القائم بالفعل، لا يعوق الإنسان الدِّيني على الإطلاق، بل يزيد من حميته في صراعه مع الكذب واتباع كلمات وأفعال الحقيقة الإلهية بالنسبة إليه. إن كان ينتمي إلى الطبقات العليا، فلن يرفض فقط بإخفاء الحقيقة من أجل المنفعة التي تعود عليه من أوضاعه القائمة، بل على العكس، فبشعوره بالكراهية لهذه المنافع، سيبذل كافة قواه من أجل تحرير نفْسه من هذه المنافع وإعلان الحقيقة؛ لأن ما من شيء في حياته يهم سوى خدمة الله، والأهداف السامية. أما إن كان ينتمي إلى طبقات المستعبدين، فالأمر مماثل، فبعد أن يُرفض من المجتمع العام لرغبته في تحسين ظروفه المادية، لن يكون لدى هذا الإنسان هدف آخر سوى تنفيذ إرادة الله في فضح الكذب وإعلان الحقيقة، ولن تصلح أي معاناة أو تهديد في إجباره على التوقف عن العيش في توافق مع الفكرة الوحيدة التي تحرك حياته بأكملها. لذا فهذا وذاك سيسلكان تمامًا كما يسلك الرجل الدنيوي متحمِّلًا المتاعب؛ كي يصل إلى منفعته أو يرضي السُّلطة التي ينتظر منها منفعة ما. يتصرف كل إنسان دِيني على هذا المنوال؛ لأن التنوير الذي يحدثه الدِّين في روحه لا يتعلق فقط بحياة واحدة على هذه الأرض كما يعيش غير الدينيين، بل يستمر إلى الأبد.. حياة أبدية لا يهددها موت أو معاناة وقتيين، كما لا يلتفت العامل أو الفلاح إلى الندوب في أيديهم والتعب الجسدي.

وحدهم هؤلاء البشر مَن يمكنهم تحطيم تلك الحلقة الجهنمية التي تُكبِّل الناس الآن بالأصفاد. وبالرغم من قلة عددهم، وتواضع مستواهم

المجتمعي، وقلة ثقافتهم وإمكاناتهم العقلية، إلا إنهم كالنيران المشتعلة في السهوب الجافة.. نيران تضطرم في جسد العالم بأكمله الظامئ من طول مدة حياة الناس دون دِين، المتعطشة قلوبهم للتجديد.

ليس الدِّين إيمانًا يتأسس مرة واحدة في العمر كاملًا، كالخرافات والصلوات والطقوس العبثية الشهيرة، ولا أيضًا بقايا الخرافات الهمجية القديمة كما يعتقد العلماء، والتي ليست لديها أي معنى في حياتنا الآن، بل يشكل الدِّين علاقة الإنسان بالله القابلة للتطوير بشكل يتفق مع العقل ومعارف الإنسان، وهذه العلاقة من شأنها أن تحرك الإنسانية للأمام صوب الهدف المنشود.

«قلب الإنسان مصباح إلهي»، هكذا تقول حكمة يهودية قديمة. الإنسان ضعيف، كائن بائس طالما لا يشع بقلبه نور الله. ولكن عندما يشع هذا الضوء في داخله بتأثير الدِّين، يصبح أقوى مخلوقات الكون، ولا يمكن أن يحدث هذا بطريقة أخرى؛ لأن القوة التي تسري في قلبه في هذا الوقت ليست قواه، وإنما قوة الله.

هذا هو الدِّين، وهذا جوهره.

١٩٠١ - ١٩٠٢

محاورة بين أبٍ وابنه

فانكا: أبي، لماذا ترك ميخائيل القرية بالأمس سعيدًا يطلق الأغاني؟

الأب: لقد أخذوه إلى الجيش.

فانكا: أهذا أمر جيد بالنسبة له؟

الأب: لا أعتقد!

فانكا: لماذا إذنْ هو سعيد؟ ماذا سوف يفعل في الجيش؟

الأب: سيعيش في المدينة، في بناية خاصة بالجيش.

فانكا: وماذا سوف يفعل هناك؟

الأب: سيتعلم القتال، وضرب النار؛ كي يدافع عن الوطن.

فانكا: وما الوطن؟

الأب: إنه الأرض التي نحيا عليها.

فانكا: أيعني هذا أن هذه الأرض التي نعيش عليها ملكنا؟

الأب: ليت هذا يحدث... حتى ولو حصل كل فرد على قطعة

صغيرة من الأرض بدلًا من لا شيء.

فانكا: إذنْ فمَن يملك هذه الأرض؟

الأب: الأغنياء.

فانكا: لماذا ذهب ميخائيل إذنْ كي يدافع عن أرض لا تخصه؟ ما فائدة هذا طالما لدى الأغنياء أراضٍ كثيرة؟

الأب: إن كانت لدينا قطعة أكبر قليلًا من الأرض، من المؤكد أن وضعنا كان سيتحسن... سيتغير كل شيء.

فانكا: لماذا لا نحصل على ما نحتاجه من الأرض؟

الأب: لن يمنحوها لنا، وليس بحوزتنا المال لشرائها.

فانكا: أخبِرْني يا أبي... هل لدى مَن يعيشون في المدينة أراضٍ كثيرة؟

الأب: على الإطلاق...إنهم فقراء جدًّا.

فانكا: الكل فقراء عدا الأغنياء! ما دام عدد الفقراء كبيرًا، لمَ لا يأخذون ما يحتاجونه من الأراضي؟

الأب: للأسف يستحيل فعل هذا.. سوف يستدعون الجنود فورًا.

فانكا: وماذا سيفعل الجنود؟

الأب: يطلقون النار على الناس!

فانكا: هل هذا معقول؟! ألن يذهبوا إلى السجن عقابًا لهم على هذه الفعلة؟

الأب: السجن!! سيكافئونهم يا بُنيَّ على هذا.

فانكا: هل هذا معقول؟ عندما فتح بيتروخ جابريل رأس أحدهم في العيد، أرسلوه إلى السجن ٥ سنوات، وتقول إنهم سيكافئون الجنود إن ضربوا الناس بالنار؟ هذا غريب جدًّا. ولماذا يفتح الجنود نيرانهم على الناس؟

الأب: سيأمرهم الضبَّاط بهذا، مثلما سيحدث مع ميخائيل.

فانكا: أتعني أن ميخائيل يمكن أن يطلق علينا النار؟

الأب: هو وكافة الجنود!

فانكا: لماذا إذنْ سيذهب إلى الجيش؟

الأب: إن لم يذهب، سيأتون بجنود آخرين، ويجبرونهم على الذهاب إلى الجيش.

فانكا: جنود أغنياء؟

الأب: أغنياء!! فقراء يا بُنيَّ كميخائيل تمامًا.

فانكا: ولماذا يساعد الجنودُ الأغنياءَ لا الفقراء؟

الأب: إن لم يفعلوا ذلك، سيضربونهم بالنار، أو يرسلونهم إلى السجن.

فانكا: مَن سيقوم بذلك؟ الضبَّاط؟

الأب: لا... جنود آخرون!

فانكا: فقراء أيضًا؟!

الأب: نعم!

فانكا: وماذا سوف يحدث لهم إن لم ينفِّذوا أوامر الضبَّاط؟

الأب: وقتها... وقتها.. سوف...

فانكا: وقتها لن يذهب أحد إلى الجيش، ولن يكون هناك جيش، ومَن يحتاج أرضًا سيزرعها ويأكل من خيرها، ولن يقتل أحدٌ الآخرَ، وسيصبح كل شيء على ما يرام.

يستغرق الأب في التفكير.

الأب: يبدو أنك على حق رغم صغرك!

ليف تولستوي

١٩٠٩



لطالما سمعنا أن الكُتَّاب الكبار هم مفكِّرون وفلاسفة من طرازٍ رفيع جدًا. وليس هذا بغريب، مادمنا نرى الأدب وجهًا كاملًا للحياة بصورها المختلفة والمتنوعة.

في هذا الكتاب -الذي اختار المُترجم مقالاته وخطاباته بعنايةٍ فائقةٍ- نرى تولستوي مفكِّرًا وفيلسوفًا ومُحلِّلًا اجتماعيًا، يتتبَّع الحقائق، مستندًا على التَّاريخ، ومنطلقًا برؤًى مُحلِّقة، مبتدئًا من بديهياتٍ راسخةٍ، ومنتهيًا إلى قناعاتٍ مخيفةٍ أحيانًا.

هذا الكتاب بالنسبة لعُشَّاق روايات تولستوي سيكون إطلالةً مغايرةً على عالم هذا الرَّجُل العظيم، الذي شغل -ولا يزال- يشغل بال الكثيرين، ويحتفظ لنفْسه بمكانةٍ عاليةٍ في المكتبة العالمية.



